شرح غاية المراد

في نظم الاعتقاد

غاية المراد في نظم الاعتقاد

الناظم: الإمام العلَّامة نور الدين عبد الله بن حميد السالمي

الشارح: الشيخ العلَّامة أحمد بن حمد الخليلي

أعد الأسئلة: محمد بن سالم الخروصي

جَمِيعُ ٱلحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطّبْعَة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الكلمة الطيبة

مسقط - سلطنة عُمان

شَرحُ غَايَةِ المُرادِ

فِي نَظمِ الاعتِقَادِ

لسَمَاحة الشِيخ العَلاّمة

أحمد بن حمد الخليلي

ـ حفظه الله ـ

المفتِي العامُ لسَلطَنَةِ عُمَانَ

الكلمة الطيبة

بسم الله الرحمن الرحيم

منظومة

غاية المراد في نظم الاعتقاد

للإمام العلَّامة

نور الدين عبد الله بن حميد السّالمي

(ت ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م)

ـ رحمه الله تعالى ـ

الكلمة الطيبة

تتشـــرف الكلمـــة الطيبـــة بتقديم هـــذه الطبعة التفاعلية الخاصة بأجهزة الحاســـوب والأجهزة الذكية من هذا الكتاب القيّم، خدمةً لطلبة العلم وتســـهيلًا لهم، فما على الطالب سوى الضغط على بيت المنظومة ليصل تلقائـــيًا إلى شرحه، ثم يعود للأبيـــات مجددًا بالضغـــط على كلمة: المحتويات الموجودة أسفل كل صفحة.

وفق الله الجميع في سبيل العلم وصالح العمل.

تنبيه: يجب تحميل تطبيق Adobe acrobat reader للاستفادة من الميزة التفاعلية

المحتويات

تمهيدٌ

الْمُقَدِّمَةُ

بسم الله الرحمن الرحيم

١. الحَمْدُ للهِ مُنْشِي الكَائِنَاتِ عَلَى
مَا شَاءَهَا وَبِلا مِثْلٍ هُنَاكَ خَلا

٢. ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا
وَمَنْ إِلى قَابِ قَوْسَيْنِ دَنَا فَعَلا

٣. وَالآلِ وَالصَّحْبِ مَا كَانَ الْهُدَى عَلَمًا
يَهْدِي بِهِ اللهُ لِلْخَيْرَاتِ مَنْ عَقَلا

٤. وَبَعْدُ فَالدِّينُ لا عُذْرٌ لِجَاهِلِهِ
إِنْ كَانَ مِنْ بَعْدِ تَكْلِيفٍ بِهِ جَهِلا

ذِكْرُ الجُمَلِ الثَّلاثِ وَمَا تَشْتَمِلُ عَليْه

الجُمْلَةُ وَتَفْسِيرُهَا

٥. وَأَوَّلُ الفَـرْضِ مِنْ تَأْصِيـلِهِ جُـمَلٌ
ثَلاثَـــةٌ، فُزْتَ إِنْ تَسْـــتَحْضِرِ الجُمَلا

٦. وَإِنْ أَتَـيْتَ بِهَا نُطْـقًا حَـفِظْتَ بِهَا
لِلنَّفْــسِ وَالْمَالِ، وَالسَّـــبْيُ بِهَا حُظِلا

نَفْيُ الأَنْدَادِ وَالأَشْبَاهِ عَنِ اللهِ تَعَالى

٧. نَـدِينُ أَنَّ إِلَـهَ العَـــرْشِ لَـيْسَ لَـهُ
شِبْــهُ وَلَــيْسَ لَــهُ نِــدٌّ وَلا مَـثَلا

٨. وَأَنَّـهُ لَـــيْسَ جِسْمًا لا وَلا عَرَضًا
لَكِــنَّهُ وَاحِــدٌ فِــي ذَاتِــهِ كَـــمَلا

٩. وَوَاحِدٌ فِي الصِّـفَاتِ وَالعِبَادَةِ وَالـ
أَفْــعَالِ طُـرًّا، فَلا تَـــبْغُوا بِــهِ بَدَلا

أَسْمَاءُ اللهِ وَصِفَاتُهُ الذَّاتِيَّة

١٠. أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُ الذَّاتِ لَيْسَ بِغَيْـ
ـــرِ الذَّاتِ بَلْ عَيْنُهَا فَافْهَمْ وَلا تَحُلا

نَفْـيُ الرُّؤْيَـةِ

١١. وَلا يُحِــيطُ بِهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ بَصَـرٌ
دُنْــيَا وَأُخْرَى، فَدَعْ أَقْــوَالَ مَنْ نَصَلا

نَفْيُ التَّكْيِيفِ

١٢. وَلا يُكَـيِّـفُهُ وَهْــمٌ وَلا فِكَــرٌ
وَلا تُحِــيطُ بِـهِ الأَقْــطَارُ مُدَّخَلا

الاسْتِوَاءُ عَلَى العَرْشِ

١٣. وَهْوَ عَلى العَرْشِ وَالأَشْيَا اسْتَوَى وَإِذَا
عَدَلْــتَ فَهْوَ اسْــتِوَاءٌ غَيْرُ مَا عُــقِلا

١٤. وَإِنَّمَــا الاسْــتِوَا مُلْكٌ وَمَقْــدِرَةٌ
لَـهُ عَــلَى كُلِّهَا اسْــتَوْلى وَقَدْ عَدَلا

١٥. كَمَا يُقَالُ اسْتَوَى سُلْطَانُهُمْ فَعَلا
عَلى البِلادِ فَحَازَ السَّهْلَ وَالْجَبَلا

الإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ

١٦. وَأَنَّ أَحْمَدَ مِنْ رُسْلِ الإِلَهِ، وَقَدْ
يُخَصُّ مِنْ بَيْنِهِمْ فَضْلًا وَمُفْتَضَلا
١٧. وَأَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا أَتَانَا بِهِ
مُبَلِّغُ الثَّقَلَيْنِ مَا بِهِ رُسِلا

الإِيمَانُ بِالْمَوْتِ وَالبَعْثِ وَالحِسَاب

١٨. وَقَدْ أَتَتْ حُجَجُ البُرْهَانِ نَاطِقَةً
بِالْمَوْتِ وَالبَعْثِ وَالْحُسْبَانِ فَامْتَثِلا

الْمِيزَانُ

١٩. وَمَا هُنَالِكَ مِيزَانٌ يُقَامُ كَمَا
قَالُوا عَمُودٌ وَكِفَّاتٌ لِمَا عُمِلا
٢٠. وَإِنَّمَا الوَزْنُ حَقٌّ مِنْهُ ـ عَزَّ ـ أَلَمْ
تَسْمَعْ إِلَى آيَةِ الأَعْرَافِ مُحْتَفِلا

الصِّرَاطُ وَالحِسَابُ

٢١. وَلا الصِّــرَاطُ بِجِسْرٍ مِثْلَ مَا زَعَمُوا
وَمَا الحِــسَابُ بِعَــدٍّ مِثْلَ مَنْ ذَهِلا

الجَنَّةُ وَالنَّارُ

٢٢. وَأَنَّــهُ مَنْ أَطَــاعَ اللهَ يُدْخِــلُهُ
جَنَّاتِــهِ أَبَــدًا لا يَبْــتَغِي نُــقُلا
٢٣. وَمَنْ عَصَاهُ فَفِي النِّـيرَانِ مَسْكَنُهُ
وَلَمْ يَجِــدْ مَفْــزَعًا عَنْــهَا فَيَنْتَقِلا

الشَّفَاعَةُ

٢٤. وَمَا الشَّــفَاعَةُ إِلا لِلــتَّقِيِّ كَمَا
قَدْ قَالَ رَبُّ العُــلا فِيهَا وَقَــدْ فَصَلا

الوُرُودُ

٢٥. وَالْمُؤْمِنُونَ عَنِ النِّـيرَانِ قَدْ بَعُدُوا
وَمَا الوُرُودُ لَهُــمْ بَلْ لِلَّذِي انْخَــذَلا

الكلمة الطيبة

الإِيمَانُ بِالْمَلائِكَةِ

٢٦. وَأَنَّ للهِ أَمْـــلاكًا وَقَـــدْ عُصِـمُوا
وَأَنَّ جِنْسَـــهُمُ عَنْ جِنْسِـــنَا فُصِـــلا

٢٧. فَلا تَصِفْهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِكَ مُطْـ *
ـــلَقًا سِوَى أَنَّهُمْ خَـــلْقٌ قَدِ امْـــتَثَلا

الإِيمَانُ بالأَنْبيَاءِ وَالكُتُبِ

٢٨. وَالأَنْـــبِيَا بِهِمُ الإِيْـــمَانُ يَلْزَمُـنَا
وَمَـــا عَلَى كُـــلِّهِمْ مِنْ كُـــتْبِهِ نَـــزَلا

الإِيمَانُ بالقُرْآنِ وَالقَوْلُ في خَلْقِهِ
وَخَلْقِ غَيْرِهِ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّينَ

٢٩. وَبِالقُرَانِ خُصُوصًا بَعْـدَ جُمْلَـتِهَا
وَلَيْسَ مِنْـــهَا قَدِيـمٌ يَحْـــتَوِي الأَزَلا

٣٠. بَلْ كُـــلُّهَا خَـــلَقَ البَارِي وَكَوَّنَهُ
فِيمَا يَشَاءُ، فَلا تُصْـــغُوا لِمَنْ عَـــذَلا

الإِيمَانُ بالقَضَاءِ وَالقَدَر

٣١. وَبِالقَـــضَا وَبِمَا الرَّحْمَـنُ قَـدَّرَهُ
وَأَنَّـــهُ خَـالِــقٌ أَفْـعَالَـنَـــا حُـــلَلا

٣٢. لَكِـــنَّهُ لا بِجَـــبْرٍ كَانَ مِنْـهُ لَـنَا
وَعِلْمُـــهُ سَابِـــقٌ في كُلِّ مَا جَـــعَلا

٣٣. وَإِنَّمَا الفِعْـلُ مَخْلُوقٌ وَمُكْـتَسَبٌ
فَالخَـــلْقُ للهِ وَالكَـــسْبُ لِمَنْ فَـــعَلا

ذِكْرُ الإيمَانِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَليْه

٣٤. إِيـمَانُنَا القَـوْلُ وَالتَّصْدِيقُ مَعْ عَمَلٍ
فَالقَـــوْلُ مَرَّ فَصَدِّقْـــهُ وَكُـــنْ عَمِلا

٣٥. بِمَا عَلَيْكَ مِنَ الإِيـمَانِ مُفْـتَرَضٌ
وَالنَّـــفْلَ إِنْ تَسْـــتَطِعْ فَافْعَلْهُ مُبْـتَهِلا

قَـوَاعِـدُ الـدِّيـنِ

٣٦. قَوَاعِـــدُ الدِّينِ عِلْـمٌ بَعْـدَهُ عَمَلٌ
وَنِـيَّـــةٌ وَرَعٌ عَـــنْ كُلِّ مَـــا حُـــظِلا

أَرْكَانُ الـدِّيـنِ

٣٧. اِرْضَ وَفَوِّضْ وَسَلِّمْ وَاتَّكِلْ فَبِذَا
تَحُـــوزُ أَرْكَانَـــهُ اللاتي بِهَا كَـــمُلا

مَسَالِكُ الدِّيـنِ

٣٨. ثُمَّ الظُّهُورُ وَدَفْعٌ وَالشِّـرَاءُ مَعَ الْـ *
ـكِتْمَـــانِ طُرْقٌ لَهُ، أَكْرِمْ بِهَـا سُـبُـلا

فَـرْزُ الدِّيـنِ

٣٩. وَفَـرْزُهُ فِي ثَلاثٍ: مُؤْمِـنٍ وَمُـنَا *
فِـــقٍ وَصَاحِبِ شِــرْكٍ جَاحِــدٍ عُذِلا

حِـرْزُ الدِّيـنِ

٤٠. وَحِـرْزُهُ أَنْ تُوَالِي مَنْ أَطَاعَ وَتَبْـ *
ـــرَا مِنْ مُصِرٍّ وَقِفْ عَنْ كُلِّ مَنْ جُهِلا

الوَلايَةُ وَالبَرَاءَةُ

٤١. وَوَالِ فِي جُمْلَةٍ مَنْ قَدْ أَطَاعَ وَعَـا *
دِ مَنْ عَـــصَى جُمْـــلَةً للهِ مُمْـتَـــثِلا

٤٢. وَكُلُّ مَنْ عَصَمَ الْمَوْلَى وَلايَتُهُ
فَرْضٌ كَعُدْوَانِ مَنْ إِيَّاهُ قَدْ خَذَلا

٤٣. وَكُنْ مُوَالٍ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ
حَوَتْهُ طَاعَتُهُ إِلا الَّذِي انْخَزَلا

٤٤. وَعَادِ فِي الدِّينِ جَبَّارًا وَعَامِلَهُ
وَمَنْ لَهُ فِي سَبِيلِ الْمُكْفِرَاتِ تَلا

٤٥. لا كُلَّ مَنْ قَدْ حَوَى سُلْطَانُ عِزَّتِهِ
إِذْ قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ مُؤْمِنٌ دَخَلا

٤٦. ثُمَّ الوَلايَةُ تَوْحِيدًا تَكُونُ وَأُخْـ *
ـرَى طَاعَةً فُرِضَتْ إِنْ شَرْطُهَا حَصَلا

٤٧. كَذَا البَرَاءَةُ، وَالشَّرْطُ الَّذِي وَجَبَتْ
بِهِ الوَلايَةُ: أَنْ تُلْفِيهِ مُمْتَثِلا

٤٨. وَرَبُّنَا لَمْ يَزَلْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِيْـ *
ـيًا هَكَذَا وَعَدُوًّا لِلَّذِي نَصَلا

٤٩. وَهَكَذَا أَبَدًا لَيسَ الزَّمَانُ وَلا الْـ *
أَفْعَالُ تَقْدَحُ فِيهِ، خُذْهُ مُنْتَحِلا

٥٠. لَـكِنَّـــنَا قَـــدْ تُعُـــبِّدْنَا بِطَاعَتِـهِ
فَكُـلُّـــنَا عَامِـــلٌ بِمَـــا لَـــهُ جُـــعِلا

٥١. مَعْـــنَى مُوَالٍ مُـعَادٍ: عَـــالِمٌ بِهِمُ
وَبِالَّـــذِي فَعَـــلُوهُ الجِـــدَّ وَالْهَـــزَلا

ذِكْرُ الكُفْرِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَليْه

٥٢. وَالشِّرْكُ لا بُدَّ مِنْ أَنْ تَعْرِفَنْـهُ لِكَيْ
تَكُونَ في مَقْـــعَدٍ عَنْ غَـــيِّهِ اعْـتَزَلا

٥٣. وَهْوَ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ اللهِ ـ جَلَّ ـ وَبَيْـ *
ـــنَ الخَلْقِ أَوْ جَحْدُهُ سُـــبْحَانَهُ وَعَلا

٥٤. وَمَا سِـوَاهُ مِنَ الكُـــفْرَانِ يَلْزَمُـنَا
أَيْ عِلْمُـــهُ إِنْ عَلِمْـــنَا حُكْمَهُ الفَصِلا

٥٥. مَا لَمْ نَكُنْ رَاكِـبِيهِ أَوْ نُصَوِّبُ مَنْ
يَأْتِيـــهِ عَمْدًا وَجَهْلا، هَكَـــذَا نُـــقِلا

قَـوَاعِـدُ الكُفْـرِ

٥٦. جَهْلٌ، حَمِيَّةٌ، كِبْرٌ، بَعْدَهُ حَسَـــدُ
قَوَاعِـــدُ الكُفْرِ، فَاحْــذَرْ دَاءَهَا العُضَلا

أَرْكَانُ الكُفْرِ

٥٧. وَرَغْبَةٌ رَهْبَةٌ أَرْكَانُهُ، وَيَلِيـ *
ـهَا شَهْوَةٌ غَضَبٌ في كُلِّ مَا حُظِلا

ذِكْرُ الْمِلَلِ السِّتِّ وَأَحْكَامِهَا

٥٨. وَهَذِهِ مِلَلُ الأَدْيَانِ قَدْ نُصِبَتْ
لا بُدَّ لِلْمَرْءِ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ الْمِلَلا

٥٩. فَالْمُسْلِمُونَ؛ وَهُمْ مُوفٍ وَمُجْتَرِحٌ
وَالْمُجْرِمُونَ بِنَهْكٍ مِنْهُمُ انْفَصَلا

٦٠. أَوْ مُسْتَحِلٌّ، وَأَحْكَامُ الأُلَى انْتَهَكُوا
أَنْ يَرْجِعُوا كُلَّ مَا صَابُوا وَإِنْ جَزُلا

٦١. وَقَدْ يَجُوزُ لِكُلٍّ مَا يَجُوزُ لَنَا
إِلا الوَلايَةَ خُصَّتْ بِالَّذِي عَدَلا

٦٢. ثُمَّ اليَهُودُ النَّصَارَى وَالْمَجُوسُ مَعًا
وَالصَّابِئُونَ لَهُمْ حُكْمٌ وَقَدْ عُقِلا

٦٣. يُسَالَمُونَ إِذَا انْقَادُوا عَلَى صِغَرٍ
بِجِزْيَةٍ، أَوْ أَبَوْا فَالكُلُّ قَدْ قُتِلا

٦٤. وَالْمُشْرِكُونَ ذَوُو الأَوْثَانِ لَيْسَ لَهُمْ
سَــلامَةٌ غَيْــرَ إِنْ دَانُــوا بِمَــا نَــزَلا

٦٥. وَالحُكْمُ إِنْ حَارَبُوا فِي الكُلِّ مُتَّحِدٌ
نَهْــبٌ وَسَــبْيٌ وَقَتْــلٌ فِيهِــمُ فُعِــلا

٦٦. حَاشَــا قُرَيْشًا فَإِنَّ السَّــبْيَ مُمْتَنِعٌ
فِيهِمْ عَلَى قَوْلِ أَهْــلِ الْمَغْرِبِ الفُضَلا

٦٧. وَالذِّبْحَ إِنْ سَــالَمُوا أَهْلُ الكِتَابِ مَعَ النْـ *
ـنِكَــاحِ مِنْهُــمْ أَجِــزْ إِلا الإِمَــاءَ فَلا

الإِمَـامَـةُ

٦٨. إِنَّ الإِمَامَـةَ فَرْضٌ حِينَمَا وَجَـبَتْ
شُــرُوطُهَا، لا تَكُنْ عَنْ شَــرْطِهَا غَفِلا

٦٩. وَبَاطِلٌ سِيرَةٌ فِيهَا الإِمَامَـةُ في اثْـ *
ـنَيْنِ لَـوْ بَلَــغَا في الْمَجْدِ مَـا كَـمَلا

٧٠. وَبَعْدَ مَا فُتِحَتْ أُمُّ القُرَى نُسِــخَا
مَا كَانَ مِـنْ هِجْــرَةٍ مَفْرُوضُهَا اتَّصَلا

٧١. إِنَّا نَدِينُ بِتَصْوِيـــبِ الأُلَى مَنَعُوا
حُكُومَــةَ الحَكَمَيْــنِ حِينَمَـــا جَهِـلا

٧٢. وَالرَّاســبِيَّ أُوَالِي بَعْــدَ جُمْلَتِهِمْ
وَمَنْ بِهِ نَســبُ الإِسْــلام قَــدْ وُصِلا

٧٣. عَنَيْتُ نَجلَ إِبَــاضٍ فَهْوَ حُجَّتُنَا
أَمَــا تَــرَى فَخْــرَهُ لِلْمُسْــلِمِينَ حُــلا

٧٤. وَمَنْ قَفَا إِثْرَهُمْ مِــنْ كُلِّ مُجْتَهِدٍ
شَاكِي السِّلاحِ لِقَمْعِ الخَصْمِ حِينَ غَلا

خَــاتِـمَــةٌ

٧٥. وَالْحَمْــدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيــنَ عَلَى
إِتْمَــام مَا رُمْــتُ إِذْ مِنْ فَضْلِــهِ كَمَلا

٧٦. ثُــمَّ الصَّـــلاةُ وَتَسْــلِيمٌ يُقَارِنُهَــا
عَلَى الَّذِي خَتَــمَ الْمَوْلَى بِهِ الرُّسُــلا

٧٧. وَالآلِ وَالصَّحْبِ مَا لاحَتْ فَضَائِلُهُمْ
وَمَنْ لَهُمْ فِــي سَــبِيلِ الْمَكْرُمَاتِ تَلا

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الواحِدِ الأَحَد، الفَـرْدِ الصَّمَد، الذي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ ولَمْ يكن لَهُ كُفُوًا أحَد، سُـبْحَانه تَجَلَّى في كلِّ موجودٍ وُجُودُه، وَأَشْرَقَ في كلِّ مَشْهودٍ شُهُودُه، هو الأوَّلُ والآخِـرُ والظاهِرُ والباطـن، عَرَفَتْهُ الألبابُ بآياته الظاهرة، وَوَلَهَت النفوسُ بِتَجلِّيَاتِهِ الباهرة.

وأشـهد أن لا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شريك لَهُ، جَلَّ عـن الأنـداد والأضـداد، وتَقَـدَّسَ عـن الصاحبة والأولاد، وتعالَى عن الأشْبَاهِ والأمثال، وهو الكبير الْمُتَعَـال، ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أَنْزَلَ كُتُبَهُ تُتْلَى، وأَرْسَلَ رُسُلَهُ تَتْرَى، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَة.

وأَشْهَدُ أنَّ سيدَنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه، اخْتَتَمَ بِهِ رسالاتِه، وقَرَنَ دعوتَه بأعظمِ آياتِه، وشرَّفه بِمَا اختصَّه بِهِ على جَمِيعِ مخلوقاتِه، أرسلَهُ رحمةً للعالَمِين، وسراجًا للمهتدين، وإمامًا للمُتَّقين، فَوَضَحَتْ برسالتِه السُّبُل، وتَجَلَّتْ بدعوتِه الحُجَّة، واستنارَتْ بسُنَّتِهِ الْمَحَجَّة، فهدَى اللهُ بِهِ قلوبًا غُلْفًا، وبَصَّرَ بِهِ عُيونًا عُمْيًا، وأَسْمَعَ بِهِ آذانًا صُمًّا، صَلواتُ الله وسلامُه عليه، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وعلى جَمِيعِ أتباعِهِ في مِنْهاجِ الحق والحقيقة، الذين استقاموا على سَوَاءِ الطريقة، إِلَى يوم الدِّين.

أما بَعْدُ: فإنَّ دَرْءَ ضلال التصوُّرِ بِبَيَانِ عينِ الحقيقةِ وإبرازِ معالِمِهَا وأعلامِها وإيضاحِ حُجَجِها وبراهينِها أَصْلُ الهداية، وضمانٌ لِوُصُولِ السالكين وبلوغِ الراغبين، ومِنْ أَجْلِ هذا قامت دعوات المرسلين على تبيان أهمِّ حقيقةٍ قد تلتبسُ على الأفهام بِضَلال التصوُّر، وهي مَنْشَأُ الوجود وغايَتُهُ،

لِيَعْرِفَ الإنسانُ مِنْ أين جاءَ وإلى أين ينتهي، وليعرفَ ما يجب عليه في رحلته بين مُبْتَدَئِهِ وغايته، وبذلك عَرَفَ الإنسانُ أعْظَمَ حقٍّ يجب عليه وهو حقُّ مُبْدِئِهِ ومُعيدِه، وحقُّه أنْ يُفْرَدَ بالعبادة ولا يُشْرَكَ معه غيرُه، مع تَنْزِيهِهِ عن جَميع النقائص، لأنَّه لَهُ الكمال الْمُطْلَق، وبِهَذِهِ الدعوة حَصَلت الصلة بين الإنسان الْمَخْلوق الضعيف وخالقه القوي القاهر، كما حصل الرَّبْطُ بين الْمَسِير والْمَصِير، والعَمَلِ والجزاء، والحياةِ والموت، والفناءِ والخلود، وذلك هو مَنْشَأُ الاستقامة على الخير والوقاية من ضده.

ولَئِنْ كانت فنونُ العلم تَسْتَمِدُّ شَرَفَهَا من موضوعاتِها، فإنَّ أشرفَ العلوم قدرًا وأعظمَها شأنًا وأثقلَها وزنًا هو هذا العلمُ الذي يَدْرَأُ شبهاتِ الباطل عن أقْدَسِ حقيقة، ويُجَلِّي براهينَ الحق الدالَّة عليها، وناهِيكَ بِعِلْمٍ موضوعُه إثباتُ وجودِ واجبِ الوُجودِ لِذَاتِه، وصفاتُه وأفعالُه، وملائكتُه وكتبُهُ ورسلُه

واليومُ الآخِرُ وقضاؤُه وقَدَرُه، لذلك تبارَتْ هِمَمُ الراسخين في العلم في هذا الْمِضْمار، فكان **منهم الْمُصَلِّيَ ومنهم الْمُجَلِّي**[1].

وقد كان مِنْ بين هؤلاء العلامةُ الْمُحَقِّقُ الإمامُ نورُ الدين **عَبْدُاللهِ بنُ حُمَيْدٍ السَّالِمِيُّ** ـ رحمه الله تعالى ورضي عنه ـ، فإنَّ مؤلفاتِهِ في علم الاعتقاد منثورَها ومنظومَها ينابيعُ للفوائد الْمُتَدَفِّقَة، ومَطَالِعُ لِشَمْسِ الحقائق السَّاطعة، بِمَا فيها من تبيانٍ للحق وإبرازٍ لأدلَّته، مع دَرْءِ شُبَهِ الباطل عنه، وإنَّ مِنْ بين ما جادَتْ به قريحَتُه في هذا الْمَجَال قصيدتَه العَصْماءَ التي سَمَّاها «**غَايَةَ الْمُرَادِ فِي نَظْمِ الاعْتِقَادِ**»، فإنَّها مع اختصارِها وسهولةِ حفظها جَمَّةُ الفوائد عظيمةُ العوائد بِمَا انطوتْ عليه من خزائن العلم، وهي مُيَسَّرَةٌ لطَلَبَة العلم المبتدئين.

(١) الْمُجَلِّي في خَيْلِ السباق هو الذي يسبق جميع خيل السباق ولا يتقدمه غيره والْمُصَلِّي هو الذي يأتي من بعده لأنّه يأتي ورأسه بين صَلَويْ الْمُجَلِّي، والصلوان: عظمان ناتئان عن يمين الذنب وشماله، أي أنه يأتي وراءه مباشرة.

وقبلَ سنين مَضَتْ أراد مِنِّي بعضُ طلاب العلم أنْ أُمْلِــيَ عليهم تعليقــاتٍ لطيفةً علـــى أبياتِهَا، يَحْفظونَهَـــا بآلَــةِ التســـجيل ليتمكَّنوا مــع تَكْرارِ سَمَاعِها من تقييدِ شوارد الفوائد، وما كنتُ أحْسَبُ أنَّ ذلك ســيَتَعَدَّى أولئــكَ الفِتْيَــةَ الطالِبينَ إلى غيرهـــم، فخَصَصْــتُهُمْ بِمَــا أَمْلَيْـــتُهُ من بعض العبارات، التي لا تَبْــرَأُ من الكثير مــن الْهِنَات، لأنَّها كانت مُرْتَجَلَةً سريعــــة، وإذا بذلك الشريـط يُتَدَاوَلُ ويقومُ بعضُ الطــلاب بتفريغِهِ في أوراق، ظَلَّـــتْ تَتَدَاوَلُهَا الأيــدي، ويَرْجِعُ إليهـــا كثيرٌ من الطلاب، لا سِـــيَّمَا طُلابُ المراكز الصيفية، فإنَّها أصبحتْ مقرَّرَةً عليهم أو على أكثرهم على عِلّاتِهَا الكثيرة، كيفَ وهي فـــي الأصل دروسٌ ارتجالية؛ والارتجالُ عُرْضَـــةٌ للخطأ؟ ومع ذلك فإنَّ مَنْ قام بتفريغها لا بُدَّ مِـــنْ أنْ يُضِيفَ إليها أخطاء أخرى، بســـبب التباس بعض الكلمات عليه لِعَدَمِ وضوح الصوت.

لِهَذَا رَأَيْتُ لِزَامًا أنْ أَقُومَ بتصحيحِ هذه الأخطاء، وتعديلِ تِلْكُمُ العباراتِ الرَّكِيكة، لِيَتَلاءَمَ هذا التعليقُ مع الغَرَضِ الذي يَنْشُـــدُهُ الطلابُ الذين رَوَّجُوهُ فيما بينهم، وكثيرًا ما اسْتَثَرْتُ الهِمَّةَ الخَامِلَةَ والعزيــــمَةَ النَّائِمَةَ لأجْلِ ذلك، ولكن الخمول الذي جُبِلْتُ عليه مع كثرة الأعمالِ الْمُثَبِّطَةِ كانَ السببَ في تأخير هذا الإنْجَاز، حتى جاءتْ ســاعةُ الفَتْحِ التـــي أرادها اللهُ تعالى لِتَحْقِيقِ هذه الأُمْنِـيَّةِ وتيسير هذا المأمول، فَهَا أَنَا ذَا أشْـــرَعُ بِعَـــوْنِ اللهِ وتوفيقِـــهِ في تَحْرِيـــرِ تِلْكُمُ العبارات وتَخْلِيصِها من الشوائبِ التي كَدَّرَتْ صفاءَ هذا التعليق، واللهَ أســـألُه العَوْنَ والتوفيقَ والتَّسْديد، وأنْ يَجْعَلَ هذا العَمَلَ مع سائر أعمالي خالصًا لِوَجْهِهِ الكريم، إنه تعالى على كل شيءٍ قديرٌ.

قال الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

الْمُقَدِّمَةُ

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ أتَعَرَّضْ لِشَرْحِ البَسْمَلَةِ لِعَدَمِ الضرورةِ إليهِ في هذا الْمَقام، ولأنَّني بَسَطْتُ القولَ فيها حَسْبَ وُسْعي في التفسير، فاكتفيتُ بذلك عن إعادته أو إعادةِ شيءٍ منه.

١. الحَمْدُ للهِ مُنْشِي الكَائِنَاتِ عَلَى
مَا شَاءَهَا وَبِلا مِثْلٍ هُنَاكَ خَلا

أمَّا «الحَمْدُ» فهو لُغَةً: الثناءُ باللسانِ على الجَمِيلِ الاختياريِّ، سواء تَعَلَّقَ بالفضائل أو بالفَوَاضِلِ. هذا هو التعريفُ المشهورُ.

والفرقُ بينَ الفضائل والفواضل: أنَّ الفضائلَ هي جَمْعُ فَضِيلَةٍ، وهي صفةٌ لِلْمَحْمُودِ تكون سببًا للحَمْدِ، والفواضلَ جَمْعُ فاضلةٍ، وهي فِعْلٌ يَنْتَقِلُ

أثَرُه إلى الحامدِ أو إلَى غيرِهِ، والفضائلُ هي مَنَاشِئُ للفواضِلِ، فالشــجاعةُ مَنْشَــأٌ للإقدامِ، والكرمُ منشأٌ للبَذْلِ، وهكذا.

ولكن التقييدَ بالاختياريِّ قد يُفْهَمُ منه مَنْعُ الحمد إلا علــى ما لَمْ يكن صفةً ثابتةً للمحمُــودِ[1]، ويترتَّبُ عليه عدمُ جوازِ حَمْدِ الله تعالى علــى صفاتِهِ الذاتية، لأنَّها لا تُوصَفُ بأنَّهــا اختياريَّة، لِئَلا يُوهِمَ ذلك جوازَ أضدادِها، وقد تَخَلَّصَ بعضُ أهلِ العِلْمِ من هذا الإلزامِ بأنَّها وإنْ كانت لا توصف أنَّها اختياريَّةٌ لِتَجَــنُّبِ هذا اللازم؛ إلا أنَّها لا تُوصَــفُ أيضًا بأنَّها اضطرارية؛ لأنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ عن الاضطِــرَارِ إلى أمْرٍ، وقَيْدُ الاختيار إنَّمَا أُرِيدَ بِهِ إخْراجُ الاضطـراريِّ دُونَ سِوَاه.

ورَأَى بعضُهم أنَّ كَوْنَ تلك الصــفات مَنَاشِــئَ للاختياريَّات كافٍ فــي إدخالِهَا ضِمْنَ ما يُحْمَدُ عليه تعالى، فإنَّ أفعالَهُ تعالى كُلَّها مَحَامِدُ، وهي ناشئةٌ عن هذه الصفات جميعًا، فَسَاغَ دُخولُها فيما يُحْمَدُ عليه.

---

(١) يعني الصفات الفعلية.

وأما الشُّكْرُ لُغَةً فهو: فِعْلٌ يُنْبِئُ عن تعظيمِ الشاكِرِ للمشكورِ بسببِ النِّعْمَةِ، سواءً كان قولًا يَنْطِقُ به أو عملًا يأتيه أو اعتقادًا يَتَصَوَّرُه، كما يُنْبِئُ به قولُ الشاعر:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلاثَةً
يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

و«**الحَمْدُ**» **اصطلاحًا** هو نفسُ الشكر لُغَةً، وإنَّمَا يُبْدَلُ لفظُ الشاكر بالحَامِد، والشكرُ اصطلاحًا هو: تسخيرُ الشاكر كلَّ ما أنْعَمَ به المشكورُ فيما خُلِقَ لأجْلِهِ من الطاعة، وهو يعني أنْ يستخدمَ العبدُ نِعَمَ الله تعالى جميعًا فيما خُلِقَتْ لَهُ من الطاعة، وهو معنى تفسيرِ بعضِ السَّلَفِ للشُّكْرِ بقولِهِ: «ألّا تَعْصِيَ اللهَ بِمَا أنْعَمَ بِهِ عليكَ»، ويدلُّ عليه أنَّه قُوبِلَ بالكفر في قولِهِ تعالَى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وقولِهِ حكايةً عن عبدِهِ سليمان: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

والحمدُ من العبد لِرَبِّهِ ينقسمُ إلى قسمين: مُطْلَقٍ ومُقَيَّدٍ.

فالْمُطْلَقُ: هو ما لَمْ يكنْ في مقابِلِ نِعْمَةٍ، والْمُقَيَّدُ: ما كان على نعـمةٍ من نِعَمِهِ، وهو أفضلُ من الْمُطْلَقِ لأنَّه واجبٌ والأولَ نَفْلٌ، ولا تَخْفَــى مَنْزِلَةُ الواجبِ فوقَ النافلــةِ، لأَجْلِ ذلك قَيَّــدَ الْمُصنفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى حَمْدَه لربِّهِ عَزَّ وَجَلَّ هنا بكُبرى نِعَمِهِ تعالى وهي إنشاؤُهُ الكائناتِ على غير سَـــبْقِ مِثَالٍ، فإنَّ جَمِيعَ نِعَمِهِ تَرَتَّـبَتْ على هذه النعمةِ العظيمةِ.

وفي الإتيان بذلك بَرَاعَــةُ استهلالٍ، وهي أن يَأْتِيَ الْمُتَكَلِّمُ في فاتِحَةِ كلامه مَا يُــؤذِنُ بِمَقصوده، وقد ناسَــبَ وصفُه سُــبحانه بإنشَــاءِ الكائناتِ مقصودَ الْمُصَـــنِّف، وهو إثباتُ وجــوده عَزَّ وَجَلَّ ووَحْدانِيَّـــتِهِ واتصافِــهِ بِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ، فــإنَّ كلَّ ذرَّةٍ من ذرَّاتِ الكائناتِ شــاهِدُ حَقٍّ على وُجُودِهِ تعالَى، لإعلانِهَا بِلِسَــانِ حالِهَا أنَّها مُفْتَقِرَةٌ إِلَى واجبِ الوُجُودِ لِذَاتِهِ لإخراجِها مــن العَدَمِ إِلَى الوجــود، ولأنَّ الكائناتِ بأسْرِها تُشَــكِّلُ في مَجْمُوعِها وحْدَةً متكاملةً، وهي بذلك تــدلُّ على وَحْدانيَّةِ مُكَوِّنِهَــا، كما أنَّ عجيبَ تناسُــقِها وبديعَ نظامِها مِــنْ أكبرِ الــدَّلالاتِ على

صـــفاتِهِ سبحانه من الحياة والقدرة والعلم والسَّمْعِ والبَصَر والغِنَى.

على أنَّ هذا الإنشـــاءَ ليس مســـبوقًا بِمَثيلٍ من إنشـــاءٍ كان مِنْ قِبَـــل غيرِه تعالى حتـــى يكون ثَمَّ اشتباهٌ بأنه ســـبحانه أنشأها على مثالِ ذلك الإنشاءِ الذي سَـــبَقَهُ بِهِ غَيْرُه، وذلك معنـــى قول الْمُصَنِّفُ «وَبِلا مِثْلٍ هُنَاكَ خَلا».

وما كان إنشـــاؤُها إلا على وَفْقَ الْمَشـــيئةِ الربَّانيَّةِ كما قال: «عَلَى مَا شَـــاءَهَا». على أنَّ غرائبَ طِبَاعِها الْمُختلفـــةِ مَعَ انتظامِها في سِـــلْكِ وِئامِهـــا مِنْ أَبْيَنِ الأدلَّةِ وأصْدَعِ البراهينِ علـــى أنَّها جَميعًا ما خَرَجَتْ في وُجودِها ولا في نظامِها عن إرادتِهِ ﷻ.

٢. ثُمَّ الصَّـــلاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَـيِّدِنَا
وَمَـــنْ إِلى قَابِ قَوْسَـــيْنِ دَنَا فَـــعَلا

«الصَّـــلاةُ» هي مِنَ اللهِ رَحْـمَـتُهُ بعبادِه، ومِنْ ذلك قولُـــهُ: ﴿ يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ [الأحـــزاب: ٤٣]، أي يُنْزِلُ عليكم

رحماتِه، وهي مِنَ الْمَلائكةِ استغفارٌ، ومِنَ البَشَرِ دُعاءٌ، فنَحْنُ عندما نصلِّي على نبيِّنا ﷺ إنَّما ندعو اللهَ لَهُ بأنْ يَغْمُرَه برحماته العظيمة، وفيها معنى التعظيمِ، ولذلك صَارَتْ شِعَارًا للنبيِّين، ويَجُوزُ أنْ تكونَ لِغَيْرِهِمْ من الصَّالِحِينَ، كما في حديث: «اللهُمَّ صَلِّ على آلِ أبِي أَوْفَى»(١).

و«**الْمُخْتَارُ**» هنا اسمُ مفعولٍ مِن اختارَ يَخْتَارُ، وهو الذي اخْتِيرَ لِمَا أُرِيدَ اختصاصُهُ بِهِ، والْمُرَادُ بِهِ هنا رسولُ الله ﷺ، فإنَّ اللهَ اختارَه لِحَمْلِ أعباءِ هذه الرسالةِ ولِتَبَوُّءِ مَنْصِبِ الفَضْلِ على جميعِ المخلوقاتِ، حتى كان رحمةً للعالَمِين.

و«**السَّيِّدُ**» مِنَ السِّيَادَةِ، وهي التَّفَوُّقُ على الغير بالسُّمُوِّ في مَدَارجِ الفَضَائِلِ، ولا رَيْبَ أنه ﷺ سيدُنا جميعًا مَعَاشِرَ الْمَخْلُوقِينَ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الزكاة / باب: صلاة الإمام ودعاؤه لصاحب الصدقة (١٤٩٧)، ومسلم في كتاب: الزكاة / باب: الدعاء لمن أتى بصدقة (١٠٧٨) من طريق عبد الله بن أبي أوفى.

وقولُهُ «ومَنْ إلَى قَابِ قَوْسَــيْنِ دَنَــا فَعَلا» عَطْفٌ لِنَعْتٍ على آخَرَ، وهو معهودٌ في الكلام العربي، ولَهُ شــواهِدُ كثيرةٌ في القـــرآنِ، منها قولُهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ [الأعلى: ١ – ٤].

و«القَابُ» القَدْرُ، و«القَوْسُ» معروفٌ وهو آلَةُ رَمْيِ السِّـــهَامِ، والْمُـــرادُ: أنَّ اللهَ تعالـــى أدْنَاهُ بِنَحْـــوِ قَدْرِ قَوْسَيْنِ، وذلك كنايةٌ عن تكريـمِهِ، كما يُؤْذِنُ بِهِ قولُهُ «فَعَلا»، وفي ذلك إشارةٌ إلى قولِهِ تعالَى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

٣. وَالآلِ وَالصَّحْبِ مَا كَانَ الْهُدَى عَلَمًا
يَهْــدِي بِهِ اللهُ لِلْخَــيْرَاتِ مَنْ عَقَلا

التعريــفُ فــي «الآلِ» لِلْعَهْـدِ، والمــراد بِهِــمْ آلُ نبيِّنا ﷺ، وهم في مقامِ الدُّعاءِ جميعُ أتْبَاعِهِ ﷺ، سواءً كانوا من قرابَتِهِ أو مِنْ غيرِهم، كما قالَ صاحبُ شَمْسِ العُلُومِ(١):

---

(١) نشوان بن سعيد الحميري.

آلُ النَّبِـــيِّ هُـــمُ أَتْبـــاعُ مِلَّتِـــهِ
مِنَ الأَعَاجِمِ وَالسُّـــودَانِ وَالعَرَبِ
لَـــوْ لَـــمْ يَكُـــنْ آلُـــهُ إِلا قَرَابَتَـــهُ
صَلَّى الْمُصَلِّي عَلى الغَاوِي أَبي لَهَبِ

ولا رَيْبَ في أنَّ دُخـــولَ أتْباعِهِ مِنْ قرابَتِهِ في هذا دُخُولٌ أَوَّلِيٌّ.

و«**الصَّحْبُ**» اســـمُ جَمْعٍ وَاحِدُهُ صَاحِبٌ، وهُمْ هُنا الذين تشـــرفوا بِلِقَاءِ النبـــي ﷺ وهم مؤمنونَ برسالته.

وقولُه «**مَا كَانَ الْهُدَى عَلَمًـــا**» مُرَادُهُ بِهِ أنَّ الصلاةَ تَتَكَرَّرُ على نبيِّنا ﷺ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ مُدَّةَ انْتِصَابِ الهُدَى عَلَمًا؛ أيْ: عَلامَةً يُهْتَدَى بِهَا، ولذلك سُمِّيَ بِهِ الجَبَلُ الشـــامخُ والرَّايَةُ، لأنَّ كُلًّا منهما علامةٌ بارزةٌ يَهْـــتَدِي بِهَا الســـائرونَ ويَلْـــتَفُّ حولَهَا الْمُرِيدُونُ، والْمُـــرَادُ بِـ«**الْهُدَى**» هُنَا الدِّيـــنُ، ويُطْلَقُ على القرآنِ كثيرًا لأنه مَصْدَرُ عُلُومِهِ.

وقولُهُ «يَهْدِي بِهِ اللهُ لِلْخَيْرَاتِ مَنْ عَقَلا» تَفْسِيرٌ لِكَوْنِ الهُدَى عَلَمًا، ومعناه أنَّ اللهَ تعالى يَهْدِي بِهِ أُولِي الأَلْبَابِ مِنْ عِبَادِهِ لِخَيْرَيِ الدنيا والآخرةِ.

وفي هذا أيضًا بَرَاعَةُ استِهْلالٍ، لأنَّ المصنِّفَ رَحِمَهُ اللهُ أَنْشَأَ قصيدتَه هذه لِيَكُونَ موضوعُهَا أُصُولَ الدِّينِ، وهي عِلْمُ الاعْتِقَادِ.

٤. وَبَعْدُ فَالدِّينُ لا عُذْرٌ لِجَاهِلِهِ
إِنْ كَانَ مِنْ بَعْدِ تَكْلِيفٍ بِهِ جَهِلا

أيْ: بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ حَمْدِ اللهِ والصلاةِ على رسولِهِ ﷺ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ جاءَ المصنِّفُ بِهَذا البَيَانِ.

وأَصْلُ «وَبَعْدُ» أمَّا بَعْدُ، فالواوُ هُنا نائبةٌ مَنَابَ أمَّا، و«أمَّا» هي هُنَا بِمَعْنى مَهْمَا، أيْ: مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فهو أنَّ الدِّينَ لا عُذْرٌ لِجَاهِلِهِ.

و«الدِّينُ» مِنْ دَانَ يَدِينُ بِمَعْنى خَضَعَ وانْقَادَ، ويُطْلَقُ عُرفًا على: كُلِّ ما يكونُ مِنْ قِبَلِ الإنسانِ في

حَقِّ مَعْـبُودِهِ تَقَرُّبًا بِهِ إِلَيْهِ مِن اعتقادٍ أو قولٍ أو عَمَلٍ.

وهو في العُرْفِ الشَّرْعِيِّ: ما شَرَعَهُ اللهُ لِعِبَادِهِ مِمَّا يُقَرِّبُهُم إِلَيْـهِ مِمَّا أَنْزَلَهُ في كتابِهِ أو جاءَ على لِسَانِ رَسُولِهِ مِن اعتقادٍ أو عبادةٍ أو شريعةٍ. وهو بِهَذا الْمَعنى لَيْسَ لَهُ مَصْدَرٌ إلا وَحْي الله تبارك وتعالى، فلا يَخْضَعُ للتَّجْرِبَةِ ولا لِغَيْرِهَا، ولذلك كان الدِّينُ عنـدَ اللهِ واحِدًا، وهو الإسلامُ الذي جاءَتْ بِهِ كُتُبُهُ وبَلَّغَتْهُ رُسُلُهُ، قال تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد أَفَادَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ هنا أنَّ الدِّينَ لا يُعْذَرُ أحَدٌ بِجَهْلِهِ إنْ جَهِلَهُ بَعْدَ تكليفِهِ بِهِ.

و«**التَّكْلِيفُ**» لُغَةً: إِلْزَامُ ما فيهِ مَشَقَّةٌ. واصطِلاحًا: تَوْجِيهُ الأوامِرِ والنَّوَاهِي إِلَى الْمَخْلُوقِ مِنْ قِبَلِ خَالِقِهِ تعالَى، فَيَتَرَتَّبُ على امتثالِهِ نَيْلُ الثوابِ وعلى تَرْكِهِ استِحْقَاقُ العِقَابِ. وهو مَشْرُوطٌ بثلاثةِ أُمُورٍ هي:

(أ) العَقْلُ

(ب) البُلُوغُ

(ج) قِيَامُ الحُجَّةِ على المُكَلَّفِ

والحُجَّةُ هي الدليلُ، وهو ما ثَبَتَ بِهِ المعنى في الذِّهْنِ سَوَاءً كان عقليًا أو شرعيًا، فالعقلُ حُجَّةٌ في معرفةِ اللهِ تعالى واتصافِهِ بالكَمَالاتِ واستحالَةِ النَّقَائِصِ عليه، والشَّرْعُ حُجَّةٌ في ذلك وفيما عَدَاه. وقيامُ الحُجَّةِ هو ظهورُها، لأنَّ لِلْقَائِمِ مِيزَةً على غَيْرِهِ في الظُّهُورِ.

ويُضَمُّ إلى الشروطِ المذكورةِ: **عَدَمُ الْمَانِعِ**، أيْ: إِمْكَانُ الإتيانِ بِمَا كُلِّفَ بِهِ، فإنَّ مِنْ فَضْلِ اللهِ على عِبَادِهِ أنَّه لَمْ يُكَلِّفْهُمْ بِمَا لا يُطِيقُونَ، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]. وعليه فَيَسْقُطُ التكليفُ بِمَا لَمْ يَقْدِرِ الْمُكَلَّفُ على الإتيانِ بِهِ، وذلك لا يَعْني أنَّ عَجْزَهُ عن بَعْضِ ما كُلِّفَ بِهِ

يُسْقِطُ عنه سائرَ التكالِيفِ، وإنَّمَا يَسْقُطُ عنه ما عَجَزَ عنــه، ويَتَعَلَّــقُ بِذِمَّتِــهِ ما قَــدَرَ عليْــهِ، لذلك قال رســولُ الله ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَــيْءٍ فَأْتُــوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»(١).

(١) أخرجه الإمام الربيع في كتاب: الحج، باب: في فرض الحج (٣٩٤) من طريق أنس بن مالك.

أسئلـة:

١. مَنْ هو ناظم القصيدة؟ اكتب تعريفًا موجزًا عنه، بذكر مولده ووفاته وبعض شيوخه وتلامذته ومؤلفاته.

٢. مَنْ هو شـــارح القصيدة؟ اكتب تعريفًـــا موجزًا عنه، بذكر مولده وبعض شيوخه ومؤلفاته.

٣. ما السبب الذي دعا الشارح إلى كتابة شرحه هذا؟

٤. ما اسم كتاب الشارح في التفسير؟

٥. عرّف الحمد والشكر في اللغة العربية؟

٦. عرّف الحمد والشكر اصطلاحا؟

٧. ما الفرق بين الفضائل والفواضل؟

٨. للحمد قسمان، فرّق بينهما واذكر أفضلهما؟

٩. ما معنى براعة الاستهلال؟ وهل كان الناظم بارعًا في استهلال قصيدته؟

١٠. اذكر معنى البيت الأول على سبيل الإجمال؟

١١. هـــل يختلـــف معنى الصـــلاة فـــي اللغـــة باختلاف المُصلِّي؟

١٢. ما معنى صلاتنا على النبي ﷺ ؟

١٣. هل تجوز الصلاة على الصالحين؟ وما الدليل؟

١٤. ما معنى وصف النبي ﷺ بأنه (مختار) وأنه (سيد)؟

١٥. مَنِ المقصود في قول الناظم: (ومن إلى قاب قوسين دنا فعلا)؟ وما معنى هذا الوصف؟

١٦. مَنْ هم آل النبي ﷺ ؟

١٧. عرّف الصحابة تعريفا موجزًا؟

١٨. كلمتا: (الهدى) و (العلم) تُطلقان على أكثر من معنى، اذكرها؟

١٩. بيّن معنى البيت الثالث باختصار؟

٢٠. ما معنى الدِّين في عُرف اللغة والشرع؟

٢١. ما المقصود بقول الناظم: (الدين لا عذر لجاهله)؟

٢٢. بيّن معنى التكليف لُغة واصطلاحا؟

٢٣. للتكليف شروط أربعة، اذكرها مع الشرح؟

ذِكْرُ الجُمَلِ الثَّلاثِ
وَمَا تَشْتَمِلُ عَليْه

الجُمْلَةُ وَتَفْسِيرُهَا

٥. وَأَوَّلُ الفَـرْضِ مِنْ تَأْصِيـلِهِ جُـمَلٌ
ثَلاثَـــةٌ، فُزْتَ إِنْ تَسْـتَحْضِرِ الجُمَلا

يَعْـــنِي أنَّ أوّلَ ما افْـــتَرَضَه اللهُ على عِبادِه ثَلاثُ جُمَل ، وقد يُعَبَّرُ عنها جَميعًا بِـ«الْجُمْلَةِ»، وَهِيَ غيرُ الجُمْلَةِ الْمُصطَلَـــحِ عَلَيْهَا عِنْـدَ النَّحْوِيِّين على هذا التعبير، وإنَّما هو اصْطِلاحٌ خَاصٌّ نَظَرًا إِلَى اشْتِمَالِهَا في إِجْمالِهَا علـى العَدِيدِ مِنَ الْمَعَانِـي الَّتي تتَّضِحُ بِتَفْسِيرِها، وَهِيَ تَرْجِعُ كُلُّها إِلَى ما يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ عِنْدَ قِيامِ حُجَّـتِهِ.

وتَقْسِيمُها إِلَى ثَلاثٍ لاشْتِمَالِهَا على ثَلاثةِ أَرْكَانٍ؛ وجَعْـلِ كُلِّ رُكْنٍ منهـا جُمْلَةً مُسْـتَقِلَّةً مـع مُرَاعَاةِ الاصْطِلاح النَّحْوِيِّ في الجُمْلَةِ. والأركانُ الثَّلاثةُ هي

الإِيْمَانُ بالله، وبِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأنَّ ما أنْزَلَ اللهُ عليه هو الحقُّ الْمُبِينُ، فالأوَّلُ تَتَضَمَّنُهُ جُمْلَةُ «أشهد أنْ لا إِلَهَ إلا الله»، والثانِي جُمْلَةُ «وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله»، والثَّالِثُ جُمْلَةُ «وأشهدُ أنَّ ما جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ هو الْحَقُّ مِنْ عندِ الله»، فاعْتِبارُها ثلاثَ جُمَلٍ لِمَا ذَكَرْناه من استقلالِ مَفْهُومِ كُلِّ واحِدَةٍ منها وَضْعًا، واعْتِبارُها جُمْلَةً واحدةً لأنَّها جَمِيعًا تُؤَدِّي إِلَى غايةٍ واحدةٍ؛ وهي الخُروجُ مِن عُهْدَةِ الكُفْرِ والدُّخُولُ في عُهْدَةِ الإسلام، ولا يَكُونُ ذلك إلَّا لِمَنْ أتى بِهَا جَميعًا. وهذا الاصْطِلاحُ إنَّما هو خَاصٌّ بأصْحَابِنَا - رَحِمَهُمُ الله - وَحْدَهُمْ، إذْ لا يَكادُ يُوجَدُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ.

والأصْلُ في تَكَاليفِ الاعتقادِ أنْ يُطَالَبَ الإنسانُ بِهَذِهِ الجملةِ، فإنْ جاءَ بِهَا كان صحيحَ الاعتقادِ إنْ لَمْ يَنْقُضْهُ بِشَيءٍ مِمَّا يُنافِي مَفْهُومَها، لأنَّ جَميعَ الْمُعتَقَداتِ الحقَّةِ تَنْدَرِجُ تَحْتَ مَدْلُولاتِها ضِمْنًا.

❖ فالشَّهَادَةُ بِأنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ تعني إفرادَه سبحانه وَحْدَه بالأُلُوهيَّة، وما ذلك إلا لأنَّه عَجَّلَ تَخْتَلِفُ صفاتُه

عن صفات خَلْقِهِ، فهو لا يُشْبِهُهُمْ وهُمْ لا يُشْبِهُونَه، لأنَّ صفاتِهِ تَلِيقُ بكَمَالات الأُلُوهِيَّةِ.

❖ والشَّهادةُ بأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ تَقْتَضِي التَّصْدِيقَ الْمُطْلَقَ بأنَّ كُلَّ ما بَلَّغَهُ عن الله تعالَى هو حَقٌّ، وهو مَدْلُولُ الجُمْلَةِ الثالثةِ الَّتي جاءَتْ مُؤَكِّدَةً هذا الْمَعْنى.

❖ ويَنْدَرِجُ ضِمْنَ ذلك التصديقُ بِجَميعِ الحقائقِ الغَيْبِيَّةِ التي أخْبَرَ بِهَا عليه الصلاةُ والسلامُ، سَوَاءً ما كانَ مَنْصُوصًا عليه في الوَحْيِ الظاهِرِ الذي أُوحِيَ إليه وهو القرآنُ، أو كانَ مِمَّا تَضَمَّنَهُ الوَحْيُ الباطِنُ فَصَاغَهُ في حديثِهِ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلامِ، ويَدْخُلُ في ذلك الإيْمانُ بصفاتِ اللهِ ﷻ وأفعالِهِ، والإيْمانُ بِجَميع الْمُرْسَلين وبِكُلِّ ما أُوحِيَ إليهِمْ من كُتُبٍ وغيرِها، وبالْمَلائِكَةِ وأحوالِهِمْ، وباليومِ الآخِرِ وجَميعِ أحوالِهِ، وبِقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِهِ.

علَى أنَّ كثيرًا مِنْ عُلمائِنا اكتَفَوْا في هذا **بالشَّهادتَيْنِ**، لانْدِرَاجِ مفهومِ الجملةِ الثالثةِ في

الإيْمان برسالَةِ محمَّدٍ ﷺ، لأنَّ هذا الإيْمانَ يَعْني التصديقَ بأنَّ ما جاءَ بِهِ هو الحقُّ الْمُبِينُ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ويُؤَيِّدُ ذلكَ حديثُ «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إلا اللهُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ، فإذا قالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا»[(١)]. وفي حديثِ ابنِ عُمَرَ عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، فإذا فَعَلُوا ذلك فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإسلامِ»[(٢)].

ومِنْ تَيْسِيرِ اللهِ تَعالَى دينَهُ لِعِبَادِهِ أنَّهُ لَمْ يُكَلِّفْهُم اسْتِحْضَارَ الْمعتَقَدَاتِ الحقَّةِ بأَسْرِهَا دُفْعَةً واحِدَةً، وإنَّمَا جَعَلَ تكليفَهم بِهَا تَدَرُّجًا، فأَوْجَبَ عليهم أوَّلًا هذه الجملَةَ، وكانت كافِيَةً في عَدِّ مَنْ جاءَ بِهَا مُؤمنًا

(١) أخرجه الإمام الربيع في كتاب: الجهاد/ باب: جامع الغزو في سبيل الله (٤٦٤) من طريق ابن عباس.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة» (٢٥)، ومسلم في كتاب: الإيمان/ باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٢٢).

صحيحَ الإيــمانِ، وإنَّما تَجِــبُ الْمُعْتَقَـدَاتُ الحَقَّةُ تَفْصِيلًا علــى مَنْ قامتْ عليــه حُجَّتُهــا وَوَضَحَ لَهُ معناها، ولذلــك كانَ النبــيُّ ﷺ يَقْتَصِرُ فــي دَعْوَةِ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الإســلامِ بِعَرْضِ هذه الجملةِ عليهم مُتَمَثِّلَةً في الدَّعْوَةِ إِلَى الإتيانِ بالشهادَتَيْنِ.

هذا؛ ولِهَذِهِ الجملةِ عند أصحابِنا **تَفْسِيرَانِ**:

(أ) **اعْتِقَــادِيٌّ**: وهو ما أَشَــرْنَا إليهِ مِــنَ الإيْمان تَفْصِيلًا بِصِفَــاتِ اللهِ وأفعالِــهِ والنَّبِيِّــنَ والْمَلائكةِ والكُتُبِ واليَــوْمِ الآخِرِ وبقضائِهِ وقَــدَرِهِ، ولا يَجِبُ شيءٌ مِنْ ذلك إلا على مَنْ قامت عليه حُجَّتُه ـ كَمَا ذَكَرْنَا ـ.

(ب) **عَمَلِــيٌّ**: وهو الوَفَــاءُ بالتكاليف الشــرعيَّةِ التطبيقية فِعْلًا وتَرْكًا في حِينِ وجوبِهَا.

والدليلُ على كَوْنِ ذلك تَفْسِيرًا للجُملة: أنَّ الإتيانَ بِهَذِهِ الجملــةِ إنَّما هو عَهْدٌ وميثاقٌ بيــن العَبْدِ وربِّهِ بالالتزام التَّامِّ بِفِعْلِ أوامِرِهِ وتَــرْكِ نواهيه، فإنَّ العبدَ إذا شَــهِدَ أنْ لا إِلَهَ إلا اللهُ كانت شــهادتُه ميثاقًا بَيْنَهُ

وبَيْنَ ربِّهِ سبحانه لأَنْ يَلْتَزِمَ طاعَتَه، لأنَّ معنى ذلك أنَّه لا مَعْبودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ، والعبادةُ هي مُنْتَهَى الطاعةِ وغايةُ الخُضُوعِ والانقيادِ، فإنْ أَصَرَّ بَعْدَ ذلك على مَعْصِيَتِهِ وتَجَرَّأَ على انتهاك حُرُمَاتِهِ كان ذلك نَقْضًا لِهَذا الْمِيثاقِ.

والدليلُ على هذا التفسيرِ: ما جاءَ في حديثِ ابنِ عُمَرَ مِنْ قولِهِ ـ عليه أفضلُ الصلاة والسلام ـ: «فإذا فَعَلُوا ذلك فقد عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وأموالَهُمْ إلا بِحَقِّ الإسلام»، وقولُهُ في الرِّواية الأخرى: «إلَّا بِحَقِّها»، حيثُ أشارَ إِلَى أنَّ لِهَذَا الإسلامِ الذي يُسْلِمُهُ العبدُ بِهَذِهِ الجُمْلَةِ حَقًّا لا بُدَّ لَهُ مِنَ الوَفَاءِ بِهِ.

٦. وَإِنْ أَتَيْتَ بِهَا نُطْقًا حَفِظْتَ بِهَا
لِلنَّفْسِ وَالْمَالِ، وَالسَّبْيُ بِهَا حُظِلا

النُّطْقُ بِهَذِهِ الجملةِ يَصُونُ النفسَ البشريَّةَ مِنَ الحُكْمِ عليها بأحكام المشركِينَ، ويَتَرَتَّبُ على ذلك صَوْنُ مَنْ نَطَقَ بِهَا عَنْ سَفْكِ دَمِهِ أو غُنْمِ مالِهِ أو

سَبْيِ ذُرِّيَّتِهِ، لأنَّه حُجَّةٌ فيما بَيْنَ مَنْ نَطَقَ بِهَا وبين المسلمين، إِذِ الناسُ مُتَعَبَّدُونَ فيما بينهم بِمَا يَبْدُو مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ مِنْ ظواهِرِ الأقوالِ والأفعالِ دُونَ ما يَخْفَى عنهم مِنْ طَوَايَا النِّيَّاتِ والأَحْوالِ، ولِذَلك صِينَتْ دِمَاءُ الْمُنَافِقِينَ الذين أَتَوْا بِهَذِهِ الجملةِ بألْسِنَتِهِمْ مع ما عَلِمَ اللهُ مِنْ دَخَائِلِهِمُ التي تُنَافِيها، وإنَّما اللهُ وَحْدَهُ يُحَاسِبُهُمْ ويُجَازِيهِمْ على هذه الدَّخَائِلِ.

وقد اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ في الإِيْمَان بِهَذِهِ الجملةِ؛ هَلْ يكفي فيه التصديقُ في السَّرِيرَةِ؟ أو أنَّه لا بُدَّ مِنْ إظهارِ ذلك نُطْقًا باللِّسَانِ؟

فالْجُمْهُورُ على أنَّه لا بُدَّ منهما مَعًا، وهو الذي عَلَيْهِ **أكثرُ أصحابِنا** ـ رَحِمَهُمُ اللهُ ـ، وذَهَبَ **قِلَّةٌ مِنْ أصْحَابِنَا** إِلَى أنَّ العِبْرَةَ في الإِيْمان إنَّما هو بالتَّصْدِيقِ وَحْدَه، ولا يَجِبُ التعبيرُ عنه باللِّسانِ إلا في مَقَامِ دَفْعِ الرِّيبَةِ، ولذلك كانَ الْمُشْرِكُونَ مُطَالَبِينَ بِأَنْ يَنْطِقُوا بِهَا بِصَرِيحِ العِبَارَة، لأَنَّهم ناشِئُونَ على

الشِّـــرْكِ، ولا يُخَلِّصُهُمْ منه ـ في حُكْـــمِ الظاهِرِ ـ إلا ما يَهُـــدُّ أرْكَانَه ويَجْتَـــثُّ صُرُوحَه وهو النُّطْـــقُ بِهَذِهِ الجملـــةِ، أمَّا مَـــنْ كان ناشِـــئًا على الإســـلام مُؤَدِّيًا لِفُرُوضِهِ قائِمًا بِشَعَائِرِهِ فهو في عِدَادِ المؤمنين ولَوْ لَمْ يَنْطِقْ بِهَا.

وحُجَّـــةُ هؤلاءِ: إسْنَادُ الإيـــمَانِ إلى القُلُوبِ في كثيرٍ من النُّصُوصِ، كما في قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائـــدة: ٤١] وقولِـــهِ ﷻ: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنُّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

ولا خِلافَ فـــي أنَّ التصريحَ بِهَـــا نُطقًا أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ.

و«حُظِلَ» في البَيْتِ بِمَعْنى: مُنِعَ.

أسئلـة:

١. ما أول ما يُكلّف به الإنسان؟

٢. ما الفرق بين الجملة في الاصطلاحين العقدي والنحوي؟

٣. لماذا عبَّر الناظم عن الجملة بثلاث جُمل؟

٤. ما أركان الجملة؟ اذكرها مع الشرح.

٥. لماذا اكتفى بعض العلماء بركنَين من الجملة؟

٦. للجملة تفسيران، ما هما؟ وما الدليل عليهما؟

٧. متى يُحفَظُ دمُ الإنسان وماله ويُمْنَعُ سَبْيُ ذريته؟

٨. هل يكفي التصديق القلبي بالجملة؟

نَفْيُ الأَنْدَادِ وَالأَشْبَاهِ عَنِ اللهِ تَعَالى

٧. نَـدِينُ أَنَّ إِلَـهَ العَــرْشِ لَـيْسَ لَـهُ
شِبْـــهٌ وَلَـــيْسَ لَـــهُ نِـــدٌّ وَلا مَـثَلا

هَذَا شُـرُوعٌ مِنَ الْمُصَنِّفِ ـ رَحِمه الله تعالَى ـ في تَبْيِـــين **تَفْسِـــيرِ الجُمْلَةِ الاعْتِقَادِيِّ**، وقد بَـــدَأَ بِأَهَمِّ ما فيه؛ وهو مَا لَهُ صِلَةٌ بِمَعْرِفَةِ الله تعالَى، فإنَّ الإيْمانَ باللهِ هو أصْلُ الإيْمان بِكُلِّ ما يَجِبُ أنْ يُؤْمَنَ بِهِ.

ومَعْنَى «**نَدِينُ**»: نَعْتَقِدُ ذلكَ جَزْمًا.

و«**إِلَـهُ العَرْشِ**» هو اللهُ سبحانه، والأصلُ في الإِلَـهِ أنَّه بِمَعْنَى: مَأْلُوه؛ أيْ: مَعْـــبُود، فهو فِعَـــالٌ بِمَعْنَى مَفْعُـــول، كـ: كِتَاب بِمَعْنَـــى مَكْتُـــوب، وإنَّما خُصَّ بالْمَعْـــبُودِ بِحَقٍّ فـــي الاصطـــلاحِ الشَّـــرْعِيِّ لِعَدَمِ الاعْـــتِدَادِ بالعبادة البَاطِلَةِ التي تَكُونُ مِمَّن اتَّخَذَ مَعَ اللهِ إِلَـهًا آخرَ.

و«**العَرْشُ**» هو أعْظَمُ مَخْلُوقاتِ اللهِ سبحانه.

وكونُهُ ﷻ **إلَـهًا لِلْعَرْشِ** يَلْزَمُ مِنْهُ أنْ يَكُون إلَهًا لِمَا دُونَهُ مِنْ سائِرِ المَخْلُوقات، فَلِذَلِكَ عَبَّر بذلك ولَمْ يَقُلْ: إلَـهُ الخَلْقِ مَثَلًا. والعَرْشُ وغيرُهُ مِنْ مَخْلُوقاته سبحانه يَشْرُفُ كلٌّ منها بعبادته ﷻ، فإنَّها جَمِيعًا تُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وتَخْضَعُ لِجَلالِ كِبْرِيَائِهِ، قال تعالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحج: ١٨].

ومَعْنَى البَيْتِ: أَنَّنَا نَعْتَقِدُ اعتِقَادًا جازِمًا أنَّ إلَـهَ العَرْشِ سبحانه وتَعالَى لَيْسَ لَهُ شِبْهٌ ولا نِدٌّ ولا مَثَلٌ.

والفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الثلاثة:

- أنَّ **الشِّبْه** ـ بِكَسْرٍ فَسُكُونٍ، ويُقَالُ: شَبَهٌ بِالتَّحْرِيكِ وَشَبِيهٌ كَعَظِيمٍ ـ: هُوَ الْمُسَاوِي في أَغْلَبِ الصِّفَات.

- وأنَّ **النِّدَّ:** هُوَ الْمُسَاوِي الْمُضَادُّ.

❖ وَأنَّ **الْمَثَلَ** ـ بِالتَّحْرِيكِ، ويُقَالُ: مِثْلٌ بِكَسْرٍ فَسُكُونٍ وَمَثِيلٌ ـ: هُوَ الْمُسَاوِي في جَميع الصفات.

و**خُلاصَةُ ذلك** أنَّ اللهَ ﷻ لا يُشْبِهُ شيئًا ولا يُشْبِهُهُ شيءٌ، فهو مُبَايِنٌ لِمَخْلوقاته في كلِّ أوصافِه، فلا يُوصَفُ بِشَيْءٍ من صِفَاتِ خَلْقِهِ قَطُّ، لأنه خالقُ الخلقِ، ويَسْتَحِيلُ عَقْلًا وشَرْعًا أنْ تُشْبِهَ الصَّنْعَةُ صَانِعَهَا.

وكيف يكون مِثْلَها وهو الأَزَلِيُّ الأَبَدِيُّ الذي لَمْ يَسْبِقْ وُجُودَهُ عَدَمٌ ولا يُعْقِبُهُ فَنَاءٌ، ولَمْ يَتَوَقَّفْ وُجودُه على وُجودِ غيره، وإنَّما وُجودُ كُلِّ ما عَدَاهُ ما كان إلا بوُجودِه، فهو الذي أخْرَجَ كلَّ شيءٍ من العَدَمِ إِلَى الوُجُودِ، وَمَعْنى هذا أنَّ ما عَدَاهُ ناقِصٌ، ولَهُ وَحْدَهُ الكَمَالُ الْمُطْلَقُ، وما بِغَيْرِهِ من مَظَاهِرِ الكمالِ فهو مِنْ عندِه نِعْمَةً أَسْبَغَهَا عليه وحِلْيَةً زَيَّنَهُ بِهَا، وقد عرَّفَنا سبحانه بِنَفْسِهِ عندما قال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وقال:

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

هذا ولا يُنافِي ذلـك ما نَجِدُهُ في بَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ مِـن الاتِّصَـافِ بِبَعْضِ الصِّفَـاتِ الَّتي هِـيَ مَظَاهِرُ لِكَمَالاتِهِ، كالحياةِ والسَّـمْعِ والبَصَرِ والعِلْمِ والقُدْرَةِ؛ لِلتَّبايُنِ العظيمِ بين صِفَاتِ الحقِّ وصِفَاتِ الخلقِ في كُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ اتِّصَافَ الْمَخْلُوقِ بأيِّ شيءٍ مِنْ ذَلك لَـمْ يَكُنْ إلا فَيْضًا رَبَّانِـيًّا وفَضْلًا لَدُنِّـيًّا اختَصَّ بِهِ تعالَى مَنْ شَـاءَ مِنْ خَلْقِـهِ، بينما اتِّصَافُ الحقِّ بذلك ذَاتِيٌّ لَمْ يأتِ مِنْ قِبَلِ غَيرِهِ ﷻ.

ومَعَ هذا فإنَّ اتصافَ الْمَخلُوقِ لا يَعْدُو أنْ يَكُونَ نِسْـبَةً مَحْدودةً تَكَادُ تَتَلاشَى في خِضَمِّ ما يتَّصِفُ بِهِ مِنْ أَضْدَادِ هذه الكَمَـالاتِ، فَهُوَ وَإِنْ أُوتِيَ مِنَ العلمِ والقدرةِ والسـمعِ والبَصَرِ ما كان به آيةً بين الخلق؛ لَيْسَ لَـهُ من حقائقِ هـذه الصفاتِ إلا النَّـزْرُ الذي لا يكاد يُذْكَرُ إذا ما قِيسَ بِمَا يَزْخَرُ به من أضدادِهَا، فإنَّ ما يَعْلَمُهُ لا يُسـاوي شـيئًا بِجَانِـبِ ما يَجْهَلُه،

وما يَقْدِرُ عليه لا يُعَدُّ شيئًا بِجَانِبِ ما يَعْجِزُ عنه، وما يَسْمَعُهُ مِنَ الأصوات لا يكاد يُذكَرُ بِجَانِبِ ما لا يَسْمَعُهُ، وهكذا ما يُبْصِرُه ما هو إلا نقطةٌ في بَحْرِ ما لا يُبْصِرُهُ مِنَ الكائناتِ.

على أنه لا يُدْرِكُ إلا ظَوَاهِرَ الأشياءِ دُونَ خَفَايَاهَا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ إِدْرَاكًا وقُدْرَةً، فهو لا يُعجِزه شَيْءٌ، ولا تَخْفَى عليه خافيةٌ، وهكذا في جَمِيعِ الصفات.

٨. وَأَنَّـهُ لَيْسَ جِسْمًا لا وَلا عَرَضًا
لَكِنَّهُ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ كَمَلا

٩. وَوَاحِدٌ فِي الصِّفَاتِ وَالعِبَادَةِ وَالـ
أَفْعَالِ طُرًّا، فَلا تَبْغُوا بِهِ بَدَلا

أيْ: ونَدِينُ كذلك بأنه تعالَى لَيْسَ جِسْمًا ولا عَرَضًا، لأنَّ الأجسامَ والأعراضَ لا تكونُ إلا حادثةً مخلوقةً، وكلٌّ منها مُفْتَقِرٌ إلى غيره، فالجسمُ لا يَخْلُو مِنَ الأعراضِ، لأنه لا بُدَّ لَهُ مِنْ حَرَكَةٍ أو

سُـــكُونٍ، وَهُمَا عَرَضَانِ، ولا بُدَّ لَه من لَوْنٍ يَظْهَرُ به، وهو أيضًا منَ الأعراضِ، والعَرَضُ لا بُدَّ لَه من جِسْمٍ فهو مفتقرٌ إليه.

والجســـمُ هو أيضًا بِحَاجــةٍ إلى مــكانٍ يَحِلُّ بِه وزمانٍ يَجْرِي عليه، والزمــانُ والمكانُ حادِثانِ، وما افْتَقَرَ إلى الحادثِ فهو حادثٌ، على أنه لو قيلَ بِعَدَمِ حُدُوثِ المكانِ لَزِمَ منه تعدُّدُ القُدَماءِ، وهو مُسَـــوِّغٌ لِتَعَدُّدِ الآلِهَةِ، على أنه لو كان مفتقرًا إلى مكانٍ لَكانَ المكانُ أَوْلَى منه بالألوهية لكونه مفتقرًا إليه.

ثُـــمَّ إنه لـــو كان جســـمًا لَتَرَتَّبَ عليـــه أن يكون مَحْدُودًا من جهاته السِّـــتِّ، والْمَحْدُودُ إمَّا أن يكونَ قادرًا على الامتـــدادِ أو غيرَ قادرٍ عليـــه، وكلٌّ منهما باطلٌ، فَإِنَّهُ لـــو كان يَمْتَدُّ ويزيدُ لَـــزِمَ من ذلك كونُه متغيِّرًا غيرَ ثابتٍ، والتغيُّرُ من سِـــمَاتِ الحوادثِ، ثُمَّ إنَّ الفضاءَ الذي يَزِيدُ فيـــه إمّا أن يكونَ عَيْنَه وإمَّا أن يكون غَيْرَه، ويســـتحيلُ أن يكونَ عينَه، لأنَّ الشـــيءَ لا يزيد في عينِه، وإنْ كان غيرُه لَزِمَ افتقارُه إليه.

وبِبُطْلانِ ذلك كلِّهِ يَتَعَيَّنُ بطلانُ كَوْنِه جسمًا، وإذا ظَهَرَ بُطلانُ كَوْنِهِ جسـمًا فبُطلانُ كونِه عَرَضًا أظْهَرُ، لأنَّ العَرَضَ مفتقرٌ إلى الجسـم، إذْ لا يقومُ بنفسِـهِ، كَنُورِ الشـمْسِ ولَوْنِ الوَرْدِ وحَرَكَةِ المتحرِّكِ وسُكونِ الساكِنِ.

وإذا ثَبَتَ أنه لَيْسَ جِسْمًا ولا عَرَضًا فمعنى ذلك أنه واحدٌ في ذاته، يسـتحيل عليه التَّعَدُّدُ ويستحيل عليه مشـابَهَةُ شـيءٍ من الذَّوَاتِ الأخـرى، كما أنه واحِدٌ في صفاته لاستِحَالَة أنْ تكون صِفاتُه كصفاتِ الْخَلـق، وواحدٌ في أفعالِـه فلا تُشْـبِهُ أفعالُه أفعالَ الْخَلْقِ، لأنَّ أفعالَهم لا تكـون إلا بِمُحاوَلَةٍ ومُزَاوَلَةٍ، وأفعالُ الله بِخِلافِ ذلـك، وإنَّما يَقُول للشـيءِ كُنْ فيكونُ، ولا يسـتعين على أيِّ شـيءٍ بأعـوانٍ، فلا يُشارَكُ في شيءٍ من أفعالِهِ، إذْ لا أَثَرَ لغيرِه تعالَى في إيْجادِ الخلـقِ ولا فـي إفنائِهم ولا في بَسْـطِ رِزْقِه ولا في قَبْضِه، ولا في رَفْعِهِ ولا في خَفْضِه، ولا في إِثَابَتِهِ ولا في مُعاقَبَتِه، ولا في أيِّ شـيءٍ مِمَّا يُحْدِثُ في خَلْقِهِ.

لأَجْلِ ذلك كان واحدًا في عبادته فلا يُشْرَكُ فيها غيـرُه، وذلك معنـى لا إلـه إلا الله، فـإنَّ معناها: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ سِوَاهُ، فكلُّ ما يُعبَد دونَه عبادتُهُ باطلةٌ، لأنه نفسَه مَخْلوقٌ مفتقرٌ إليه تعالَى.

لذلك لَمْ يكن لأحَدٍ أن يَبْغِي به تعالى بَدَلًا يَعْبُدُهُ مِنْ دُونِه أو مَعَه أو يستعين بِه في أمورِه ويدعوه في كشفِ كَرْبِه، فإنَّ اللهَ وحدَه هو الذي يكشف الكُروبَ ويستجيب الدعاءَ، ولذلك وَجَبَ أن يُفْرَدَ بالدعاء والاستعانةِ كما يُفرد بالعبادة، وهو الذي دلَّ عليه قولُـه تعالَـى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. أيْ لا نعبُد إلا إياك ولا نستعين إلّا إياك.

وذلك لا يُنافي تعاونَ الناس فيما بينهم فيما كان التعاونُ فيه من سُنَنِ الحياة التي يقومُ عليها نظامُها، فإنَّ هذه الاستعانَةَ إنَّما هي بالله فـي حقيقتِها وإنْ كانت بِمَخْلوقِهِ في ظاهِرِها، إذِ الله تبارك وتعالى هو الذي أَقْدَرَ ذلك الْمَخلوقَ علـى الرِّعايةِ ومكَّنَهُ منها وساقَهُ إليها.

على أنَّ هذه الاســـتعانةَ لا تَتَعَدَّى حُدودَ ما أقدَرَ اللهُ سبحانه عبادَه عليه إِلَى ما لَمْ يُقْدِرْهُمْ على فعلِه، كَهِبَةِ الأولادِ، ومَنْحِ الحظوظِ والسَّعادةِ والجاهِ، ورفعِ البَلاوَى من الأسقامِ والأوجاعِ، ورفعِ المصائب، فإنه مَهْمَا يَكُنْ للإنسانِ مِنْ فعلٍ في ذلك فهو لا يتجاوزُ حُدُودَ الطبيعة الْمُشْتَرَكَةِ بين الخلقِ، وما سواه فمَرَدُّهُ إِلَى خالقِ الخلق وباســطِ الرزقِ الذي يُؤتِي الْمُلْكَ مَنْ يشاءُ ويَنْزِعُهُ مِمَّن يشاء ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشــاء، كما يُولِجُ الليلَ في النهــارِ ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ، ويُخْرِجُ الحَيَّ مِــنَ الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْميِّتَ من الحيّ ويَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

أسئلـة:

١. بيّن معنى كلمة (الإله) في اللغة والاصطلاح؟

٢. لماذا عبَّر الناظم عن الله تعالى بأنه (إله العرش)؟

٣. ما الفرق بين الشبه والندّ والمثل؟ وما معنى نفيها عن الله تعالى؟

٤. هل هناك فرق بين اتصاف الله تعالى بالحياة والسمع والبصر والقدرة واتصاف خلقه بها؟

٥. ما الدليل على أنَّ الله ليس جسمًا ولا عرضًا؟

٦. ما معنى أنّ الله واحد في ذاته؟

٧. ما معنى أنَّ الله واحد في صفاته، مع اتصاف المخلوقات ببعضها؟

٨. ما معنى أنَّ الله واحد في العبادة؟

٩. هل دعوة الناس إلى التعاون تُنافي إفراد الله بالدعاء والاستعانة؟

أَسْمَاءُ اللهِ وَصِفَاتُهُ الذَّاتِيَّة

١٠. أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُ الذَّاتِ لَيسَ بِغَيْـ
ـرِ الذَّاتِ بَلْ عَيْنُهَا فَافْهَمْ وَلا تَحُلا[١]

يَعْني أنَّ أسْمَاءَهُ تعالَى هي عَيْنُ ذاتِهِ لا غَيْرُهَا.

ومُرَادُهُ بذلك مَدْلُولُ الأسْــمَاءِ لا أَلْفَاظُها، كما بَيَّــنَهُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ في مَشَــارِقِ الأَنْوارِ، وحَرَّرَهُ قُطْــبُ الأَئِمَّةِ رَحِمَهُ اللهُ فــي هِمْيَانِ الزَّادِ، فــإنَّ الألفاظَ يَسْتَحِيلُ أنْ تكونَ هي الذاتَ العَلِيَّةَ، فإنَّها حُروفٌ مُرَكَّبَةٌ، ويستحيلُ كَوْنُ الذَّاتِ تلكَ الحُرُوفَ، وإنَّما لِتِلْــكَ الحــروفِ مَدْلُولٌ تَــدُلُّ عليه، وبِمَــا أنَّها بِتَرَاكِيبِهَا كانت منها أسْــمَاءُ اللهِ تَعَالَى فإنَّها عندما تُرَكَّبُ تِلْكُمُ التَّرَاكِيبَ الخاصَّةَ الدَّالَّةَ على الأسْمَاءِ يكــونُ مدلولُهَــا الْحَقِيقيُّ هــو عينَ ذاتِــهِ تبارك وتعالَى، لأنَّها وُضِعَــتْ إزَاءَ الــذَّاتِ لِتَدُلَّ عليها، وكذلك صِفَاتُهُ الذاتيَّةُ ما هي إلا عَيْنُ ذاتِهِ سبحانه،

---

(١) ولا تَحُلا: أي لا تتغير من الاستواء إلى الاعوجاج.

وإنْ كانتْ دالَّــةً على مَعَانٍ اعتبارِيَّةٍ يُــرَادُ بِهَا نَفْيُ أَضْدَادِهَا عن الذَّاتِ العَلِيَّةِ.

ولا بُدَّ أوَّلًا مِنْ بيان **الصِّفات الذاتية** والفَرْقِ بينها وبين **الصِّفات الفِعْلِيَّةِ**.

فالصِّفاتُ الذاتية: هِيَ صِفَاتٌ واجبةٌ لِذَاتِهِ تعالى أَزَلًا وأَبَدًا لأنَّها كَمَالاتٌ، ولَو انْتَفَتْ لَكَانَ سبحانه مَوْصُوفًا بأضْدَادِها، وهي مستحيلةٌ؛ لأنَّها دالَّةٌ على نَقْصٍ يســتحيلُ أنْ يَتَّصِفَ بِهِ مُبْــدِئُ الوجودِ. مِنْ أَجْلِ هَــذَا عَبَّرُوا عن الصفات الذاتيــة بأنَّها صِفَاتٌ واجبةٌ في حقِّــهِ ﷻ، وعن أضْدادِهَــا بأنَّها صفاتٌ مستحيلةٌ عليه.

وقد **فَرَّقُوا** بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية بـ:

- أنَّ **الصِّفات الذَّاتية** هي ما اتَّصَفَ به تعالَى في الأَزَلِ وفيما لا يَزَالُ، كالحياةِ والعِلْمِ والقُدْرَةِ والسَّمْعِ والبَصَرِ وجميعِ الكَمَالات الذاتيــة، فإنَّه لو لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَا لَزِمَ اتِّصافُهُ بأضدادِها من الْمَوْتِ والعَـجْزِ

والْجهْلِ والصَّمَمِ والعَمَى وغيرِها من صفات النَّقْصِ، وهو مستحيلٌ عليه تعالى.

❖ أمَّا **صِفَاتُ أفْــعَالِه** فَقَد اتَّصَفَ بِهَا فيما لا يَزَالُ لا في الأَزَلِ، كَخَلْقِ الخَلْقِ وإحيائِهِمْ وإماتَتِهِمْ وبَعْثِهِمْ وحِسَابِهِمْ، وَجَزَاءِ الْمُحْسِنِ منهم بالحُسْنَى والْمُسِيءِ منهم بِمَـا عَمِلَ، وبَعْــثِ الرُّسُــلِ وإنــزالِ الكُتُبِ، وتَصْرِيــفِ الأمْرِ فــي جميــع الكائناتِ مِنَ البَسْــطِ والقَبْضِ والرَّفْعِ والخَفْضِ والعَطَـاءِ والْمَنْعِ والإِيْجادِ والإِفْنَاءِ، فــإنَّ جَميعَ تلك الصفاتِ إنَّمــا يُوصَفُ بِهَا تعالَى فيما لا يَزَالُ لا في الأَزَلِ، إذْ لَمْ يَكُنْ في الأزلِ خَلْقٌ ولا إِحْياءٌ ولا إِمَاتــةٌ ولا عَطَاءٌ ولا مَنْعٌ ولا رَفْعٌ ولا خَفْضٌ ولا بَسْطٌ ولا قَبْضٌ ولا شَيْءٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، إذْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ وُجُودٌ إلا وُجُود الحقِّ تبارك وتعالَى.

ومِنْهُمْ مَــنْ **فَرَّقَ** بيــن صِفَاتِ الــذَّاتِ وَصِفَاتِ الأَفْعَالِ بــ:

❖ أنَّ **صِفَاتِ الأفعال** تُجَامِعُ أضْدَادَهَا في الوُجُودِ عِنْدَ اختــلافِ الْمَحَلِّ، كالإحيــاءِ والإماتةِ والإظهارِ

والإخفاءِ والعطاءِ والمنعِ والإعْزازِ والإذْلالِ والنَّصْرِ والخِـذْلانِ، فيُقَالُ: أَحْيَـى اللهُ فُلانًا وأَمَـاتَ فُلانًا، وأَعْطَى فُلانًا ومَنَعَ فُلانًا، وَرَفَعَ فُلانًا وخَفَضَ فُلانًا، وأَعَزَّ فُلانًـا وأَذَلَّ فُلانًا، وَنَصَرَ فُلانًـا وَخَذَلَ فُلانًا، وبَسَطَ كَذَا وَمَنَعَ كَذَا، وَأَوْجَدَ كَذَا وَأَفْنَى كَذَا، مع أنَّ كُلًّا منها مُقَابَلٌ بِضِدِّهِ.

❖ وأمَّا **صِفَـاتُ الذَّات** فلا تُجَامِـعُ أضْدَادَها في الوُجودِ وَلَوْ مَعَ اختلاف الْمَحَلِّ، فلا يَجُوزُ أنْ يُقَالَ: عَلِمَ اللهُ كذا وجَهِلَ كذا، أو قَدَرَ على كذا وعَجَزَ عن كذا، أو أَبْصَرَ كذا وعَمِيَ عن كذا، أو سَمِعَ كذا وصَمَّ عن كذا.

وبِهَذا يَتَبَـيَّنُ أنَّ صفاتِ الأفعـال هي **الصفاتُ الجائزة** في حقِّـهِ تعالَى، لأنَّها لا تُـؤَدِّي إلى نَقْصٍ بسـببِ اتصافِهِ بِهَا ولا بأضْدَادِهَـا، كما أنَّ الصفاتِ الذاتيةَ هي **الصفاتُ الواجبـةُ** في حَقِّهِ، وأنَّ أضدادَها هي الصفاتُ الْمُسْتَحِيلةُ عليه.

وكَوْنُ **صِفَاتِ الذَّاتِ هِـــيَ عَيْنَ الذَّاتِ** هُوَ ما عَلَيْهِ **أَصْحَابُنَا وَالْمُعْتَزِلَةُ** ومَنْ نَحـــا نَحْوَهُمْ، وَذَلِكَ إِمْعَانٌ في تَوْحِيدِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وتَنْزِيهِه عَنْ مُشَـــابَهَةِ غَيْرِهِ والافْتِقَارِ إِلَى مَا سِـــوَاهُ، فَهُمْ يَقُولُـــونَ بِأَنَّ اللهَ تبارَكَ وتعالَى مَوْصُوفٌ بِجَمِيعِ تِلْكَ الكَـمَالاتِ، وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلى ما سِوَاه.

- فَهُوَ تَعَالَى حَيٌّ حَيَـــاةً حَقِيقِيَّةً، وَلَكِنْ بِذَاتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَـــاجَ إِلَى صِفَةٍ زَائِدَةٍ عَلَى ذَاتِـــهِ قَائِمَةٍ بِهَا تُسَمَّى حَيَاةً.

- وهو عَلِيمٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْمًا حَقِيقيًا، مِنْ غيرِ أنْ يفتقرَ إلى صِفَةٍ زائدةٍ على ذاتِهِ تَتَجَلَّى بِهَا المَعْلُوماتُ لِذَاتِهِ تُســـمَّى عِلْمًا، وإنَّما عِلْمُه بذاتِه مِنْ غيرِ وُجودِ واسطةٍ بينَها وبينَ معلوماتِه.

- وهو قَدِيرٌ بِذَاتِهِ قُدْرَةً حَقِيقِيَّةً، بِحَيْثُ تَــــنْفَعِلُ لِذَاتِه جَمِيـــعُ الأَشْـــيَاءِ انْفِعَالًا تَامًّا حَسْـــبَ الإرادةِ الربَّانِيَّةِ، مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إلى وَاسِطَةٍ زَائِدَةٍ عَن الذَّاتِ تَكُونُ سَبَبًا في هَذَا الانْفِعَالِ وَتُسَمَّى قُدْرَة.

▪ وَتَنْكَشِفُ لِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ جَمِيعُ الكَائِنَاتِ انْكِشَافًا تَامًّا بِأَحْجَامِهَا وَصُوَرِهَا وَأَلْوَانِهَا وَجَمِيع أَحْوَالِهَا، مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إلى وَاسِطَةٍ بَيْنَ الذَّاتِ وَبَيْنَهَا تُسَمَّى بَصَرًا.

▪ وَتَتَجَلَّى لَهُ جَمِيعُ الأَصْوَاتِ تَجَلِّيًا تَامًّا كَمَا هِيَ، مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى وَاسِطَةٍ بَيْن ذَاتِهِ وَبَيْنَهَا تُسَمَّى سَمْعًا، فَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِهِ وَقَدِيرٌ بِذَاتِهِ وَسَمِيعٌ بِذَاتِهِ وَبَصِيرٌ بِذَاتِهِ، وَهَكَذَا في سَائِرِ الصِّفَاتِ.

وَ**حُجَّتُهُمْ** فِي هَذَا أَنَّه لَوْ قِيلَ بِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ مَعَانٍ حَقِيقِيَّةٌ زَائِدَةٌ على الذَّاتِ العَلِيَّةِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ افْتِقَارُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهَا، ثُمَ لا تَخْلُو:

ـ إمَّا أَنْ تَكُونَ **سَابِقَةً** في الوُجُودِ عَلَى ذَاتِهِ، فَتَكُونُ أَوْلَى بِالأُلُوهِيَّةِ مِنْهُ، لأَنَّ السَّابِقَ أَوْلَى مِنَ الْمَسْبُوقِ.

ـ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ **مُقَارِنَةً** لَهَا، فَتَكُونُ مُشَارِكَةً لَهُ في القِدَم، وَتَجِبُ عَلَى هَذَا مُشَارَكَتُهَا لَهُ في الأُلُوهِيَّةِ أَيْضًا، لأَنَّ كُلًّا مِنَ الصِّفَةِ وَالْمَوْصُوفِ قَدِيمٌ.

ـ وَإِمَّا أنْ تكُونَ حَادِثَةً، وهو عَيْنُ الْمُسْتَحِيلِ، لأنَّ كُلَّ حَادِثٍ يَفْتَقِرُ إِلَى مُحْدِثٍ أَحْدَثَهُ، فَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ العِلْمَ وَالقُدْرَةَ والحَيَاةَ وَالسَّمْعَ وَالبَصَرَ فَمَعْنَى ذَلِك أنَّهُ كَانَ غَيْرَ مُتَّصِفٍ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِك قَبْلَ هَذَا الخَلْقِ، وَيَسْتَحِيلُ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا ولا قَادِرًا وَلا حَيًّا ولا سَمِيعًا ولا بَصِيرًا أنْ يَخْلُقَ شَيْئًا قَطُّ، فَضْلًا عَنْ خَلْقِهِ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ مُطْلَقَ الخَلْقِ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا، وَأَنَّى لِمَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا أنْ يَخْلُقَ العِلْمَ؟! وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا أنْ يَخْلُقَ القُدْرَةَ؟! وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا أنْ يَخْلُقَ الحَيَاةَ؟! وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ سَمِيعًا أنْ يَخْلُقَ السَّمْعَ؟! وَلِمَنْ لَمْ يَكُنْ بَصِيرًا أنْ يَخْلُقَ البَصَرَ؟!

عَلَى أنَّ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى بُطْلانِ القَوْلِ بِزِيَادَتِهَا: أنَّها لَوْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى ذَاتِهِ وَكانَ بِهَا خَلْقُهُ لِمَخْلُوقَاتِهِ وَإِعْدَامُهَا، وَكُلُّ مَا يَكُونُ مِنْ أَفْعَالِهِ مِنْ بَسْطٍ وَقَبْضٍ وَعَطَاءٍ وَمَنْعٍ وَرَفْعٍ وَخَفْضٍ؛ لَمَا كَانَ وَجْهٌ لاسْتِحْقَاقِهِ العِبَادَةَ دُونَهَا، وَلَوْ قِيلَ بِإِشْرَاكِهَا مَعَهُ في العِبَادَةِ كَانَ

ذَلِكَ عَيْنَ تَعَدُّدِ الآلِهَة، مَع أنَّ الإِلَـهَ الْمَعْبُودَ وَاحِدٌ تَعَالَى أنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ في مُلْكِهِ.

وَذَهَبَ **الأَشْعَرِيَّةُ** وَمَنْ نَحَا نَحْوَهَم إِلَى أنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ **مَعَانٍ حَقِيقِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ**، فَهُوَ ـ عِنْدَهُمْ ـ عَلِيمٌ بِعِلْمٍ زَائِدٍ على ذَاتِهِ، وَقَدِيرٌ بِقُدْرَةٍ زَائِدَةٍ عَلَى ذَاتِهِ، وَحَيٌّ بِحَيَاةٍ زائدَةٍ على ذَاتِهِ، وَهَكَذَا في سَائِرِ الصِّفَاتِ.

و**اسْتَدَلُّوا** لِذَلِكَ بِقِيَاسِ الغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى أنَّ مَدْلُولَ الوَصْفِ في الشَّاهِدِ وَالغَائِبِ سَوَاءٌ، وَبِمَا أنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ في الشَّاهِدِ لا بُدَّ مِنْ أنْ تَكُونَ مَعَانِيَ حَقِيقِيَّةً تَقُومُ بِالذَّوَاتِ الْمُتَّصِفَةِ بِهَا ـ فَلا يُسَمَّى عَالِمًا إِلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ العِلْمِ، وَلا قَادِرًا إِلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ القُدْرَةِ، وَلا سَمِيعًا إِلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ السَّمْعِ، وَلا بَصِيرًا إِلَّا مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ البَصَرِ ـ فَهِيَ في الغَائِبِ كَذَلِكَ لا بُدَّ مِنْ أنْ تَكُونَ زَائِدَةً عَلَى ذَاتِهِ.

كَمَا اسْتَدَلُّوا بِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ لَوْ كَانَتْ عَيْنَ ذَاتِهِ تَعَالَى لَكَانَتْ وَاحِدَةً، وَمَعْنى ذَلِكَ أنَّ العِلْمَ هُوَ عَيْنُ القُدْرَةِ والقُدْرَةَ هِيَ عَيْنُ السَّمْعِ والسَّمْعَ هو عَيْنُ البَصَرِ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ لأَنَّ لِكُلِّ صِفَةٍ مِنْهَا مَدْلُولًا غَيْرَ مَدْلُولِ الصِّفَةِ الأُخْرَى.

وَالجَوَابُ عن الاسْتِدْلالِ الأوَّلِ

بِأَنَّ قِيَاسَ الغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ غَيْرُ مُسَلَّمٍ؛ لِمَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ مِنْ تَشْبِيهِ الخَالِقِ بِالخَلْقِ، وَهُوَ مَا قَطَعَ دَابِرَهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

عَلَى أنَّ فَتْحَ بَابَ هَذَا القِيَاسِ يُفْضِي إِلَى مَا لَمْ يَقُلْهُ هؤُلاءِ القَائِسُونَ وَلا غَيْرُهُمْ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، فَإِنَّنَا نَجِدُ أنَّ الشَّاهِدَ يَكُونُ مَوْجُودًا بِلا عِلْمٍ قَطُّ وَلا قُدْرَةٍ قَطُّ، كَمَا نَصَّ عَلَى الأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨]، وَتَدُلُّ الْمُشَاهَدَةُ عَلَى الثانِي، ثُمَّ تَحْدُثُ لَهُ مَلَكَةُ العِلْمِ وَيَأْخُذُ فِي التَّدَرُّجِ فِي اكْتِسَابِ الْمَعْلُومَاتِ شَيْئًا

فَشَيْئًا، وَعِنْدَمَا يَدُبُّ إِلَيْهِ الضَّعْفُ تَضْعُفُ هَذِهِ الْمَلَكَةُ فِيمَا يَضْعُفُ، وَقَدْ يَجْهَلُ كَثِيرًا مِمَّا كَانَ يَعْلَمُ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا يَصِلُ إِلَى الْمَرْحَلَةِ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا الْقُرْآنُ بِأَرْذَلِ الْعُمُرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠].

وَمِثْلُ ذَلِكَ في سَائِرِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ جَمِيعَ حَوَاسِّهِ وَطَاقَاتِهِ تَبْدَأُ ضَعِيفَةً، وَتَأْخُذُ في النُّمُوِّ إِلَى أَنْ تَتَوَافَى إِلَى حَدٍّ مُعَيَّنٍ، ثُمَّ تَأْخُذُ في الانْتِكَاسِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨].

وَلَوْ قِيسَتْ صِفَاتُ الحَقِّ عَلَى صِفَاتِ الخَلْقِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ شَأْنُهُ فِي صِفَاتِهِ كَشَأْنِ خَلْقِهِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِالتَّعَلُّمِ، وَأَنْ يَكُونَ قَادِرًا بِالتَّدَرُّجِ في مَرَاحِلِ القُدْرَةِ، وَأَنْ تَكُونَ قُدْرَتُهُ تَنْمُو بِمُمَارَسَةِ مُتَعَلِّقَاتِهَا، وَهَكَذَا في سَائِرِ الصِّفَاتِ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ مَا بَيْنَ صِفَاتِ الحَقِّ وَصِفَاتِ الخَلْقِ مِنَ التَّضَادِّ، فَإِنَّ كُلَّ مَا يَتَّصِفُ بِهِ الْمَخْلُوقُ مِنْ مَظَاهِرِ صِفَاتِ الكَمَالاتِ لا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ نِسْبِيًّا مَحْدُودًا

لا يُوَازِي شَيْئًا بِجَانِبِ مَا يَتَّصِفُ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ الْمُضَادَّةِ لَهَا، وَلَوْ فَتَحْنَا بَابَ القِيَاسِ لأَفْضَى ذَلِكَ إِلى سَلْبِ جَمِيعِ الكَمَالاتِ عَنِ الذَّاتِ العَلِيَّةِ، وَوَصْفِهَا بِكُلِّ صِفَاتِ النَّقْصِ الَّتي يَتَّصِفُ بِهَا الْمَخْلُوقُونَ، وَهَذَا عَيْنُ الْمُحَالِ وَرَأْسُ الضَّلالِ.

وَالجَوَابُ عَنِ الثَّانِي

أَنَّ تَعَدُّدَ تِلْكَ الصِّفَاتِ في التَّعْبِيرِ عَنْهَا وَاخْتِلافَ مَفَاهِيمِهَا رَاجِعٌ إِلَى تَعَدُّدِ أَنْوَاعِ التَّجَلِّيَاتِ وَاخْتِلافِهَا، فَتَجَلِّي الكَائِنَاتِ بِحَسَبِ اخْتِلافِ أَحْوَالِهَا وَتَبَايُنِ أَوْصَافِهَا الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ يُسَمَّى عِلْمًا، وَتَجَلِّي صُوَرِهَا وَأَلْوَانِهَا وَهَيْئَاتِهَا يُسَمَّى بَصَرًا، وَتَجَلِّي أَصْوَاتِهَا يُسَمَّى سَمْعًا، وَالْمُتَجَلَّى لَهُ وَاحِدٌ وَهُوَ الذَّاتُ العَلِيَّةُ، وَهَكَذَا انْفِعَالُ الأَشْيَاءِ حَسْبَ مُرَادِ ذَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ تَشْنِيعَ الْمُشَنِّعِينَ عَلَى القَائِلِينَ بِأَنَّ صِفَاتِ الذَّاتِ هِيَ عَيْنُ الذَّاتِ بِأَنَّهُمْ مُنْكِرُونَ لِصِفَاتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنَّهُمْ نَافُونَ عَنِ الذَّاتِ كَمَالاتِهَا

لَيْسَ بِشَــيْءٍ، وَإِنَّمَا هُمْ مُنَزِّهُونَ لِلــذَّاتِ العَلِيَّةِ عَن الافْتِقَارِ إِلَى الغَيْرِ وَأَنْ يَكُــونَ كَمالُهَا مَنُوطًا بِالزِّيَادَةِ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ أَنَّ ذَاتَ الْمَخْلُوقِ لِنُقْصَانِهَا هِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى مَا يَجْبُرُ نَقْصَهَا مِنْ صِفَــاتٍ زَائِدَةٍ عَلَيْهَا تُضَافُ إِلَيْهَا، وَذَاتُ الخَالِقِ لِكَمَالِهَا مَوْصُوفَةٌ بِكُلِّ الكَمَالاتِ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى زِيَادَةٍ مِمَّا عَدَاهَا.

الكلمة الطيبة

أسئلـة:

١. عندما نقول: (إنَّ أسماء الله هي عين ذاته)، فهل يُراد بذلك ألفاظ الأســماء أم مدلولهــا؟ وضّح ذلك مع الدليل.

٢. بيّن الفروق بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية لله تعالى؟

٣. لماذا كانت صفــات الذات واجبــة وصفات الأفعال جائزة في حق الله تعالى؟

٤. أيُّ المذاهب الإســلامية قالت بأنَّ صفات الذات هي عين الذات؟ وما دافعهم لهذا القول؟

٥. وضِّح معنى المقولة الســابقة بأمثلــة من صفات الله الذاتية؟

٦. ما حُجّة القائلين بأنَّ صفات الذات هي عين الذات؟

٧. أيّ المذاهب الإســلامية ذهبت إلى أنّ صفات الذات زائدة على الذات، وما معنى كلامهم هذا؟

٨. بماذا اســتدلّ القائلون بأن صفات الذات زائدة على ذاته سبحانه؟ وبماذا نُجيب على أدلتهم؟

نَفْيُ الرُّؤْيَـةِ

١١. وَلا يُحِيطُ بِهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ بَصَرٌ
دُنْيَا وَأُخْرَى، فَدَعْ أَقْوَالَ مَنْ نَصَلا[1]

مُرَادُهُ أنَّ اللهَ سبحانَه مُنَزَّهٌ عَنْ رُؤْيَةِ الأَبْصَارِ لَهُ، لأَنَّهُ لا يُشْبِهُ شيئًا ولا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ، فَوُجُودُهُ لَيْسَ كَوُجُودِ مَا سِوَاهُ، فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنِ التَّحَيُّزِ في مَكَانٍ، وَعَنْ وَصْفِهِ بِالأَلْوَانِ، والرُّؤْيَةُ لا تَقَعُ إلَّا عَلَى مُتَحَيِّزٍ ذِي جِرْمٍ كَثِيفٍ، مُتَّصِفٍ بِأَحَدِ الأَلْوَانِ، مُشِعٍّ بِنَفْسِهِ أَوْ وَاقِعٍ عَلَيْهِ شُعَاعُ غَيْرِهِ، غَيْرِ دَقِيقٍ جِدًّا، وَلا مُتَّصِلٍ بِالبَاصِرَةِ وَلا بَعِيدٍ جِدًّا.

فَإِنْ قِيلَ بِأَنَّ هَذِهِ الشُّرُوط إِنَّمَا هِيَ فِي تَحَقُّقِ رُؤْيَةِ الشَّاهِدِ دُونَ الغَائِبِ، وَقَدْ قُلْتُمْ بِمَنْعِ قِيَاسِ الغَائِبِ عَلى الشَّاهِدِ في بَابِ الصِّفَاتِ.

(١) نصل ـ من باب قتل ـ أي خرج عن الحق، يقال: نصل الشيء من موضعه، أي خرج منه.

فَالْجَوَابُ:

أَنَّ هَذِهِ الشُّرُوطَ هِيَ الَّتي يَتَحَقَّقُ بِهَا مَدْلُولُ الرُّؤْيَةِ اللُّغَوِيُّ، وَخِطَابُ الشَّارِعِ إِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ وَضْعِ اللُّغَاتِ، وَمَنْعُ قِيَاسِ الغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ في بَابِ الصِّفَاتِ لِتَنْزِيهِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وَذَلِكَ نَفْسُهُ دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى اسْتِحَالَةِ رُؤْيَتِهِ؛ لِئَلَّا يَتَسَاوَى مَعَ مَخْلُوقَاتِهِ في تَسَلُّطِ إِحْدَى الحَوَاسِّ عَلَى ذَاتِهِ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يُدْرَكَ بِحَاسَّةِ البَصَرِ لَجَازَ ذَلِكَ لِجَمِيعِ الحَوَاسِّ كَاللَّمْسِ وَالشَّمِّ وَالذَّوْقِ.

أَمَّا مِنْ حَيْثُ الأَدِلَّةُ النَّقْلِيَّةُ

- فَإِنَّ أَصْرَحَهَا وَأَقْوَاهَا وَأَدَلَّهَا عَلَى اسْتِحَالَةِ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، فَإِنَّهُ سِيقَ مَسَاقَ التَّمَدُّحِ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ فَلا يُمْكِنُ تَبَدُّلُهُ دُنْيَا وَلا أُخْرَى، لأَنَّ مَدَائِحَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا تَزُولُ، فَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَوْلِهِ

تَعَالَى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. فَلا يَجُوزُ انْقِلابُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلى ضِدِّهِ، فَلا وَجْهَ لِحَصْرِ هَذَا النَّفْيِ فِي الدُّنْيَا دُونَ الآخِرَةِ، وَلا فِي جَعْلِهِ خَاصًّا بِبَعْضِ الأَبْصَارِ دُونَ بَعْضٍ.

وَمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الإِدْرَاكَ غَيْرُ الرُّؤْيَةِ مَرْدُودٌ بِأَنَّ إِدْرَاكَ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ، فَإِدْرَاكُ الأُذُنِ سَمَاعُهَا، وَإِدْرَاكُ اليَدِ قَبْضُهَا، وَإِدْرَاكُ السَّهْمِ إِصَابَتُهُ، وَإِدْرَاكُ العَيْنِ رُؤْيَتُهَا، وَهُوَ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَعَاجِمُ اللُّغَوِيَّةُ الْمُعْتَمَدَةُ فِي تَفْسِيرِهَا الإِدْرَاكَ بِاللَّحَاقِ.

❖ وَمِنَ الأَدِلَّةِ عَلَى ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فَإِنَّ «لَنْ» مِنْ أَقْوَى عَوَامِلِ النَّفْيِ، فَلِذَلِكَ تُفِيدُ تَأْكِيدَهُ أَوْ تَأْبِيدَهُ، وَلَئِنِ انْتَفَتْ رُؤْيَتُهُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَانْتِفَاؤُهَا عَنْ غَيْرِهِ أَحْرَى.

❖ وَمِنْ أَدِلَّتِهِ مَا جَاءَ مِنَ التَّشْدِيدِ فِي القُرْآنِ عَلَى مَنْ سَأَلَهَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن

﴿تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وقولِهِ: ﴿فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

ومِنْ دَلائِلِ ذَلِكَ في السُّنَّةِ النَّبوِيَّة

❖ حَدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ عِنْدَ الشَّيْخَيْنِ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهَا وَمَا فِيهَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهَا وَمَا فِيهَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ رَبِّنَا فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»(١). فَإِنَّ مَعْنَاهُ: أَنَّ اللهَ أَعْلَى مَنَازِلَهُمْ وَقَرَّبَهُمْ مِنْهُ، فَلَمْ يَحُلْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رُؤْيَتِهِمْ إِيَّاهُ إِلَّا اتِّصَافُهُ تَعَالَى بِالكِبْرِيَاءِ، وَرُؤْيَتُهُ تُنَافِي كِبْرِيَاءَهُ ﷻ، وَصِفَةُ الكِبْرِيَاءِ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ للهِ لا تَتَبَدَّلُ، فَمَا انْتَفَى بِسَبَبِهَا فَإِنَّ انْتِفَاءَهُ أَبَدِيٌّ يَسْتَحِيلُ ضِدُّهُ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ومن دونهما جنتان (٤٨٧٨)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم (١٨٠).

❖ وَحَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ ﷺ عِنْدَ مُسْلِمٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ عَنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِ لَيْلَةَ الإِسْرَاءِ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ!»(١). فَإِنَّ قَوْلَهُ: «أَنَّى أَرَاهُ» اسْتِبْعَادٌ لَأَنْ تَجُوزَ رُؤْيَتُه.

أمَّا **اسْتِدْلالُ القَائِلِينَ بِالرُّؤْيَةِ** على وُقُوعِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فَهُوَ مَرْدُودٌ بِأَنَّ النَّظَرَ هُنَا لا يُمْكِنُ أنْ يُحمَلَ على الرُّؤْيَةِ لأُمُورٍ:

▪ **أَوَّلُها**: أنَّ النَّظَرَ لَيْسَ هو عَيْنَ الرُّؤْيَةِ، بِدَلِيلِ أَنَّ القَائِلَ يَقُولُ: نَظَرْتُ الهِلالَ فَلَمْ أَرَهُ، وَلَوْ قَالَ: رَأَيْتُ الهِلالَ فَلَمْ أَرَهُ؛ لَكَانَ قَوْلًا سَخِيفًا مُتَهَالِكًا.

▪ **ثَانِيهَا**: أَنَّهُ أُسْنِدَ إلى الوُجُوهِ، وَالوُجُوهُ لَيْسَتْ هِيَ آلَةَ الرُّؤْيَةِ وَإِنَّمَا آلَتُهَا الأَبْصَارُ.

▪ **ثَالِثُهَا**: أنَّ السِّيَاقَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِالنَّظَرِ هُنَا إِلَّا الانْتِظَار، فَإِنَّ الآيَةَ أُتْبِعَتْ بِقَوْلِهِ تَعَالى:

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: في قوله ﷺ نور أنى أراه (١٧٨).

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥] وَتَفْسِيرُهُ بِالرُّؤْيَةِ لا يَنْسَجِمُ مَع هَذَا السِّيَاقِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ ـ وَهُوَ بِمَعْنَى النَّضارَةِ وَالحُسْنِ ـ مُقَابَلٌ بِقَوْلِهِ ﴿بَاسِرَةٌ﴾، وقَوْلَهُ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ مُقابَلٌ بِقوْلِهِ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾، فَوُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ نَاضِرَةٌ في ذَلِكَ الْمَوْقِفِ لانْتِظَارِهَا رَحْمَةَ اللهِ، أيْ أنْ يُؤْذَنَ لَهَا بِدُخُولِ جَنَّتِهِ وَالفَوْزِ بِنَعِيمِهِ، وَوُجُوهِ أَعْدَائِهِمْ بَاسِرَةٌ، أيْ كَالِحَةٌ تَتَوَقَّعُ أَمْرًا شَدِيدًا يَقْطَعُ فَقَارَ ظُهُورِهَا، وَهُوَ دُخُولُ النَّارِ ـ وَالعِيَاذُ بِاللهِ ـ.

ولو فُسِّرَ النظرُ هنا بِمَعْنى الرُّؤية لَشَذَّ عمَّا يقتضيه السياق من التقابل والتَّضادِّ بين أوصافِ المؤمنين في ذلك اليوم وأوصافِ الكافرين والفاسقين، إذْ لا تَقَابُلَ بين كَوْنِ وُجوهِ المؤمنين رَائيةً لِرَبِّها وَوُجوهِ أعدائِهِمْ تَتَوَقَّعُ أمْرًا يَقْطَعُ فَقَارَ ظُهُورِها.

▪ رَابِعُها: أنَّ الآياتِ إنَّما هي تُخْبِرُ عن أحوالِ الْمَوْقِفِ يومَ الحِسَاب، والقائِلُونَ بالرؤية اختلفوا في

وُقوعِها في الْمَوْقِفِ، بل نَجِدُهُـــم يقولون بأنَّها مِنَ الزيادةِ التي تَكُون بعدَ الفوزِ بالثواب في الجنة.

فإنْ قالوا بأنَّه لا يُسَــلَّمْ أنَّ الحديثَ عَن الْمَوْقِفِ لأنَّها دَعْوَى لَمْ يَقُمْ عليها بُرْهَانٌ.

قُلْنَــا: بُرْهَانُهــا وَاضِــحٌ في نفسِ الآيــات، وهو قَوْلُــهُ ﷻ: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾، فَلَوْ كان ما فيها مِنْ ذِكْرِ النَّضَارَةِ والنَّظَــرِ مَعْنِيًّا به ما ينالونــه في الْجَنَّةِ لَكَانَ ما ذُكِرَ في حَقِّ الفريقِ الآخَرِ مُرَادًا بِهِ ما يَجِدُونَهُ في النار، مــع أنَّهم بَعْــدَ أنْ يَصْلَوُا النَّــارَ لا مَعْنَى لِظَـــنِّهِمْ أنْ يُفْعَلَ بِهِمْ فاقِرَةٌ، لأنَّ الفَاقِرَةَ حَلَّتْ بِهِمْ، وظَنُّ ذَلِكَ ـ أيْ تَوَقُّعُهُ ـ إنَّما هو قَبْلَ دُخُولِهَا.

أمّا **مَا زَعَمُوهُ** بِأَنَّ النَّظَرَ إِذَا عُدِّيَ بِـ«إِلَى» لا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ؛

فَهُوَ مَرْدُودٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمـران: ٧٧]، فَقَدْ عُدِّيَ النَّظَرُ هُنَــا بِإِلَى وَهُوَ بِمَعْنَــى غَيْرِ الرُّؤْيَةِ

قَطْعًا، لأَنَّهُ لَوْ فُسِّرَ بِهَا لَزِمَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ اللهُ سُبْحَانَهُ لا يَرَى هَؤُلاءِ يَوْمَ القِيامَةِ.

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّ إِسْنَادَ النَّظَرِ إِلَى الوُجُوهِ هُوَ الَّذِي يُؤَكِّدُ أَنَّهُ بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ.

قُلْنَا: إِنَّ الوُجُوهَ هُنَا مَجَازٌ عَنْ أَصْحَابِهَا، وَلَئِنْ جَازَ أَنْ يُسْنَدَ إِلَيْهَا كُلُّ ما يُسْنَدُ إِلَى أَصْحَابِهَا مِنَ النَّعْمَةِ والرِّضَا في حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ، والخُشُوعِ والعَمَلِ والنَّصَبِ وصِلِيِّ النَّارِ والسَّقْيِ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ في حَقِّ الْمُجْرِمِينَ، كَمَا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ١-٥]، ثُمَّ في مُقَابِلِهَا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨، ٩]؛ فَمَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ يُسْنَدَ النَّظَرُ بِمَعْنَى الانْتِظَارِ إِلَيْها كَمَا في هَذِهِ الآيَةِ؟ عَلَى أَنَّهُ أُسْنِدَ إِلَى وُجُوهٍ - في آيَةٍ تَالِيَةٍ - ظَنُّهَا أَنْ يُفْعَلَ بِها فَاقِرَةٌ، فَدَعْوَى أَنَّ النَّظَرَ لا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ إِذَا أُسْنِدَ إِلَى الوُجُوهِ دَعْوَى عَارِيَةٌ مِنَ الدَّلِيلِ.

والكَلامُ في الرُّؤْيَةِ لا تَسَعُ لَهُ هَذِهِ العُجَالَةُ، وَقَدْ بَسَطْتُ القَوْلَ فِيهِ فِي «الْحَقِّ الدَّامِغِ»، فَمَنْ شَاءَ فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ.

أسئلة:

١. ما هو الدليل العقلي على تنزيه الله تعالى عن الرؤية البصرية؟

٢. اذكر ثلاثة أدلة من القرآن الكريم على استحالة رؤيته تعالى؟

٣. اذكر دليلَين من السنة على عدم جواز رؤيته سبحانه؟

٤. كيف نردّ على القائلين بالرؤية في استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾؟

٥. هل يلزم أن يكون النظر بمعنى الرؤية عندما يُعدّى بـ(إلى) أو يُسند إلى الوجوه؟

٦. بسط الشارح مسألة الرؤية في كتاب آخر، اذكره مُعرّفًا به؟

نَفْيُ التَّكْيِيفِ

١٢. وَلا يُكَيِّفُهُ وَهْمٌ وَلا فِكَرٌ
وَلا تُحِيطُ بِهِ الأَقْطَارُ مُدَّخَلا

الوَاوُ عَاطِفَةٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ.

ومَعْنى ذَلِكَ: أَنَّنَا نَدِينُ ـ فِيمَا نَدِينُ بِهِ ـ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لا تُكَيِّفُهُ الأَوْهَامُ وَالأَفْكَارُ، وَلا تُحِيطُ بِهِ الأَقْطَارُ، لأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَمَا تَصَوَّرَهُ الوَهْمُ أَوْ كَيَّفَهُ الفِكْرُ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثَالٌ يَرْتَسِمُ في الذِّهْنِ، فَلِذَلِكَ وَجَبَ تَنْزِيهُهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ كُلِّ مَا يَرِدُ إِلى الأَذْهَانِ مِنَ الخَيَالاتِ والصُّوَرِ.

وَهو تَعَالَى مُنَزَّهٌ أَيْضًا عَنْ إِحَاطَةِ **الأَقْطَارِ** ـ أَي الجِهَاتِ ـ بِهِ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ ذَلِكَ في الحَدِيثِ عَنْ نَفْيِ كَوْنِهِ جِسْمًا أَوْ عَرَضًا، وَكَفَى.

أسئلـة:

١. هل يمكن للعقل تصوُّر ذات الله تعالى؟

٢. ما السـبب فـي أنَّ الله لا تُكَيِّفُه الأوهـام ولا تَحُدُّه الأفكار؟

الاسْتِوَاءُ عَلَى العَرْشِ

١٣. وَهْوَ على العَرْشِ وَالأَشْيا اسْتَوَى وَإِذَا
عَدَلْتَ[١] فَهْوَ اسْـــتِوَاءٌ غَيْرُ مَا عُـــقِلا

١٤. وَإِنَّمَــا الاسْـــتِوَا مُلْكٌ وَمَقْـــدِرَةٌ
لَـهُ عَـــلَى كُلِّهَا اسْـــتَوْلى وَقَدْ عَدَلا

١٥. كَمَا يُقَالُ اسْـتَوَى سُلْطَـانُهُمْ فَعَلا
عَلى البِــلادِ فَحَازَ السَّـــهْلَ وَالْجَبَلا

قد أَخْبَرَ اللهُ في كتابِهِ في العَدِيـــدِ مِنَ الآياتِ أَنَّه اسْـــتَوَى على العَـــرْشِ، ويَجِـــبُ أَنْ نُـــدْرِكَ أَنَّ هذا الاسْتِوَاءَ لا يَعْنِي القُعُودَ والاسْتِقْرَارَ، لأَنَّه تَعالَى مُنَزَّهٌ عن الافْتِقَارِ إِلَـــى الغَيْـــرِ، ولَـــوْ كانَ بِمَعْنى القعود والاســـتقرار لَكَانَ هـــو بِحَاجَةٍ إلى العـــرش، ولأنَّه سبحانه سَـــابِقٌ على كلِّ شـــيءٍ في الوُجُودِ، لا أَوَّلَ لأَوَّلِيَّتِهِ، وكلُّ ما سِـــوَاهُ حادِثٌ عن العَدَمِ، وهو الذي أَخْرَجَهُ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجُودِ.

(١) عدلتَ: أي حكمتَ بالعدل في الاستواء.

فَوَضَحَ لِكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عليه أنْ يَكُونَ اسْتِوَاؤُهُ على العَرْشِ بِالْمَعْنى الْمَادِّيِّ؛ وهو القُعُودُ والاستقرار كَمَا أَخَذَتْ بِهِ الْمُشَبِّهَةُ، وتَعَيَّنَ أنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الكِنَايَاتِ، وذلك مَعْهُودٌ في الخِطَابِ العَرَبي وغيرِه، كَمَا يُقَالُ: فُلانٌ طَوِيلُ النِّجَادِ؛ كِنَايَةً عن طُولِ قَامَتِهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ نِجَادٌ، وكَمَا يُقَالُ في الكَرِيمِ بأنَّهُ: كَثِيرُ الرَّمَادِ، مَهْزُولُ الفَصِيلِ، جَبَانُ الكَلْبِ، ولَوْ لَمْ تُوجَدْ حقيقةٌ لِشَيْءٍ مِمَّا وُصِفَ بِهِ.

وعَلَيْهِ فإنَّ **استواءَهُ على العرش** إنَّما هو بِمَعْنى هَيْمَنَتِهِ على خَلْقِهِ وتَدْبِيرِهِ لأُمُورِهِمْ وتَصْرِيفِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ في الكائنات. على أنَّ العَرَبَ تُطْلِقُ الاستواءَ بِمَعْنى الاسْتِيلاءِ، كَمَا يقولُ الشاعرُ:

قَدِ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى العِرَاقِ
مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

وهَذَا المَعْنى أَوْلَى أنْ تُحْمَلَ عليه الآياتُ، لِمَا ثَبَتَ مِنْ دَلِيلِ العَقْلِ والنَّقْلِ مِنَ اسْتِحَالَةِ المعنى المادِّيِّ الظَّاهِرِ، فإنَّ العَرْشَ الجِسْمَانِيَّ مكانٌ كَغَيْرِهِ

مِـن الأَمْكِنَةِ، كانَ بَعْـدَ أنْ لَمْ يَكُنْ، ولَـمْ يَكُنْ إلا بِخَلْقِ اللهِ، فهو الْمُفْتَقِرُ إلى اللهِ سبحانه، واللهُ غَنِيٌّ عنه وعن غيرِه.

وَلَوْ كانَ تَعَالى حَالًّا بالعرش ـ كما تَقُولُ الْمُشَبِّهَةُ ـ لَتَرَتَّبَ على ذلك: **إمَّا** أنْ يكونَ العرش سابِقًا عليه؛ وهو **يَقْتَضِي** حُدُوثَهُ تَعَالى. و**إمَّا** أنْ يكونَ قَدِيمًا مَعَه؛ وهُوَ **يَقْتَضِي** تَعَدُّدَ القُدَمَاءِ، وَتَعَدُّدُ القُدَمَاءِ يقتضي تعدُّدَ الآلِهَةِ. و**إمَّا** أنْ يكونَ حادِثًا كَغَيْرِهِ من المخلوقات؛ وذلك **يُؤَدِّي** إلى التَّسَاؤُلِ عن مكانه تعالى قبل حُدُوثِ عَرْشِه.

والتَّنْزِيهُ اللائِقُ بِجَلالِ الله يَقْضِي باستحالَةِ ذلك كُلِّهِ، فإنَّ الله تعالى كانَ ولا زَمَانَ ولا مَكَانَ، وهو الآنَ على ما عَلَيْهِ كانَ، لَمْ يُحْدِثْ خَلْقُ الزمان والمكان تغييرًا في ذاته ولا في صفاته، فإنَّ التَّحَوُّلَ مِنْ حالٍ إلى حالٍ مِنْ سِمَاتِ مَخْلُوقاته، وهو الغَنِيُّ عن كل شيءٍ، القادِرُ على كل شيءٍ، فالعَرْشُ وما دُونَهُ مَحْمُولانِ بِلُطْفِ قُدْرَتِهِ تعالى.

وإنَّمَـــا مِنْ تَيْسِـــيرِ الله تعالـــى الْهِدَايَةَ لِعِبَـــادِهِ أنْ خَاطَبَهُـــمْ بالعبـــارات التـــي يَفْهَمُونَهَا مِـــنَ الحقيقةِ والْمَجَازِ والصَّرِيحِ والكِنَايَـــةِ، وقد عُهِدَ في تَخَاطُبِ الناسِ قَوْلُهُمْ مَثَلًا: اعْتَلَى فُلانٌ العَرْشَ، بِمَعْنى: تَوَطَّدَ مُلْكُهُ واسْتَوْلَى على أَزِمَّةِ أُمُورِ الرَّعِيَّةِ.

أسئلـة:

١. ورد في القرآن أنَّ الله استوى على العرش، فما معنى ذلك؟

٢. ما معنى أنَّ آيات الاستواء يتعيّن حملها على الكناية لا الحقيقة؟

٣. هل تُطلق العرب الاستواء على غير المعنى المادي؟

٤. كيف تردّ على المشبِّهة في زعمهم أنَّ الاستواء معناه القعود والاستقرار على العرش؟

الإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ

١٦. وَأَنَّ أَحْمَدَ مِنْ رُسْلِ الإِلَـهِ، وَقَدْ
يُخَصُّ مِنْ بَيْنِهِمْ فَضْلًا وَمُفْتَضَلا

١٧. وَأَنَّهُ صَادِقٌ فِيمَا أَتَانَا بِهِ
مُبَلِّغُ الثَّقَلَيْنِ مَا بِهِ رُسِلا

يَعْنِي أنَّه مِمَّا يَجِبُ الإِيْمانُ بِهِ أنَّ أَحْمَدَ ـ أيْ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ ـ هو واحِدٌ مِنْ رُسُلِ اللهِ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيارِ، والإِيْمانُ بِهِ أَنَّهُ واحِدٌ مِنَ الرُّسُلِ يَقْتَضي الإِيْمانَ بِجَمِيعِ هؤلاءِ الرسلِ وبِرِسَالاتِهِمْ جميعًا، ولكنَّ الواجِبَ مِنْ إيْمانِنا بِهِمْ هو **الإِيْمانُ بِجُمْلَتِهِمْ**، إلا مَنْ قامَتْ علينا حُجَّتُهُ فَعَرَفْنَاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ مَعْرِفَةً خاصَّةً فَعَلَيْنَا أَنْ نَخُصَّهُ بالإِيْمان.

ويَتَمَيَّزُ إيْمَانُنا بِنَبِيِّنا مُحَمَّدٍ ـ عليهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ ـ أنَّهُ **إيْمَانٌ بِعَيْنِهِ**، فَلا يَكْفِي أنْ نُؤْمِنَ بِهِ إيْمانًا مُجْمَلًا مع سائِرِ الْمُرْسَلِينَ، لأنَّه النَّبِيُّ الخَاتَمُ، ورِسَالَتُهُ هِيَ الرِّسَالَةُ الخَاتِمَةُ، وقد تُعُبِّدْنا بِهَا وفُرِضَ

عَلَيْنَا اتِّبَاعُهُ، وذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ إِلَّا إذا مَا خَصَصْنَاهُ بالإِيْمَان.

والْمُرْسَلُونَ جَمِيعًا مُيِّزُوا على غَيْرِهِمْ بِفَضَائِلِهِمُ الْجَمَّةِ الَّتي اخْتَصَّهُمُ اللهُ بِهَا، ونَاهِيكَ أنَّ اللهَ وَصَفَهُمْ بِالْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيارِ، فَهُوَ دَلِيلٌ على اصطفائِهِمْ مِنْ بَيْنِ سائِرِ الخَلْقِ وأَفْضَلِيَّتِهِمْ على مَنْ عَدَاهُمْ.

وقد مُيِّزَ مِن بَيْنِهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِمَا رَفَعَ دَرَجَتَهُ فَوْقَ دَرَجَاتِهِمْ، وَشَمَخَ بِقَدْرِهِ مِنْ بَيْنِ أَقْدَارِهِمْ، وَحَسْبُكُمْ مَا وَصَفَهُ اللهُ بِهِ حَيْثُ قالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهو وَصْفٌ تَتَقَاصَرُ دُوْنَهُ الأَوْصَافُ، وَقَدْرٌ تَتَوَاضَعُ دُونَهُ الأَقْدَارُ، إِذْ لَمْ يَجْعَلْهُ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْوُجُودِ الإِنْسَانِيِّ وَحْدَهُ، وإِنَّما جَعَلَهُ رَحْمَةً لِمُطْلَقِ الوُجُودِ، وقَدْ تَمَيَّزَ مِنْ بَيْنِهِم:

- بِأَنَّ رِسَالَتَهُ هِيَ الرِّسَالَةُ الخَاتِمَةُ الْمُهَيْمِنَةُ على رِسَالاتِهِمْ.

المحتويات

❖ وأنَّ الكِتَابَ الْمُنْزَلَ عَلَيْهِ هو الكتابُ الآخِرُ مِنْ بَيْنِ الكُتُبِ، فهو مُهَيْمِنٌ عَلَيْهَا.

❖ وأنَّ مُعْجزَتَهُ هـــي الْمُعْجِزَةُ الخَالِـــدَةُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْمُعْجِزَاتِ.

❖ وأنَّ شَرِيعَتَهُ هي أجْمَعُ الشَّرَائِعِ وأدَقُّهَا، وأوْفَاهَا بِكُلِّ ما تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الإِنْسَانِيَّةُ إِلَى أنْ يَرِثَ اللهُ الأرْضَ وَمَنْ عَلَيْها.

❖ وأنَّ رِسَـــالَتَهُ لَمْ تَكُنْ خَاصَّةً بِقَـــوْمٍ دُونَ قَوْمٍ، وإِنَّما هِيَ رسالَةٌ إِلَى الثَّقَلَيْنِ جَمِيعًا.

❖ وأنَّ اللهَ تَعالَى قَدْ رَفَعَ بِهَـــا ما كان على الأُمَمِ مِنَ الآصَارِ الشَّاقَّةِ والتكاليفِ العَسِيرَةِ، فَجَعَلَ الدِّينَ فيها يُسْرًا.

❖ وأنَّ أُمَّتَهُ هِـــيَ خَيْرُ الأُمَمِ، وأنَّهـــا تَضْطَلِعُ مِنْ بَعْدِهِ بأمَانَةِ رِسَالَتِهِ قِيَامًا بِوَاجِبَاتِهَا وتبليغًا لِمَضْمُونِهَا إلى جميع العالَمِين.

❖ وقد زادَهُ تعالى شَرفًا بأنْ وَعدَهُ أنْ يَبْعَثَهُ مَقامًا مَحْمُودًا يومَ القيامة، وأنْ تَكُونَ لَهُ الشَّفَاعَةُ العُظْمَى، وأنَّ الناسَ جَمِيعًا في ذلك اليومِ تَحتَ لِوَائِهِ.

ومِمَّا يَجِبُ الإيْمَانُ بِهِ أيْضًا: ما أُنْزِلَ إلَيْهِ ـ صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُهُ عليه ـ وَهُوَ **القرآنُ الكريمُ**؛ الذي هو الْمُعْجِزَةُ الخالِدَةُ والصراطُ المستقيمُ والْمَنْهَجُ الشَّامِلُ لِكُلِّ ما تَحْتاج إليه الإنسانيَّةُ، وقد مَيَّزه اللهُ سبحانه مِنْ بَيْنِ الكُتُبِ بِبَقَاءِ نَصِّهِ مَحْفُوظًا مِنْ أيدي العابِثِينَ، وَمَصُونًا مِنْ تَحْرِيفِ الْمُبَدِّلِينَ، يَتَحَدَّى الثَّقَلَيْنِ بِشَكْلِهِ وَمَضْمُونِهِ، يَتَجَدَّدُ في كُلِّ حِينٍ إعْجَازُهُ، وَتَتَجَلَّى في كُلِّ عَصْرٍ آياتُه، بِمَا يَبْهَرُ الأَلْبَابَ وَيَسْتَأْصِلُ شُبْهَةَ كُلِّ مُشَاقِقٍ، وَيَأْتِي على تَلْبِيسِ كُلِّ دَجَّالٍ، فِيهِ النُّورُ والشِّفَاءُ والهُدَى والرَّحْمَةُ والنَّجَاةُ والعِصْمَةُ.

أسئلـة:

١. هل يجب الإيمان بالرسل إجمالا أم تفصيلا؟

٢. هل يكفي الإيمان بسيدنا محمد ﷺ إيمانا مُجملا مع سائر المرسلين؟

٣. بماذا تميَّز المرسلون على غيرهم؟

٤. اذكر ثماني خصائص خَصّ الله بها سـيدنا محمدًا ﷺ عن بقية الرسل؟

٥. هل يجب الإيمان بالكتاب المنزّل على سيدنا محمد ﷺ ؟

٦. اذكر بعض ما تميّز به القرآن الكريم؟

الإِيمَانُ بالْمَوْتِ وَالبَعْثِ وَالحِسَاب

١٨. وَقَــدْ أَتَتْ حُجَجُ البُرْهَـانِ نَاطِقَةً
بِالْمَـوْتِ وَالبَعْـثِ وَالْحُسْـبَانِ فَامْتَثِـلا

هَذَا مِمَّا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ؛ وَهُوَ: الْمَوْتُ فَمَا بَعْدَهُ.

فَالْمَوْتُ هُوَ سبيلُ الانتقالِ مِنَ الدنيا إلى الآخِرَةِ، وَمِنَ الفَنَاءِ إلــى الخُلُودِ، وَمِنَ العَمَــلِ إلَى الجَزَاءِ، ولا يُجَادِلُ فيه مُجَــادِلٌ، لأنَّه حَقِيقَةٌ واقِعَةٌ لا يَتَمَارَى فيها اثنان، فَهَــذِهِ الأُمَمُ عَبْرَ القُــرُونِ يَطْوِيها الْمَوْتُ طَــيًّا، وَلَيْسَ فيها مَنْ كان قادِرًا على التَّخَلُّصِ منه أو تأخِيرِ ســاعَتِهِ عندما يَحِينُ حَيْنُه، بَل الناسُ وغيرُهُمْ مِنَ الأَحياءِ في سِبَاقٍ مُسْتَمِرٍّ إِلَيْهِ لِوَرْدِ مَنْهَلِهِ والعَبِّ مِنْ كَأسِــهِ، لا فَرْقَ في ذلــك بَيْنَ قَــوِيٍّ وضَعِيفٍ، ولا بَيْنَ قَاهِرٍ وَمَقْهُورٍ، ولا بَيْنَ غَنِيٍّ وفَقِيرٍ، ولا بَيْنَ عَزِيزٍ وذَلِيلٍ، فَلِذَلِكَ سَــلَّمَ الكُلُّ لَــهُ ولَمْ يُوجَدْ مَنْ يُمَارِي في حقيقتِه أو يُشَــكِّكُ في ثُبُوتِهِ، فالْمُؤْمِنُونَ والكُفَّارُ والبَرَرَةُ والفَجَرَةُ سَوَاءٌ في الإِقْرَارِ بِهِ.

وإِنَّمَا يُجَادِلُ الْمُجَادِلُ ويُشَكِّكُ مَنْ شَكَّكَ فيما يَتْبَعُهُ مِنَ **البَعْثِ والحِسَابِ** وما يَنْتَهِي إِلَيْهِ التَّرْحَالُ مِنَ الثَّوَابِ والعِقَابِ، فَفِي ذَلِكَ يَقَعُ الافتراقُ بين طائِفَتَيِ الإِيْمَانِ والكُفْرِ، فالْمُؤْمِنُونَ كَمَا آمَنُوا بِثُبُوتِ الْمَوْتِ الْمُشَاهَدِ يُؤْمِنُونَ بِثُبُوتِ البَعْثِ الْمُغَيَّبِ وما يَتْبَعُهُ، لِتَسْلِيمِهِمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وتَصْدِيقِهِمْ بِكُلِّ ما أَخْبَرَ بِهِ.

وقَدْ أقامَ اللهُ على العِبَادِ الحُجَّةَ على **ما أَنْكَرُوهُ مِنَ البَعْثِ** مِنْ دَلائِلِ خَلْقِهِ لَهُمْ مِنَ العَدَمِ، وَتَصْوِيرِهِ إِيَّاهُمْ على غَيْرِ سَابِقِ مِثَالٍ، وما آتاهُمْ مِنْ مَوَاهِبِ الحَيَاةِ وأَفَاضَهُ عليهم مِنْ نِعَمِ الْمَدَارِكِ والأَحَاسِيسِ، فَقَدْ قال تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى

ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ - ٧].

وقال تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧ - ٨٣].

وَقَدْ دَلَّت النُّصُوصُ القَاطِعَةُ أَنَّ الإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ **مُحَاسَبٌ عَلَى مَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

أسئلة:

١. هل هناك خلاف بين الناس في وقوع الموت؟

٢. ما هي الأدلة على وقوع البعث؟

٣. هل سيُحاسَب الإنسان على بعض أعماله أم على جميعها؟ أوضح جوابك بالأدلة.

الْمِيزَانُ

١٩. وَمَا هُنَالِكَ مِيزَانٌ يُقَامُ كَمَا
قَالُوا عَمُودٌ وَكِفَّاتٌ لِمَا عُمِلا

٢٠. وَإِنَّمَا الوَزْنُ حَقٌّ مِنْهُ ـ عَزَّ ـ أَلَمْ
تَسْمَعْ إِلى آيَةِ الأَعْرَافِ مُحْتَفِلا

جاءَت الآياتُ القُرْآنيةُ ناصَّةً على أنَّ الناسَ يومَ القيامَةِ متفاوِتُونَ في الْمَآلِ بِحَسَبِ التَّفاوُتِ في الأعمال، فمِنْهُمْ ثَقِيلُ الْمِيزَانِ ومنهم خَفِيفُهُ، قال تعالَى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦ - ١١].

وقد اخْتَلَفَ المسلمون في تأويلِ ذلك؛

❖ فمنهم مَـــنْ ذَهَبَ إلى أنَّ الأعمالَ **تُـــوزَنُ وَزْنًا حقيقيًّا** بِميزَانٍ حقيقيٍّ، فَأَهْلُ البِرِّ تَـــثْقُلُ موازينُهُمْ، وَأَهْلُ الفُجُـــورِ تَخِفُّ موازينُهُمْ، وهو قول **الأَشَاعِرَةِ** ومَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ.

❖ وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أنَّ الْميـــزانَ **كِنَايَةٌ عَنْ فَرْزِ الأَعْمَالِ**، وَتَمْييـــزِ خَيْرِهَا وشَـــرِّهَا، وبَيَـــانِ مَقْبُولِهَا وَمَرْدُودِهَا، فإنَّ اللهَ تعالى هو العليمُ بكل شيْءٍ، ولَمْ يَكُنْ في حاجَةٍ إلى ميزانٍ حقيقـــيٍّ لِبَيَانِ الصَّالِحَاتِ والسَّـــيِّئَاتِ، وإنَّما يَعْرِضُ على عبادِهِ يـــومَ القيامة ما قَدَّمُوا وما أَخَّرُوا، ومـــا أَخْلَصُوا فيه للهِ وما أرادوا به غَيْرَ وَجْهِهِ، فتَقُومُ الحُجَّةُ على الْمُسِـــيءِ بِإِسَاءَتِهِ، ويَنْعَمُ الْمُحْسِـــنُ بنعمـــةِ القَبُولِ مـــن اللهِ، وهو قَوْلُ **أصحابِنَا والْمُعْتَزِلَةِ**.

وحُجَّـةُ هؤلاءِ: أنَّ اللهَ سبحانه أَخْبَرَ عن الوَزْنِ بأنَّه الحَقُّ، وبَيَّن أنَّه القِسْطُ في قولِهِ: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعـراف: ٨]، وقَوْلِـــهِ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ

نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. فقولُهُ: ﴿ ٱلْحَقُّ ﴾ خَبَرٌ عن الوَزْنِ، وقولُهُ: ﴿ ٱلْقِسْطَ ﴾ بَدَلٌ من الْمَوَازِينِ.

وهو دَليلٌ على صِحَّةِ ما ذَهَبُوا إليه، وصَوَابِ ما عَوَّلُوا عليه؛ مِنْ أنَّ الوَزْنَ ليس هو بِمِيزَانٍ مادِّيٍّ، وإنَّما هو مِيزَانٌ مَعْنَوِيٌّ وهو **الحَقُّ والقِسْطُ**، فإنَّ الخَبَرَ هو نَفْسُ الْمُخْبَرِ عنه، والبَدَلَ هو عَيْنُ الْمُبْدَلِ منه، ولذلك نَفَى الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أنْ يكونَ الْمُرَادُ بالْمِيزَانِ مِيزَانًا مَادِّيًا لَهُ عَمُودٌ وكِفَّتَانِ.

ومِمَّا يُقَوِّي ذلك: أنَّ الأعمالَ أعراضٌ ولَيْسَتْ أَجْسَامًا، والأَعْرَاضُ لا تُوزَنُ بِمَعَايِيرَ مَادِّيَّةٍ، ولِهَذَا اخْتَلَفَ القائلون بالمِيزانِ المادِّي؛ فمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إلى أنَّ الأعمالَ تَتَجَسَّدُ فتكونُ أَجْسَامًا، فيكونُ وَزْنُهَا كما تُوزَنُ الأجسامُ. ومنهم مَنْ قال بأنَّ الوَزْنَ إنَّما هو لِذَوِي الأعمالِ، فَيَثْقُلُونَ ويَخِفُّونَ بِقَدَرِ مَا قَدَّمُوا من خَيْرٍ أو شَرٍّ. ولا دَلِيلَ على شَيْءٍ من ذلك، واللهُ أَعْلَمُ.

أسئلـة:

١. اذكر بعض الآيات القرآنية الواردة في الميزان؟

٢. اختلفـت الفِرَق الإسـلامية في مسـألة الميزان إلى رأيين، اذكرهما؟ وبيّن الفِرَق القائلة بهما؟

٣. ما الدليل علـى أنَّ الميزان كناية عـن فرز الأعمال، وليس ميزانًا محسوسًا؟

٤. هل هناك خلاف بين القائلين بالميزان المادي؟

الكلمة الطيبة

الصِّرَاطُ وَالحِسَابُ

٢١. وَلا الصِّــرَاطُ بِجِسْرٍ مِثْلَ مَا زَعَمُوا
وَمَا الحِــــسَابُ بِعَــدٍّ مِثْلَ مَنْ ذَهِلا

يَعْنِي أنَّ الصِّرَاطَ لَيْسَ هو جِسْرًا على مَتْنِ جَهَنَّمَ يَعْــبُرُهُ السَّالِكُونَ ـ كَمَا هُوَ رَأيُ كثيرٍ منَ العُلماء ـ وَإنَّمَا الصراطُ هو دِينُ اللهِ الحَــقُّ الذي تَتَوَقَّفُ نَجَاةُ كُلِّ أَحَدٍ على سُلُوكِهِ بِحِذْقٍ وَحَذَرٍ.

والدليلُ على ذلك أنَّ اللهَ سَمَّاهُ صِراطًا مستقيمًا في قَوْلِهِ تَعْليمًــا لِعِبادِهِ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، وفــي قَوْلِــهِ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعـام: ١٥٣]، وَقَوْلِــهِ: ﴿ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

أمَّا مَا جَاءَ فــي الرِّواياتِ مِنْ أنَّ الصِّرَاطَ جِسْــرٌ على مَتْنِ جَهَنَّمَ يَعْبُرُهُ النَّاسُ، وأنَّه أَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ، وأنَّ النــاسَ يَتَفَاوَتُونَ في عُبُــورِهِ؛ مِنْهُمْ مَــنْ يَعْبُرُهُ

كالبَــرْقِ وَمِنْهُـــمْ كالرِّيحِ ومِنْهُـــمْ كَالفَــارِسِ وَمِنْهُمْ كَالْمَاشِي، وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْوِي بِهِمْ في النَّار؛ فَمَا هُوَ إِلَّا تَمْثِيلٌ لِتَفَاوُتِ النَّاسِ في اتِّبَاعِ الدِّينِ، فَمِنْهُم الحَاذِقُ الْمَاهِرُ الذي لا يُفَرِّطُ في شــيءٍ منه، وَمِنْهُم مَنْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تُرْدِيهِ شَهَوَاتُهُ في جَهَنَّمَ.

ويَدُلُّ علــى أنَّ القَصْــدَ بِذَلِكَ التَّمْثِيــلُ: حَدِيثُ النَّوَّاسِ بنِ سَــمْعَانَ ﵁ عِنْــدَ أَحْمَــدَ والتِّرْمِذِيِّ ـ وَحَسَّنَهُ ـ وَالحَاكِمِ ـ وَصَحَّحَهُ ـ وَالنَّسَائِيِّ وابنِ جَرِيرٍ وابنِ الْمُنْذِرِ وأَبِي الشَّــيْخِ وابنِ مَرْدَوَيْه والبَيْهَقِيِّ في «شُــعَبِ الإِيْمَانِ» أنَّ رَسُــولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِراطًا مســتقيمًا، وعَلى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فيهما أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعَلَى الأَبْوَابِ سُــتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعلَى بَابِ الصِّــرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يا أَيُّها النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّــرَاطَ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُــوا. وَدَاعٍ يَدْعُــو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ الإِنْسَــانُ أَنْ يَفْتَحَ شَــيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْ، فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلِجْهُ. فَالصِّرَاطُ: الإِسلامُ، والسُّــورَانِ: حُدُودُ اللهِ، وَالأَبْوَابُ

الْمُفَتَّحَــةُ: مَحَــارِمُ اللهِ، وَذَلِــكَ الدَّاعِــي عَلَى رَأْسِ الصِّــرَاطِ: كِتَــابُ اللهِ، والدَّاعِي مِنْ فَــوْق: وَاعِظُ اللهِ تَعَالَى في قَلْبِ كُلِّ مُسْــلِمٍ»[1]. وَقَدْ ذَكَرَ الحَافِظُ ابنُ كَثِيرٍ بَعْضَ أَسَــانِيدِ الحَدِيثِ فَقَالَ: وَهُوَ إِسْنَادٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وقَوْلُ الْمُصَنِّفِ: «وَمَا الْحِسَابُ بِعَدٍّ مِثْلَ مَنْ ذَهَلا» يَعْنِي: أَنَّ الحِسَــابَ هُوَ عَرْضُ أَعْمَالِ الإِنْسَــانِ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَبَيَانُ الْمُنْجِي مِنَ الْمُهْلِكِ مِنْهَا، وَلَيْسَ هُوَ بِعَدٍّ كَعَدِّ الْمَخْلُوقِ الذَّاهِلِ.

(١) أخرجه أحمد ١٨٣/٤، والترمذي في كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في مثل الله لعباده (٢٨٦٨)، وابن جرير في التفســير ٧٥/١، والحاكم في كتاب الإيمان، باب: مثل الإســلام وحدود الله (٢٥٣)، وأبو الشــيخ في الأمثال (٢٨٠).

أسئلـة:

١. هل المقصود بالصراط جسر على متن جهنم؟

٢. ما الدليل من القرآن الكريم على أنَّ الصراط هو دين الله الحق؟

٣. كيف وصفت الروايات الصراط بالمعنى المادي؟

٤. ما التأويل الصحيح لتلك الروايات؟ وما الدليل على ذلك؟

٥. ما المراد بقول الناظم: (وما الحســاب بعدٍ مثل مَنْ ذهلا)؟

الجَنَّةُ وَالنَّارُ

٢٢. وَأَنَّــــهُ مَنْ أَطَــــاعَ اللهَ يُدْخِــــلُهُ
جَنَّاتِـــــهِ أَبَـــــدًا لا يَبْــــتَغِي نُــــقُلا

٢٣. وَمَنْ عَصَاهُ فَفِي النِّـيرَانِ مَسْكَـنُهُ
وَلَمْ يَجِـــدْ مَفْـــزَعًا عَنْــــهَا فَيَنْـتَقِلا

يَعْنــــي: أَنَّ النَّاسَ مُتَبَايِــــنٌ مَصِيرُهُمْ يَــــوْمَ القِيَامَةِ بِتَبَايُنِ مَسِيرِهِمْ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَمَنْ وَافَاهُ الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَى صَلاحٍ وَاسْتِقَامَةٍ تَائِبًا مِنْ سَيِّئَاتِهِ حَرِيصًا عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِ فَهُوَ رَضِيٌّ عِنْدَ اللهِ، يَفُوزُ مِنْهُ بِحُسْنِ الجَزَاءِ، وَهُوَ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، يَنْعَــمُ فِيهَا وَلا يَبْــؤُسُ، وَيَخْلُدُ فِيهَا وَلا يَمُوتُ، وَيَبْقَى فِيهَا وَلا يَخْرُجُ.

وَمَنْ وَافَاهُ أَجَلُهُ وَهُوَ مُنْهَمِكٌ في هَوَاهُ مُصِرٌّ عَلَى مَعْصِيَةِ رَبِّهِ فَإِنَّ مُنْقَلَبَهُ ـ وَالعِيَاذُ بِاللهِ ـ إِلى نَارٍ حَامِيَةٍ، شَــدِيدٍ عَذَابُهَا حَمِيمٍ شَــرَابُهَا، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ نَكَالُهَا،

مَنْ دَخَلَهَا خُلِّدَ فِيها وَلَمْ يَمُتْ، وَشَقِيَ بِهَا وَلَمْ يَسْعَدْ، وَأَقَامَ بِهَا وَلَمْ يَخْرُجْ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦، ٢٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ۞ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۞ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۞ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۞ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۞ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٦٩ - ٧٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وَقَوْلُـــــهُ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٦].

إِلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَــاتِ الكَثِيرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أنَّ الجَنَّةَ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِيــنَ، وأنَّ النَّارَ أُعِدَّتْ لِلْمُجْرِمِينَ، وأنَّ كُلًّا مِنْهُمَا دَارُ خُلُودٍ وَبقَاءٍ.

وَالْمُرَادُ بِـ«الْمَفْزَعِ»: الْمَلْجَأُ.

أسئلـة:

١. ما السبب في تباين مصير الناس يوم القيامة؟

٢. ما مصير مَنْ مات على طاعــة الله؟ وما الدليل على ذلك من القرآن الكريم؟

٣. ما مصير مَنْ مات على معصية الله تعالى؟

٤. هل يُخلّد في نار جهنم مَــنْ مات على المعصية ولم يتب منها؟ اذكر بعض الأدلة على ما تقول.

الشَّفَاعَةُ

٢٤. وَمَا الشَّـــفَاعَةُ إلا لِلـــتَّقِيِّ كَـمَا
قَدْ قَالَ رَبُّ العُـــلا فِيهَا وَقَـــدْ فَصَلا

الشَّفَاعَةُ لُغَةً: سَعْيُ ذِي جَاهٍ إلى مَنْ يَرْعَاهُ ويُقَدِّرُه مِنْ أَجْلِ دَفْعِ ضَرَرٍ عن أَحَـــدٍ أو تَحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ لَهُ. مأخُوذَةٌ مِنْ: شَـــفَعَ الفَـــرْدَ؛ إذا جعَلَ لَـــهُ ثَانِيًا، لأنَّ الشَّـــافِعَ بِتَأْيِيدِهِ لِلْمَشْـــفُوعِ لَهُ كَأَنَّهُ يَضُمُّ نَفْسَـــهُ إليه فيكونُ ثانيًا لَهُ.

و**اصْطِلاحًا**: دَرَجَةٌ يَمْنَحُهَا اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ من عِبَادِهِ يومَ القيامة، فيَأْذَنُ لَهُ أنْ يَطْلُبَ لِغَيْرِهِ غُفْرَانَ ذَنْبٍ أو رَفْعَ دَرَجَةٍ أو تَعْجِيلَ دُخُولِ الجَنَّةِ.

وهي لِلنَّبِيِّينَ، وقد تَكُونُ لِغَيْرِهِمْ كالشُّهَدَاءِ، ولكنَّ الشَّفَاعَةَ العامَّةَ هي لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَحْدَهُ، فإنَّه يَشْفَعُ إلى اللهِ في المَوْقِفِ العَظِيـــمِ بأنْ يُعَجِّلَ لِعِبَادِهِ الفَرَجَ فَيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ الجَنَّةَ.

وليسَتِ الشَّـــفَاعَةُ لِمَنْ أَصَرَّ على فُجُورِهِ ومَاتَ على ضَلالِهِ، وإنَّما هي للتَّائِبِ منَ ذَنْبِه ، وهو المُرَادُ بِالتَّقِيِّ فــي كلام المُصَنِّــفِ، والدليــلُ على ذلك ما جاءَ في القرآن مِنْ نَفْيِ الشفاعة في ذلك اليوم أو نَفْيِ نَفْعِهَا، كَقَوْلِــهِ تعالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ ﴾ [البقـرة: ٤٨]، وقولِــهِ: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ ﴾ [البقــرة: ١٢٣]، وقولِـهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقولِهِ في وَصْــفِ مَلائكته: ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ومِــنَ المعلومِ أنَّ اللهَ لا يَرْتَضِي الفاسِقَ الْمُصِرَّ على فُسُوقِهِ.

فَإِنْ قِـيلَ: إنَّ الآيتَيْنِ الأُولَيَيْنِ من هذه الآيات إنَّما هُمَا في بَنــي إسْــرَائيلَ، لأنَّ الخِطَــابَ فيهِمَا لَهُمْ، ولا يَنْفِــي ذلك الشفــاعَةَ عــن غيرهم؛ قُــلْنَا: إنَّ الخِطَابَ وإنْ كان لِبَنِي إسرائيلَ فإنَّ الوَصْفَ إنَّما هو

لِذَلِكَ اليـــوم الذي حُذِّرُوهُ، وهو وَصْفٌ يَسْتَوِي فيه بَنُو إِســرائيلَ وغَيْرُهُمْ من الناس، ويُؤَيِّـــدُهُ أنَّ الآيةَ الثالثةَ خُوطِبَ بِهَا المؤمنونَ تَحْذِيرًا لَهُمْ مِنَ التَّشَبُّثِ بالأَمَانِيِّ والاتِّكَالِ على نَيْلِ الشفاعة.

فَإِنْ قِـــيلَ: إنَّ اللهَ وَعَدَ بِقَبُولِ تَوْبَــةِ التائبينَ مِنْ عِبَادِهِ، فَهُمْ لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إلى شَفَاعَةِ أَحَدٍ؛ **قُــلْنَا:** إنَّ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلَفُ، ولكنْ لا يَعْلَمُ أَحَدٌ أنَّ تَوْبَتَهُ بِعَيْنِهِ مَقْبُولَةٌ أوْ لا، لأنَّ الإنســانَ عُرْضَةٌ لِلْخَطَأ والتَّقْصِيرِ، وإنَّ مِــنْ فَضْلِ اللهِ على عِبَادِهِ أَنْ رَفَــعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، وإنَّما يَأْذَنُ سُــبْحَانَهُ لِمَنْ يَشَــاءُ في ذلك اليوم بالشَّفَاعَةِ لِلتَّائبين فَيَتَقَبَّلُ اللهُ تَوْبَتَهُمْ، وفي ذلك إظهارٌ لِمزيَّةِ هؤلاءِ الشــافِعِينَ وَرِفْعَةِ دَرَجَاتِهِمْ، كما أنَّ في ذلــك بَيَانًا لِفَضْلِ اللهِ علــى التائبينَ بِأَنْ يَتَقَبَّلَ توبتَهم.

وقد حَكَى اللهُ دُعَاءَ حَمَــلَةِ العَـرْشِ ومَنْ حَوْلَهُ حيثُ قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ

شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧-٩]. فهؤلاءِ مع كَوْنِهِمْ تائبين مُتَّبِعِينَ لِسَبِيلِ اللهِ هُمْ بِحَاجَةٍ إلى هذا الدُّعَاءِ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ، وهذا مِنْ جِنْسِ الشَّفَاعَةِ.

فَإِنْ قِيلَ: إنَّ الدعاءَ ليس مُنْحَصِرًا في التائبين لِقَوْلِ الله تعالَى: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الشورى: ٥]؛ قُلْنَا: هذا مُجْمَلٌ بَيَّنَتْهُ تِلْكَ الآياتُ السابقةُ، ومِنَ الْمَعْلُوم أنَّ الْمُجْمَلَ يُرَدُّ إلى الْمُبَيَّنِ، ولو أُخِذَ بِمَا يَقْتَضِيهِ ذلك الإجمالُ ـ حَسْبَ ظَاهِرِهِ بِعُمُوم لَفْظِهِ ـ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ دُعاؤُهُمْ بالْمَغْفِرَةِ شامِلًا لِلْمُشْرِكِينَ والْمَلاحِدَةِ، لأَنَّهُمْ مِمَّنْ في الأَرْضِ، وهو مُعَارِضٌ لقولِهِ تعالَى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

أسئلـة:

١. عرِّف الشفاعة لُغةً واصطلاحًا؟

٢. مَنْ هم الذين يشفعون يوم القيامة؟ وأيُّ هؤلاء يشفع الشفاعة العامة؟

٣. هل تكون الشفاعة لأهل الكبائر؟ بيّن إجابتك بالأدلة.

٤. ما فائـدة الشـفاعة للتائبين مع وعـد الله لهم بقبول توبتهم؟

٥. ذكر القرآن الكريم استغفار الملائكة لِمَن في الأرض، فهل يعني ذلك أنَّ الاستغفار للجميع؟

الوُرُودُ

٢٥. وَالْمُؤْمِنُونَ عَنِ النِّيرَانِ قَدْ بَعُدُوا
وَمَا الوُرُودُ لَهُمْ بَلْ لِلَّذِي انْخَذَلا

قَضَى اللهُ نَجَاةَ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ وَبُعْدَهُمْ عَنْهَا، والْمُرَادُ بِـ «الْمُؤْمِنِينَ»: الأَتْقِيَاءُ الأَوْفِيَاءُ، فَإِنَّهُمْ مَصُونُونَ مِنْ لَفْحِهَا وَمُزَحْزَحُونَ عَنْهَا، إِذْ هُمُ الذين سَبَقَتْ لَهُمُ الحُسْنَى، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ۝ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١- ١٠٣].

أمَّا الوُرُودُ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]؛ فَهُوَ لأَهْلِهَا لا لِلَّذِينَ زُحْزِحُوا عَنْهَا، لأنَّ هَذَا الخِطَابَ إنَّمَا هُوَ لِلَّذِينَ وُصِفُوا مِنْ قَبْلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ

مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ۝ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ۝ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ۝ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا﴾ [مريم: ٦٦-٧٠]، وَقَدْ وُجِّهَ إِلَيْهِمُ الخِطَابُ بَعْدَ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، وَذَلِكَ على سَبِيلِ الالْتِفَاتِ، وَهُوَ مَعْهُودٌ عِنْدَ العَرَبِ، وَقَدْ جَاءَ في القُرْآنِ كَثِيرًا.

فَإِنْ قِيلَ: إنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى بَعْدَ ذلك: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ [مريم: ٧٢]، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الوُرُودَ لِلْكُلِّ، وَإِنَّما يُنَجَّى الْمُتَّقُونَ مِنْهَا بَعْدَ وُرُودِهَا، بِدَلِيلِ عَطْفِ هَذِهِ الجُمْلَةِ بِـ«ثُمَّ» الَّتي تَقْتَضِي الْمَهْلَةَ والتَّرْتِيبَ.

قُلْنَا: مَنْ وَقَعَ في الشَّيْءِ فَهُوَ غَيْرُ مُنَجًّى مِنْهُ، وَإِنَّما التَّنْجِيَةُ قبل الوُقُوعِ، وَ«ثُمَّ» وَإِنْ كانت تَدُلُّ على الْمَهْلَةِ إِلَّا أَنَّ الْمَهْلَةَ هُنَا لَيْسَتْ زَمَنِيَّةً، وَإِنَّما هِيَ رُتْبِيَّةٌ كَمَا هُوَ شَأْنُهَا عِنْدَمَا تُعْطَفُ جُمْلَةٌ على جُمْلَةٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي

﴿ يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾ [البلد: ١٣ - ١٧]، فَإِنَّ الْمَهْلَةَ هُنَا لا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ زَمَنِيَّةً؛ لِضَرُورَةِ كَوْنِ مَنِ اتَّصَفَ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قَبْلَ فَكِّ الرَّقَبَةِ والإِطْعَامِ.

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ [الأعراف: ١١]، مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ لِلْمَلائِكَةِ ﴿ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ﴾ سَابِقٌ عَلَى خَلْقِهِمْ وَتَصْوِيرِهِمْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِي سُورَتَي الحِجْرِ وصٓ: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾

[الحجر: ٢٩، صٓ: ٧٢].

وَمِمَّا يُؤَكِّدُهُ: ما فِي سِيَاقِ هَذِهِ الآيَاتِ نَفْسِهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ﴾، مَعْ أَنَّ عِلْمَهُ بِذَلِكَ أَزَلِيٌّ سَابِقٌ عَلَى كُلِّ مَا ذُكِرَ.

أسئلـة:

١. هل الخطاب في قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ لجميع الناس؟

٢. كيف تردّ على مَن زعم أنَّ المتقين ينجون من النار بعد ورودها؟

٣. يَرِدُ حرف العطف (ثُمّ) لاستعمالات مختلفة، بيّن ذلك بأمثلة من القرآن الكريم؟

الإِيمَانُ بالْمَلائِكَةِ

٢٦. وَأَنَّ للهِ أَمْــلاكًا وَقَــدْ عُصِـمُوا
وَأَنَّ جِنْسَــهُمُ عَـنْ جِنْسِــنَا فُصِــلا

٢٧. فَلا تَصِفْهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِكَ مُطْ *
ــلَقًا سِوَى أَنَّهُمْ خَــلْقٌ قَدِ امْــتَثَلا

مِمَّا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِــهِ: مَلائِكَةُ اللهِ، وَهُمْ مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ، نُؤْمِنُ بِوُجُودِهِمْ وَإِنْ لَمْ نُشَاهِدْهُمْ، وَهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ سَخَّرَهُمُ اللهُ لِطَاعَتِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، فَهُمْ كَمَا وَصَفَهُمْ تَعَالَــى بِقَوْلِهِ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبيــاء: ٢٠]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبيــاء: ٢٧]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريــم: ٦]. وَهُــمْ مُمَيَّزُونَ عَنْ سَــائِرِ الخَلْقِ بِطَبَائِعَ خَاصَّةٍ لا يُشَارِكُهُمْ فيها غَيْرُهُمْ، فَهُمْ لا يَأْكُلُونَ وَلا يَشْــرَبُونَ وَلا يَتْعَبُونَ وَلا يَنَامُونَ، وَلا يُفْــرِزُونَ الفَضَــلاتِ الطَّبِيعِيَّةَ الَّتِي تُفْرِزُهَا الأَجْسَامُ الأُخْرَى.

وَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ خُلِقُوا مِنْ نُورٍ(١)، فَأَجْسَامُهُمْ أَجْسَامٌ لَطِيفَةٌ نُورَانِيَّةٌ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَكَيَّفُونَ فَيَتَمَثَّلُونَ فِي صُوَرٍ كَصُوَرِ الآدَمِيِّينَ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا أَتَى مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]، وَقَوْلُ النبيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ الوَحْيِ: «وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ»(٢)، وَقَوْلُهُ فِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَمْ أَرَهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا إِلَّا مَرَّتَيْنِ؛ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»(٣).

وَالإِيْمَانُ بِهِمْ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ السِّتَّةِ، لأَنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَهُمْ فِيمَا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ إِذْ قَالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الفتن، باب: في أحاديث متفرقة (٢٩٩٦).

(٢) أخرجه الإمام الربيع باب: في ابتداء الوحي (٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: سورة والنجم (٤٨٨٥)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: معنى قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ (١٧٧).

﴿وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وَوَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وَنَصَّ حَدِيثُ جِبْرِيلَ فِي الْإِيْمَانِ عَلَى وُجُوبِ الْإِيْمَانِ بِهِمْ[(١)].

وَبِمَا تَقَدَّمَ يَتَّضِحُ: أَنَّ الْإِيْمَانَ بِهِمْ يَقْتَضِي اعْتِقَادَ أَنَّهُمْ مُبَايِنُونَ لِسَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي نُشَاهِدُهَا فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ، لِذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ لا نَصِفَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِنَا إِلَّا أَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ كَمَا خُلِقْنَا، وَمُتَعَبَّدُونَ بِطَاعَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَا تُعُبِّدْنَا، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُمْ لا يُوصَفُونَ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الأُلُوهِيَّةِ والرُّبُوبِيَّةِ، إِذْ هُمَا مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان (٥٠)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الإيمان والإسلام (٩) من طريق أبي هريرة.

أسئلـة:

١. ما حكم الإيمان بالملائكة؟ اذكــر الدليل على ذلك من القرآن والسنة؟

٢. هل يُعــدّ الملائكة مِــنْ عالــم الغيب أم مِــنْ عالم الشهادة؟

٣. اذكر ما تعرفه مِــنْ أعمال الملائكــة، موضّحًا ذلك بالأدلة؟

٤. بماذا تميّز الملائكة في طبائع خلقتهم؟

٥. مِنْ أيّ شيء خلق الله الملائكة؟

٦. هل يتمثّل الملائكة على صورة بشــر؟ بيِّن إجابتك بالأدلة من القرآن الكريم والسنة المطهّرة.

٧. ما هي الصفات التي لا يصحّ أن يُوصف بها الملائكة؟

الإِيمَانُ بالأَنْبياءِ وَالكُتُبِ

٢٨. وَالأَنْــبِيَا بِهِمُ الإِيْــمَانُ يَلْزَمُنَا
وَمَــا عَلَى كُــلِّهِمْ مِنْ كُــتْبِهِ نَــزَلا

مِنَ الإِيْمَانِ الوَاجِبِ: **الإِيْمَانُ بِجَمِيعِ النَّبِـيِّين** مِنْ غَيْرِ تَفْرِقَـةٍ بَيْنَهُمْ في أَصْـلِ الإِيْمَانِ، قَـال تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقـرة: ٢٨٥]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۞ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١٥٠ـ ١٥٢].

وَمَعْنى ذَلِـكَ: أَنَّ التَّفْرِقَةَ بينَ رَسُـولٍ وآخَرَ في أَصلِ الإِيْمَانِ تَهْدِمُ الإِيـمَانَ مِنْ أَسَاسِهِ، وَتَجْعَلُ مَنِ اتَّصَفَ بِذَلِكَ في عِدَادِ الكافرين حَقًّا الذين تَوَعَّدَهُمْ

اللهُ بِالعَذَابِ الْمُهِينِ، وأنَّ الإِيـمَانَ بِجَمِيعِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَفْرِقَةٍ بَيْنَهُـــمْ يَنْتَظِمُ بِهِ الْمُؤْمِنُ في سِـــلْكِ الْمُؤْمِنِينَ الذين وَعَدَهُمُ اللهُ أَنْ يُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ.

وَهَذَا لا يُنَافِي وُجُـــوبَ **تَعْيِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ** ﷺ مِنْ بَيْنِهِمْ فِي الإِيْمَانِ، مَعَ الاكْتِفَـــاءِ بِالإِيْمَانِ الإِجْمَالِيِّ بِسَـــائِرِهِمْ إِلَّا مَنْ قَامَتِ الحُجَّةُ بِمَعْرِفَتِهِ بِعَيْنِهِ؛ مِمَّنْ نَصَّ عَلَيْهِمُ الكِتَابُ أو عُرِفَتْ نُبُوَّتُهُ وَرِسَالَتُهُ بِالتَّوَاتُرِ القَطْعِيِّ عنِ الْمَعْصُومِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ.

وَكَذَلِكَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُتُبٍ يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ بِطَرِيقِ الإِجْمَالِ، مَا عَـــدَا **القُرْآنَ الكَرِيمَ** الْمُنْزَلَ عَلَى نَبِيِّنَا عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالتَّسْلِيمِ، فإِنَّهُ يَجِبُ تَعْيِينُهُ في الإِيْمَانِ كالإِيْمَانِ بِمَـــنْ نُزِّلَ عَلَيْهِ، وَكَذَا إِنْ قَامَتْ حُجَّةٌ عَلَى أَحَدٍ بِمَعْرِفَـــةِ كِتَابٍ آخَرَ مِنْ كُتُبِ اللهِ فَإِنَّهُ يَتَعَيَّنُ في هَذِهِ الحَالَةِ أَنْ يُعَيِّـــنَهُ في إِيْمَانِهِ، كَمَا سَلَفَ في الإِيْمَانِ بالأَنْبِيَاءِ.

هَذَا وَقَد اخْتَلَفُوا في **التَّفْرِقَةِ بَيْنَ النَّبِيِّ والرَّسُولِ**، فَقِيلَ لا تَفْرِقَةَ بَيْنَهُمَا؛ فَكُلُّ نَبِيٍّ رَسُـــولٌ وَكُلُّ رَسُولٍ

نَبِيٌّ. وَقِيلَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، وَعَلَيْهِ فَالْمَشْهُورُ: أَنَّ النَّبِيَّ أَعَمُّ مِنَ الرَّسُولِ وَالرَّسُولَ أَخَصُّ مِنْهُ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ لا العَكْسُ، ذَلِكَ لأَنَّ **النَّبِيَّ** ـ عِنْدَ هَؤُلاءِ ـ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ سَوَاءً أُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ أَوْ لَمْ يُؤْمَرْ، و**الرَّسُولَ**: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ.

أسئلة:

١. هل يجب الإيمان بالأنبياء إجمالا؟

٢. أوضح الأدلة على وجوب الإيمان بجميع الأنبياء من غير تفرقة؟

٣. ما حكم مَنْ فرّق بين رسول وآخر في الإيمان به؟

٤. مَنِ الأنبياء الذين يجب أن نخصّهم بالإيمان؟

٥. هل يجب الإيمان بالكتب إجمالا؟

٦. ما هي الكتب التي يجب أن نخصّها بالإيمان؟

٧. هل هناك فرق بين النبي والرسول؟

الإِيمَانُ بالقُرْآنِ وَالقَوْلُ في خَلْقِهِ وَخَلْقِ غَيْرِهِ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّينَ

٢٩. وَبِالقُرانِ خُصُوصًا بَعْدَ جُمْلَتِهَا
وَلَيْسَ مِنْهَا قَدِيمٌ يَحْتَوِي الأَزَلا

٣٠. بَلْ كُلُّهَا خَلَقَ البَارِي وَكَوَّنَهُ
فِيمَا يَشَاءُ، فَلا تُصْغُوا لِمَنْ عَذَلا(١)

تَقَدَّمَ وُجوبُ تَمْيِيزِ القُرْآنِ بِتَعْيِينِهِ في الإيْمان مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الكُتُبِ، ذلك لأَنَّنَا مُتَعَبَّدُون باتِّباعِ ما احْتَوَاهُ أمْرًا ونَهْيًا، إذْ هو النَّاسِخُ لِمَا تقَدَّمَهُ، فكان هذا التعيينُ أمْرًا ضَرُورِيًّا لانتِظَامِ حَيَاتِنَا الإِيمانِيَّةِ والعَمَلِيَّةِ حَسْبَمَا تُعُبِّدْنَا، فلا يَسَعُ أَحَدًا جهْلُ **القُرْآن**، وهو: الكتابُ الْمُنْزَلُ على نَبِيِّنَا ﷺ لِلتَّحَدِّي والإِعْجَازِ الْمَنْقُولُ عنه بِالتَّوَاتُرِ القَطْعِيِّ.

(١) العذل هو الملامة، أي لا تصغوا لمن لامكم على القول بحدوث الكتب المنزلة، فإنه لام على حق.

وقولُ المصنِّفِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَيْسَ مِنْهَا قَدِيمٌ يَحْتَوِي الأَزَلَا» فيه تِبْيَانٌ لِمَقُولَةِ الحقِّ في القرآن وما أَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ كُتُبِهِ على أنبيائه ورسله، فإنَّه مِمَّا يَتَجَلَّى لِلأَذْهانِ بَدَاهَةً أنَّ هذه الكُتُبَ كلَّها كائنةٌ بَعْدَ أنْ لَمْ تَكُنْ، فهي حادِثَةٌ، وحُدُوثُها يُؤْذِنُ بِمَخْلُوقِيَّتِهَا، إذْ كُلُّ حَادِثٍ لا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ أَحْدَثَهُ، وإلَّا لَجازَ حُدُوثُ الحَوَادِثِ بِنَفْسِهَا، وذلك عَيْنُ الْمُحَالِ، لأنَّه يَقْضِي بِبُطْلانِ الأُلُوهِيَّةِ.

ومِمَّا لا يُمَارِي فيه ذُو لُبٍّ: أنَّ هذه الكُتُبَ جَميعًا هي مُبَايِنَةٌ لِذَاتِ اللهِ العَلِيَّةِ، فَلَيْسَ مِنَ الْمُسْتَسَاغِ عَقْلًا أنَّها هي عَيْنُ ذاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، ولا أنَّها جُزْءٌ مِنْ ذَاتِهِ، وكَمَا يَسْتَحِيلُ كَوْنُهَا جميعًا كذلك يَسْتَحِيلُ اتِّصافُ بعضِها بِهَذِهِ الصِّفَةِ، وَلَئِنْ ثَبَتَ أنَّها غيرُ ذاتِهِ تعالى تَعَيَّنَ كَوْنُهَا مَخْلُوقَةً لَهُ عَزَّ وَجَلَّ، إذْ كُلُّ ما سِوَاهُ فَقَدْ خَلَقَه، بِمَعْنى أَخْرَجَهُ مِنَ العَدَمِ إلى الوُجُودِ، قال تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٖ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢]. ولا رَيْبَ أنَّ تِلْكُمُ الكُتُبَ مِنْ جُمْلَةِ الأشياءِ، وإلَّا لَمَا كان مَعْنىً لِلإيمَانِ بِهَا.

فَإِنْ قيلَ: إنَّها وإنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذاتِهِ فإنَّها مِنْ صِفَاتِه، وصفاتُ الله أَزَلِيَّةٌ، لأنَّه لَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا في الأَزَلِ لاتَّصَفَ بأضْدَادِهَا؛ **قُلْنا:** لَيْسَتْ هي مِنْ صِفَاتِهِ، وإنَّما هي مِنْ آثارِ صفاتِهِ، إذْ يَسْتَحِيلُ أنْ تَنْفَصِلَ الصِّفَةُ عَمَّنْ هوَ مُتَّصِفٌ بِهَا، وأنْ تَكُونَ حَالَّةً في غيرِهِ، وقد وَصَفَ اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ الذي هو أَهَمُّ هذه الكُتُبِ بأنَّه قائِمٌ بِغَيْرِهِ تَعَالَى مِنْ مَخْلُوقَاتِه، فقد قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وإنَّما قُلْنَا بأنَّها مِنْ آثارِ صِفَاتِهِ، لأنَّها لَمْ تَحْدُثْ إلَّا بِقُدْرَتِهِ تعالى وعِلْمِه، كما أنَّ المخلوقاتِ بأَسْرِهَا إنَّما هي آثارٌ لِهَذِهِ الصفات، فإنَّ اللهَ خَلَقَها وأبْدَعَ خَلْقَهَا بِعِلْمِهِ وقدرتِهِ ومَشيئَتِهِ، ولا يَجُوزُ أنْ يُوصَفَ شيءٌ منها بالأَزَلِيَّةِ والقِدَمِ، أو يُنْفَى عنه كَوْنُهُ مَخْلوقًا للهِ تعالَى.

فإنْ قيلَ: قد وَصَفَ اللهُ القرآنَ بأنه مِنْ كلامِه حيثُ قال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]،

والكلامُ صِفَةٌ أَزَلِيَّةٌ للهِ يُرَادُ بِهَا نَفْيُ الخَرَسِ، كما يُنْفَى بالعلمِ الجهلُ، وبالقُدْرَةِ العَجْزُ، وبالحياةِ الموتُ؛ **قُلْنا**: لِلْكَلام مَعْنَيَانِ:

- **أَحَدُهما**: القُدْرَةُ على القول، كما أنَّ ضِدَّهُ الذي هو الخَرَسُ عَجْزٌ عنه.

- **ثانيهما**: أَثَرُ هذه الصفة، وهو ما يَحْدُثُ مِمَّا يُعَدُّ قَوْلًا، والتخليطُ بينهما كالتخليطِ بين القُدْرَةِ والمَقْدُورِ عليه، والعِلْمِ والمَعْلُومِ، والبَصَرِ والمُبْصَرِ، والسَّمْعِ والمَسْمُوعِ، والفَرْقُ بينهما ضَرُورِيٌّ.

هذا؛ وقد دَلَّت النُّصوصُ الكثيرةُ على **خَلْقِ القُرْآنِ**:

- فإنَّ اللهَ تعالى وَصَفَهُ بأنه **مُحْدَثٌ** في قولِه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢] وقولِه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥]. و**الذِّكْرُ** هنا بِمَعْنى القرآنِ لِدَلالَةِ كثيرٍ من النُّصوصِ عليه، كقوله

تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وقولِهِ: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقولِهِ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقولِهِ: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]. ولا رَيْبَ أنَّ الْمُحْدَثَ يستحيل قِدَمُهُ، لأنَّ الحُدُوثَ والقِدَمَ صِفتَانِ مُتَضَادَّتَانِ، فالْمُحْدَثُ: ما كانَ بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ، ولا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ أَحْدَثَهُ.

▪ ومِنْ تلكَ النُّصوصِ قولُهُ تعالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣] وقولُهُ: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]. فإنَّ **الْجَعْلَ** هُنَا بِمَعْنى التَّصْيِيرِ، وتَصْيِيرُهُ قرآنًا عَرَبِيًّا ونُورًا يُهْتَدَى بِهِ إمَّا أنْ يكونَ: بِخَلْقِهِ مِنْ أَوَّلِ الأمْرِ مُتَّصِفًا بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، أو بِنَقْلِهِ إليهِما من ضدهما، بِحَيْثُ إنَّه لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ عربيًّا فَحَوَّلَهُ اللهُ إلى عَرَبِيٍّ، ولَمْ يكن مِنْ قَبْلُ نُورًا فَحَوَّلَهُ اللهُ إلى نُورٍ، وكِلا الأَمْرَيْنِ دَالٌّ على خَلْقِهِ، فإنَّ مَا حُوِّلَ مِنْ وَصْفٍ إلى آخَرَ يَتَعَذَّرُ أنْ يَكُونَ قَديمًا، على أنَّ الأَوَّلَ هو الْمُتَعَيِّنُ، إذْ

لا دليلَ على أنَّهُ كان غيرَ عربيٍّ فصَيَّرَهُ اللهُ عربيًّا، أو لَمْ يكن مِنْ قَبْلُ نُورًا ثُمَّ صَيَّرَهُ اللهُ كذلك.

▪ ومنها قولُه تعالَى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقولُه: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]. فإنَّ **الإِحْكَامَ والتفصيلَ** كُلٌّ منهما فِعْلٌ للهِ تعالى وَقَعَ به، وذلك يقتضي أنْ يكونَ أبْدَعَه اللهُ تعالى مِنْ أوَّلِ الأمْرِ مُحْكَمًا مُفَصَّلًا، أو أنَّه حَوَّلَهُ إلى الإحكامِ والتفصيلِ بَعْدَ أنْ كانَ مُتَّصِفًا بخِلافِهِمَا، وكِلا الأمْرَيْنِ دَالٌّ على حُدُوثِهِ كما سَبَقَ، والأوَّلُ هو المُتَعَيِّنُ منهما دُونَ الثاني.

▪ ومنها قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧]. ومَوْضِعُ الدَّليلِ فيه: انقِسَامُهُ إلى مُحْكَمٍ ومُتَشَابِهٍ، والانقسامُ لا يكون إلا في الحادِثِ.

فإنْ قيل: اسْتَدَلَّ **بعضُ القائلين بِعَدَمِ خَلْقِهِ** بأنَّ اللهَ تعالى امْتَنَّ علينا في مواضِعَ شَتَّى بأنَّه مُنْزَلٌ

منه، كما في قولِه تعالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣]، وقولِهِ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ [القدر: ١]، وقولِهِ: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقولِهِ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩]، وقولِهِ: ﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، حَتَّى أَنَّ بَعْضَ هؤلاءِ قالَ بِقَطْعِيَّةِ كُفرِ مَنْ قَالَ بِخَلْقِهِ لأَجْلِ هذِهِ النُّصُوصِ.

قُلْنا: إنَّ وَصْفَهُ بالإِنْزَالِ لا يَتَنَافَى مع خَلْقِهِ، بلْ هو دليلٌ على خلقه، لأنَّ الإنزالَ نَقْلٌ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، وهي حالَةٌ لا تكونُ إلّا في المَخْلُوقِ. على أنَّ الذينَ استدَلُّوا بإنزالِهِ على عَدَمِ خلقه ـ حتى قالوا بِكُفْرِ مَنْ قال بخلقه لذلك ـ يَلْزَمُهُمْ القولُ بِعَدَمِ خَلْقِ الماء والحديد وبَهِيمَةِ الأنعام، فإنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ كُلًّا مِنْ ذلك بأنه مُنْزَلٌ، حيث قال: ﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴾ [الفرقان: ٤٨]، وقال: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾ [الأنفال: ١١]، وقال: ﴿ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ ﴾ [الحديد: ٢٥]،

وقال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَقُولُوا في ذلك ؟!

وبِالْجُمْلَةِ فإنَّ أَدِلَّةَ خَلْقِ القُرْآنِ كثيرةٌ، ومَنْ شاءَ الْمَزِيدَ فَلْيَرْجِعْ إلى كِتَابِ «الْحَقِّ الدَّامِغِ»، والحَمْدُ للهِ.

أسئلة:

١. لماذا يجب علينا أن نخصّ القرآن بالإيمان؟
٢. عرّف القرآن الكريم؟
٣. هل الكتب السماوية حادثة أم قديمة؟ بيّن قولك بالدليل.
٤. كيف تردّ على من زعم أنَّ الكتب من صفات الله؟
٥. كم معنى للكلام في صفات الله تعالى؟
٦. اذكر أربعة أدلة من القرآن الكريم على أنّه مخلوق؟
٧. هل وصف القرآن بأنَّه منزل يتنافى مع خلقه؟
٨. أين بسط الشارح مسألة خلق القرآن؟

الإِيمَانُ بالقَضَاءِ وَالقَدَر

٣١. وَبِالقَضَا وَبِمَا الرَّحْمَنُ قَدَّرَهْ
وَأَنَّهُ خَالِقٌ أَفْعَالَنَا حُلَلا

٣٢. لَكِنَّهُ لا بِجَبْرٍ كَانَ مِنْهُ لَنَا
وَعِلْمُهُ سَابِقٌ في كُلِّ مَا جَعَلا

٣٣. وَإِنَّمَا الفِعْلُ مَخْلُوقٌ وَمُكْتَسَبٌ
فَالخَلْقُ للهِ وَالكَسْبُ لِمَنْ فَعَلا

مِمَّا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ: قَضَاءُ اللهِ وَقَدَرُهُ، وَالفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ: **القَضَاءَ** هُوَ إِثْبَاتُ الأَشْيَاءِ في اللَّوْحِ إِجْمَالًا، وَ**القَدَرَ** هُو إِيْجَادُهَا في الْمَوَادِّ تَفْصِيلًا، ذَلِكَ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ مَا يَحْدُثُ في هَذَا الكَوْنِ، وَقَدْ أَثْبَتَ ذَلِكَ في اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَلا بُدَّ مِنْ وُقُوعِ مَا أَثْبَتَهُ، إِذْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَقَعَ شَيْءٌ بِخِلافِ مَا عَلِمَهُ تَعَالَى، كَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الخَالِقُ لِكُلِّ مَا يَجْرِي في هَذَا الكَوْنِ، إِذْ لا خَالِقَ سِوَاهُ.

وَفَرَّقَ **قُطْبُ الأَئِمَّةِ** رَحِمَهُ اللهُ في **الذَّهَبِ الخَالِصِ** بَيْنَ

القَضَـــاءِ وَالقَدَرِ، حَيْثُ عَـــرَّفَ القَدَرَ بِأَنَّـــهُ: خَلْقُ اللهِ الأَجْسَـــامَ وَالأَعْرَاضَ، وَالقَضَاءَ بِأَنَّهُ: إِثْبَاتُ ذَلِكَ في اللَّوْحِ، وَهُوَ يَتَّفِقُ في مُؤَدَّاهُ مَعَ التَّعْرِيفِ السَّابِقِ.

والإِيْمَانُ بِالقَدَرِ نَصَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إِذْ هُوَ سَـــادِسُ أَرْكَانِ الإِيْمَانِ فِيهِ، وَنَـــصَّ عَلَيْهِ حَدِيثُ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ الَّذِي قَـــالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ وَلَنْ تُؤْمِنَ وَتَبْلُـــغَ حَقِيقَةَ الإِيْمَـــانِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَنَّهُ مِنَ اللهِ»[1]. قَالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللهِ؛ كَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ خَيْرَ القَدَرِ وَشَرَّهُ؟ قَالَ: «تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، ومَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، فَإِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ».

وَذَلِكَ كُلُّـــهُ مَدْلُولٌ عَلَيْهِ بِدَلائِلِ القُـــرْآنِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]، وَيَقُولُ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ

(١) أخرجه الإمام الربيع؛ باب: في القدر والحذر والتطير (٧٢).

عِبَادِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وَيقُولُ: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف: ١٧]، وَيقُولُ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وَيقُولُ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وَهَذَا هُوَ الَّذِي تَقْتَضِيهِ أَدِلَّةُ العَقْلِ، فَإِنَّهُ لَوْ نَفَذَ في هَذَا الكَوْنِ غَيْرُ مُرَادِ اللهِ لَكَانَتْ إِرَادَةُ غَيْرِهِ تَعَالَى غَالِبَةً عَلَى إِرَادَتِهِ، وَهُوَ عَيْنُ الْمُحَالِ، وَهَذَا لا يَعْنِي أَنَّهُ لا أَثَرَ لِإِرَادَةِ الإِنْسَانِ في فِعْلِهِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ لَهُ جَانِبُ الكَسْبِ مِنْهُ، وَإِنَّمَا الخَلْقُ للهِ ﷻ، وَلَيْسَ اكْتِسَابُهُ لِمَا يَكْتَسِبُ أَمْرًا اضْطِرَارِيًّا، فَإِنَّمَا يَكْتَسِبُ مَا تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ إِرَادَتُهُ، وَكُلُّ أَحَدٍ يُدْرِكُ الفَرْقَ بَيْنَ مَا يَقَعُ عَلَى الإِنْسَانِ اضْطِرَارِيًّا وَمَا يَحْدُثُ لَهُ اخْتِيَارًا، فَحَرَكَتُهُ الاضْطِرَارِيَّةُ كَالرَّعْشَةِ وَالنَّبْضِ وَغَيْرِهِمَا هِيَ غَيْرُ الحَرَكَةِ الَّتِي تَكُونُ بِتَحْرِيكٍ مَقْصُودٍ مِنَ الإِنْسَانِ،

كَحَرَكَةِ الْمَشْيِ الاخْتِيَارِيِّ وَتَنَاوُلِهِ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، وَدَفْعِهِ مَا يُرِيدُ دَفْعَهُ وَأَخْذِهِ مَا يُرِيدُ أَخْذَهُ.

هَذَا؛ وَقَدْ وَقَفَ النَّاسُ مَوَاقِفَ مُتَبَايِنَةً في أَمْرِ القَدَرِ:

- فَمِنْهُمْ مَنْ **أَفْرَطَ** في إِثْبَاتِهِ؛ وَهُمُ **الْجَهْمِيَّةُ** الَّذِينَ قالوا لا فِعْلَ لِلإنْسَانِ وَلا إِرَادَةَ، وَجَعَلُوا كُلَّ مَا يَصْدُرُ مِنْهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ كَالأُمُورِ الْجِبِلِّيَّةِ الاضْطِرَارِيَّةِ، وَمَثَّلُوا الإِنْسَانَ بِالخَيْطِ الَّذِي تُقَلِّبُهُ الرِّيَاحُ.

- وَمِنْهُمْ مَنْ **فَرَّطَ** في ذلك؛ وَهُمُ **الْمُعْتَزِلَةُ** الذينَ نَفَوْا أَثَرَ الإِرَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ في فِعْلِ العَبْدِ، وَزَعَمُوا أنَّ الإِنْسَانَ مُسْتَقِلٌّ بِإِيْجَادِ فِعْلِهِ اسْتِقْلالًا تَامًّا.

- وَمِنْهُمْ مَنْ **وَقَفَ بينَ المَوْقِفَيْنِ**، وَقَالَ بِأَنَّ لِلإنْسَانِ مِنْ فِعْلِهِ خَيْرًا كان أو شَرًّا جَانِبَ الكَسْبِ دُونَ الخَلْقِ، وَأَنَّهُ على كَسْبِهِ يَتَرَتَّبُ ثَوَابُهُ أو عِقَابُهُ، أَمَّا الخَلْقُ فَاللهُ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَتَنْدَرِجُ في ذلك أفعالُ العِبَادِ، فَإِنَّها مِنْ بَيْنِ الأَشْيَاءِ الدَّاخِلَةِ في عُمُومِ ﴿كُلِّ شَىۡءٍ﴾.

وذلــك لا يُنَافِـــي أنَّ ما يأتِي بِهِ الإنســانُ مُتبَايِنٌ حُكْمُهُ عِنْدَ اللهِ ﷻ؛ مِنْهُ ما يُحِبُّهُ اللهُ وَمِنْهُ مَا يَكْرَهُهُ، فَالْخَيْرُ مَحْبُوبٌ لَهُ تَعَالَى والشَّــرُّ بَغِيضٌ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا اقْتَضَـــتْ حِكْمَتُهُ ﷻ أنْ يَهْدِيَ مَنْ شَــاءَ لِفِعْلِ الخَيْرِ وَأَنْ يَخْذُلَ مَنْ شَاءَ فَيَقَعُ في مَهَاوِي الشَّرِّ.

وَمَنْ أَتَى خيرًا أو شَرًّا فَهُوَ مُخْتَارٌ في فِعْلِهِ، غَيْرُ مُكْرَهٍ على ارْتِكَابِ أيٍّ مِنْهُمَا، وإِنَّما سَبَقَ عِلْمُ اللهِ تعالى ـ وَهُوَ سَــابِقٌ على كُلِّ شَــيْءٍ ـ بِمَا يَخْتَارُ مِنْهُمَــا، فَجَـرَى بِذَلِكَ قَلَــمُ قَضَائِهِ فــي الأَزَلِ، ولا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِــهِ ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِــهِ، فَلِذَلِكَ يُمَكِّنُهُ اللهُ مِنْ فِعْــلِ ما يَخْتَارُهُ عندَمــا تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ إِرَادَتُــهُ، وَيَخْلُقُهُ لَهُ لِيَكْتَسِــبَهُ إِنْ أَرَادَ تَعَالَى وُقُوعَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَقَــدْ لا يُرِيــدُ وُقُوعَهُ فَيَجْعَــلُ لَهُ مِنَ الْمَوَانِعِ مَا يَصْرِفُهُ عنه، وَهُوَ مُشَاهَدٌ فيما يَقَعُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ.

وَهَذَا القَوْلُ هُوَ **الْمَهْيَعُ الْحَقُّ**، وَبِهِ يَجْتَمِعُ شَــمْلُ الأَدِلَّةِ الكَثِيرَةِ الَّتِي قَدْ تَبْدُو دَلالاتُهَا ـ بَادِيَ الرَّأْيِ ـ

مُتَبَايِنَةً، وَقَدْ تَعَلَّقَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ الْمُتَبَايِنَتَيْنِ بِطَرفٍ مِنْهَا مَع إِهْمَالِهِ لِلطَّرَفِ الآخَرِ.

▪ فالَّذِينَ عَزَوْا أفعالَ العَبْدِ إلى اللهِ وَلَمْ يَجْعَلُوا لِلْعَبْدِ فيها كَسْبًا تَشَبَّثُوا بِنَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] وَقَوْلِهِ: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٣، ٤٤]، وَذَلِكَ أَنَّ الضَّحِكَ والبُكَاءَ يَصْدُرَانِ مِنَ العَبْدِ فَهُمَا مِنْ فِعْلِهِ، وَلَكِنَّ اللهَ أَسْنَدَهُمَا إِلَيْهِ عِنْدَمَا بَيَّنَ أَنَّهُ هُوَ يُضْحِكُهُ وَيُبْكِيهِ، كَمَا أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمِيتُهُ وَيُحْيِيهِ، وَلا أَثَرَ لِفِعْلِ العَبْدِ فِي الْمَوْتِ وَالحَيَاةِ، فَكَذَلِكَ لا أَثَرَ لَهُ فِي الضَّحِكِ والبُكَاءِ. وَبِقَوْلِهِ: ﴿لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] وَبِقَوْلِهِ: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] وَقَوْلِهِ فِي الْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

▪ والذينَ نَفَوا القَدَرَ وَجَعَلُوا العَبْدَ مُسْتَقِلًّا في إيْجَادِ فِعْلِهِ تَشَبَّثُوا بالآياتِ الَّتي تَعْزُو الأفعالَ إلى العِبَادِ، وتَنْفِي أنْ يَكُونَ اللهُ أَلْجَأَهُمْ إِلَيْهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وَقَوْلِهِ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥] وَقَالَ في اسْتِحْقَاقِهِمُ العِقَابَ: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩] وَقَوْلِهِ: ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ [الطور: ٢١] وَقَوْلِهِ:

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾

[الحج: ١٠].

▪ أمَّا الذيـــنَ أَثْـــبَتُوا للهِ تَعَالَـــى الْخَلْـــقَ وَلِلْعَبْدِ الْمَخْلُوقِ الكَسْبَ فَإِنَّهُمْ تَعَلَّقُوا بِالنَّظَرِ في هَذِهِ الآيَاتِ جَمِيعًا، فَفَهِمُوا أنَّ ما كان مُسْنَدًا إلى اللهِ فَإِسْنَادُهُ إِلَيْهِ لأَنَّـــهُ خَالِقُهُ وَمُقَـــدِّرُهُ، وَمَا كان مُسْـــنَدًا إلـــى العِبَادِ فَإِسْـنَادُهُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ اكْتِسَابِهِمْ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الكَسْبُ بِإِكْرَاهٍ مِنْهُ تَعَالَى، وَإِنَّمَا اخْتَارَ مَنْ شَاءَ مِنْهُمُ الخَيْرَ وَمَنْ شَاءَ الشَّرَّ، وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ.

وَقَدْ عَلِـمَ اللهُ في الأَزَلِ ما يَكُونُ مِـن اخْتِيَارِ كُلٍّ لِنَفْسِـهِ، وَجَاءَ الخَلْقُ الَّذِي هُوَ مِنْ فِعْـلِ اللهِ مَقْرُونًا باخْتِيَارِ العَبْدِ الْمُكْتَسِـبِ لِيَتَأَتَّى لَهُ الكَسْبُ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، ولا يَعْنِي هَـذَا أنَّ لاخْتِيَارِ الإنْسَانِ أَثَرًا في فِعْلِ اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ ما يُرِيدُ، وَإِنَّما ذَلِكَ عِنْدَمَا يُرِيدُ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ تَنْـفُذَ مَشِيئَةُ العَبْدِ بِكَسْبِهِ الخَيْرَ أو الشَّـرَّ، وَقَدْ تَكُونُ مَشِيئَتُهُ تَعَالَى خِلافَ ذَلِكَ، فَلا يَقَعُ إِلَّا مَا شَـاءَ، وَيَحُولُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ مَشِيئَـتِهِ، فَيَصُدُّهُ عَنِ الشَّرِّ الذي اخْـتَارَهُ، أو يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الخَيْرِ.

وفي ذَلِكَ رَحمَةٌ وَابْتِلاءٌ، إِذْ لَعَلَّهُ عِنْدَمَا يُحالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ما كانَ يَتُوقُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِّ يَؤُوبُ إِلَيْهِ رُشْدُهُ وَيَنْثَنِي عَن اخْتِيَارِهِ السَّابِقِ، وَلَعَلَّهُ إِنِ اخْتَارَ الخَيْرَ وَصَرَفَهُ عَنْ فِعْلِهِ صارِفٌ يَبْقَى مُتَعَلِّقًا بِهِ مُتَحَسِّرًا عَلى فَوَاتِهِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِكَسْبِ مَزِيدٍ مِنَ الْخَيْرِ، وَقَدْ تَكُونُ عَاقِبَةُ ذَلِكَ أَنْ يَنْثَنِي عَنْ قَصْدِ الخَيْرِ مُخْتَارًا بِنَفْسِهِ، فَيَتَرَدَّى وَيَهْلِكَ ـ والعِيَاذُ بِاللهِ ـ، وَفِي كِلا الأَمْرَيْنِ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ تَقْصُرُ دُونَهَا مَدَارِكُ العِبَادِ، وَبِهَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَتَّضِحُ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وَمَا القَدَرُ إِلَّا سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ غَيْبِ اللهِ تَعالَى، فَلِذَلِكَ مُنِعْنَا مِنْ إِغْرَاقِ النَّظَرِ فِيهِ، وَإِنَّما عَلَيْنَا أَنْ نُوْقِنَ أَنَّ اللهَ تَعالَى لا يُؤَاخِذُ عَبْدَهُ إِلَّا بِفِعْلِهِ، فَالعُقُوبَةُ على أَفْعَالِ الشَّرِّ إِنَّمَا هِيَ عَلى اكْتِسَابِ العَبْدِ لَهَا، لا عَلَى خَلْقِهِ تَعالَى إِيَّاهَا، وَمِثْلُ ذَلِكَ ثَوَابُ أَعْمَالِ الخَيْرِ.

وَنُفَاةُ الكَسْبِ يَزْعُمُونَ أنَّ الثَّوَابَ وَالعِقَابَ الْمُتَرَتِّبَيْنِ عَلى أَفْعَالِ العِبَادِ إِنَّمَا هُمَا بِسَبَبِ مَا كَانَ مِنَ اللهِ تَعَالَى مِنْ إِيْجَادِ الخَيْرِ أو ضِدِّهِ عَلى يَدِ العَبْدِ، مِنْ غَيْرِ أنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ في ذَلِكَ كَسْبٌ، وَهُوَ عَيْنُ الْمُحَالِ، فَإِنَّ اللهَ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ وَأَبَرُّ وَأَرْحَمُ مِنْ أَنْ يُجَازِي عَبْدًا عَلَى مَا لا اخْتِيَارَ لَهُ فِيهِ وَلا كَسْبَ.

وَقَوْلُهُمْ هَذَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ بُطْلانُ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالوَعْدِ وَالوَعِيدِ وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الكُتُبِ، مَا دَامَ مَنْ كَانَ مَقْصُودًا بِذَلِكَ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ وَلا كَسْبٌ، وَفِيهِ مَا لا يَخْفَى مِنْ تَعْطِيلِ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى في نِظَامِ الوُجُودِ.

أسئلـة:

١. ما الفرق بين القضاء والقدر؟

٢. بيّن الأدلة من القرآن والسنة والعقل على الإيمان بالقضاء والقدر؟

٣. مَنْ هم الذين أفرطوا في إثبات القدر؟ بيِّن قولهم وأدلتهم في ذلك.

٤. مَنْ هم الذين نفوا القدر؟ وما أدلتهم؟

٥. بيّن القول الحق في مسألة القدر، وكيف جمع أصحابه بين الأدلة؟

٦. كيف نفهم رحمة الله وابتلاءه لعباده في خلق الله سبحانه أفعال عباده واختيارهم لها؟

ذِكْرُ الإيمَانِ وَمَا يَشْتَمِلُ عَليْه

«الإيـمَانُ» لُغَةً: هو التصديقُ، كما قال تعالى حِكَايةً لِمَا قالَهُ أولادُ يعقوبَ لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، فإنَّهم أَرَادُوا به أنَّه غيْرُ مُصَدِّقٍ لَهُمْ. واشتقاقُهُ من الأَمْنِ، فإنَّ الْمُؤْمِنَ ـ أي: الْمُصَدِّق ـ بتصديقِهِ لِمُحَدِّثِهِ جَعَلَهُ في مَأْمَنٍ من تكذيبِهِ إيَّاه.

وهو شَرْعًا: تصديقٌ بالغيبِ الذي جاءتْ بِهِ رسالاتُ الله. وقد جَمَعَ أُصولَ ذلك حديثُ جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذْ جاءَ تفسيرُ الإيْمانِ فيه: «أنْ تُؤْمِنَ باللهِ وملائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ وباليومِ الآخِرِ وبالقَدَرِ خيرِه وشَرِّهِ منَ الله».

على أنَّ هذا التصديقَ المطلوبَ شرعًا بِهَذِهِ الحقائقِ الغَيْبِيَّةِ ليس تصديقًا ذِهْنِيًّا فَحَسْب؛ بِحَيْث لا يكون لَهُ أثَرٌ على أفعالِ الْمُصدِّق، وإنَّما هو تصديقٌ يَتَغَلْغَلُ في أعماقِ النفس، حتى تَتَفَاعَلَ معه

تفاعُلًا تامًّا في القولِ والعَمَلِ والفعلِ والتركِ والأخلاقِ والسُّلوكِ، بِحَيْثُ تَتَجَاوَبُ حياةُ المؤمنِ كلُّها مع إيْمانِهِ تجاوُبًا تامًّا، فَيَتَجَسَّدُ إيْمَانُه في جميعِ أحوالِهِ وجميعِ أقوالِهِ وأعمالِهِ تَجَسُّدًا تامًّا يَتَرَاءى لِلنَّاظِرِين.

وأقوَى شاهدٍ على ذلك وأبلغُ تعبيرٍ عنه ما نَجِدُهُ في كتاب الله مِنْ أوصافِ المؤمنين، فقد قال تعالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢-٤]، فقد حَصَرَ سبحانه الْمُؤْمِنينَ حقًّا في هذا الصِّنْفِ من الناسِ، إذْ جاءَ في أوَّلِ وَصْفِهِمْ بأداةِ الحَصْرِ وهي «إِنَّمَا»، ثُمَّ أكَّدَهُ آخِرًا بتعريفِ الْمُسْنَدِ والْمُسْنَدِ إليهِ وتوسيطِ ضميرِ الفَصْلِ بينهما في قولِهِ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾.

وقال تعالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ

فَٰعِلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-١١].

وقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

وتَضَافَرَت الرواياتُ الكثيرةُ عن النبي ﷺ على تأكيدِ هذا المعنى، فقد ثبَتَ في الصحيحِ عنه ﷺ أنه قال: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيْمَانِ؛ أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أَحبَّ إليهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وأنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا للهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»(١)، وقال ﷺ: «لا يُؤْمِنُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: حلاوة الإيمان (١٦)، ومسلم في كتاب: الإيمان/ باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

أَحَدُكُمْ حتى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ والِدِهِ وَوَلَدِهِ والناسِ أجمعينَ»[(١)]، وفي روايةٍ: «والذي نفسي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتى أكونَ أحَبَّ إليه مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»[(٢)].

وصَحَّ عنه ﷺ أنَّهُ قال: «لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِهِ»[(٣)]، وجاءَ عنه: «واللهِ لا يؤمِنُ، واللهِ لا يؤمِنُ، واللهِ لا يؤمِنُ». قيل: مَنْ يَا رَسُولَ الله ؟ قال: «مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[(٤)].

وبَيَّنَ صلواتُ الله وسلامُه عليه شُمُولَ الإيمَانِ للعقيدةِ والقولِ والأعمالِ والأخلاقِ في قولِهِ: «الإيمانُ بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً، أعلاها كَلِمَةُ لا إله

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب: الإيمان/باب: علامة الإيمان (٥٠٢٨)، وابن ماجه في المقدمة/ باب: في الإيمان (٦٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم في كتاب: الإيمان/باب: الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم (٤٥).

(٤) أخرجه البخاري في باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٢٩).

إلا الله، وأدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأذَى عن الطريقِ، والحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيْمانِ»[1]، فقد دَخَلَ القولُ والاعتقادُ في كَلِمَةِ لا إله إلا الله، فإنَّها كلمةُ الحقِّ التي يُطَالَبُ بِهَا الإنسانُ، وهي أَصْدَقُ ما يُقال، ولا اعتدادَ بِهَا إلا عندما تكون عقيدةً راسخةً في النفس، وَرَمَزَ إلى العمل بذِكْرِ إماطة الأذى عن الطريق، وإِلَى الأخلاقِ بقولِهِ: «والحياءُ شُعْبَةٌ من الإيْمان». والعَدَدُ ليس للحصرِ، فقد جاءَ في روايةٍ «بِضْعٌ وسبعون شعبة»[2]، ومعنى ذلك أنَّ كلَّ برٍّ يندرجُ تحتَ الإيْمان.

ومِنَ الْمَعلومِ أنَّ كلَّ قضيَّةٍ إِيْمانيةٍ ترسخُ في النفس حتى تَتَغَلْغَلَ في أعماقها وتَمْتَزِجَ بِمَشاعِرِها وأحاسِيسِها لا بُدَّ مِنْ أنْ تَتَفَاعَلَ معها النفسُ وتَتَجَاوَبَ حَرَكَاتُها وَفْقَ مُقْتَضَاها.

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: أمور الإيمان (٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب: الإيْمان/ باب: بيان عدد شعب الإيْمان (٣٥).

❖ فالإِيْمانُ باللّٰه

هو إِيْمانٌ بِمَـــنْ خَلَقَ فَســوَّى، وَقَدَّرَ فَهَـدَى، ولَهُ الآخِرَةُ والأولَى، واهِبِ الحيــاةِ ومُفِيضِ النِّعَمِ، القادرِ على كل شيءٍ والعليمِ بكُلِّ أمرٍ، الذي منه الْمَبْدَأُ وإليه الْمُنْقَلَبُ. ورُسُوخُ هذه الحقيقةِ في النفس دافعٌ لَهَا إلى الطاعةِ الْمُطْلَقَةِ لَهُ ﷻ، بِحَيْثُ يَحْرِصُ الْمُؤمِنُ على أنْ لا يَفْقِدَهُ اللّٰهُ حيثُ أَمَرَهُ، وأنْ لا يَجِدَهُ حيثُ نَهَاهُ.

❖ والإِيـمانُ بِمَلائكته

هــو تصديــقٌ بعالَــمٍ غَيْبِــيٍّ أُوتِيَ مــن القُوَى ما لا يَدْخُلُ في حُسْــبَانِ الإنسانِ، ومع قوَّته تلك لَمْ يَحُمْ حولَه الغُرورُ، فهو لا يَفْتَأُ عن ذكر اللّٰه ولا يَنْفَلِتُ عن طاعته ولا يَعْزُبُ عن خشــيته، وإنَّ مِمَّا سُخِّر لَهُ هذا العالَمُ مُراقبةَ الإنســانِ وكَتْبَ أعماله والشــهادةَ عليه بِمَا قَــدَّم وما أخَّرَ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، ورســوخُ هذا الإيْمان يبعثُ على الطاعة ويَقِي من التَّرَدِّي إلى مَهَاوِي العصيان.

❖ والإيمانُ بكُتبه

هو إِيْمـــانٌ بنظـــامِ اللهِ التشـــريعيِّ الـــذي أنزَلَه، والتفاعلُ معه إنَّما هـــو بالاتّباع التامِّ لِهَـــذا الْمُنْزَلِ، والعملِ الْمُطلَـــقِ بِمَا اقتضـــاه من أوامـــرَ ونَوَاهِيَ، والانضباطِ بِحُدودِهِ ومراسِمِه.

❖ والإيمانُ برُسُله

هو الإِيْمـــانُ بصَفْوَتِـــه مِمَّن خَلق، أرســـلهم الله مُبَـــشّرين ومنذِريـــن، واختصَّهم بـــأنْ جَعلهم وعاءً لِهِدايتِه ومَشْـــرِقًا لِنُـــورِه، وميَّزَهم بـــأنْ رفَعهم على غيرهم درجاتٍ، وهذا الإيْمانُ إذا ما امتزجَ بِمَشـــاعرِ النفسِ قادها إلى حُسْـــنِ التأسِّـــي بأولئك الْمُرْسَلين واتّباع هداهم وتَجَنُّبِ ما جَانَبَهُ.

❖ والإيمانُ باليوم الآخِر

هو إِيْمانٌ بالْمُنْقَلَبِ الذي لا مَفَرَّ لأحدٍ منه، وفيه يُجزَى كلُّ أحدٍ بِمَا كَسَـــب؛ ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦] علـــى أنَّ الجَزَاءَ في ذلك

اليومِ مُبايِنٌ لكلِّ ما يكون من جزاءٍ في الدنيا، إذ لا ينقطع خيرُه ولا شَرُّه، وكلٌّ منهما أعظمُ منْ أنْ تَكْتَنِهَه البصائرُ أو يَرْتَسِمَ في ألواحِ الخيال، فلذلك كان منشأً للصلاح والاستقامة وينبوعًا للهداية والفضائل.

ولذلك كثيرًا ما يقترن بالإيْمان بالله في النصوص القرآنية والنبوية في مقام الدعوة أو التحذير، كما في قوله تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، وقولِه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وكما في قولِه ﷺ: «مَنْ كان يؤمن باللهِ واليوم الآخر فلا يُؤْذِ جارَه»(١)، وقولِه: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليَقُلْ خيرًا أو لِيَصْمُتْ»(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب/ باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر (٦٠١٨)، ومسلم في كتاب: الإيْمان/ باب: الْحث على إكرام الْجَار (٤٧).

(٢) أخرجه الإمام الربيع؛ باب: في الضيافة والجوار وما ملكت اليمين واليتيم (٦٨٣).

❖ والإيْمَان بقضاء الله وقدَرِه

ينشأ عنه التسليم لأمرِ الله والرّضا بصروف قضائه.

وبالجُمْلَةِ فإنَّ الإيْمان الْمَطلــوبَ مِنَ الْمَرْءِ ليس أمرًا نظريًّا فحَسْبُ، وإنّما هو عقيدة ينبثق منها منهجٌ ربَانِيٌّ يشمل جميع تصرفات الإنسان فعلًا وتركًا.

٣٤. إِيـمَانُنَا القَـوْلُ وَالتَّصْدِيقُ مَعْ عَمَلٍ
فَالقَـــوْلُ مَرَّ فَصَدِّقْـــهُ وَكُـــنْ عَمِلا

المـــراد بـ«القَـــول الإيْمانِـــيّ» ـ فـــي قـــول الْمُصَنِّفِ ـ: الشهادتان، كما دلَّ عليه حديثُ «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله».

والمراد بـ«التصديق»: هو التصديـــق بِمَضْمونِها جملةً وتفســـيرًا، وقد ســـبق أن الإنســـان إنَّما يُتَعَبَّدُ بالْجُمْلَــةِ أوّلًا، وعندما تقوم عليه الْحُجَّةُ بتفســـيرِها الاعتقاديِّ أو شيءٍ منه يَجِبُ عليه الإتيانُ بِمَا قامت به الحجة عليه، ولا اعتبارَ للقولِ وحدَه، فإنَّ مَنْ جاء

بالقول مِنْ غير تصديقٍ كان منافــقًا نفاقًا اعتقـاديًّا، ومعنى ذلك أنه في باطنه حكمُه حكمُ الْمُشركـين، وإنْ أُجْرِيَتْ عليــه أحكامُ الإسلام بِحَسَبِ ما أتى بـه في الظاهر من القول والعمل.

ومُرَادُهُ بـ «**العَمَل**»: الإتيانُ بالفرائض مع اجتناب الْمَحَارِم، مع الترغيب في الإتيان بالمقدور عليه من المندوبات، وهو الْمُرَادُ بقوله: «**وكنْ عَمِلا**».

٣٥. **بِمَا عَلَيْكَ مِنَ الإِيـمَانِ مُفْـتَرَضٌ**
وَالنَّــفْلَ إِنْ تَسْــتَطِعْ فَافْعَلْهُ مُبْـتَهِلا

أي: متضرِّعًا إلى الله بأن يتقبله منك.

وقولُه: «**فالقولُ مَرَّ**» يعني ما سبق ذكره في الجمل الثلاث.

هذا وقد سبق أنَّ لِجُمْلَةِ التوحيد تفسيرًا عَمَلِـيًّا، كما أنَّ لَها تفسـيرًا اعتقاديًّا، والتفسـيرُ العَمَلي هو العمل الذي يندرج في مضمون الإيْمان الشرعي كما أوضحناه.

فإن قيــلَ: إذا كان الإيْمان يشــمل القولَ والعملَ والاعتقادَ؛ فما الفَـرْقُ بينه وبين الإسلام؟ **قلنا:** هُمَا مُخْتَلِفَانِ من حيثُ الدلالـــةُ اللغويةُ، فإنَّ الإيْمَانَ لُغَةً هو التصديق كما مَرَّ، والإسلامَ لُغَةً بِمَعْـنَى الانقياد، أمَّا من حيثُ الدلالةُ الشــرعيةُ فــإنَّ مُؤَدَّاهُما واحدٌ، ولذلك يُوصَفُ الْمُسْلِمُ بالْمُؤْمِنِ والْمُؤْمِنُ بالمسلمِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

ولكن قــد يُلحَظ فيهمـــا أصلُ معنــى كلِّ واحدٍ منهما، وبِهَذا قد يتباينُ معناهُمَا، كما في قولِه تعالَى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجــرات: ١٤]، فــإنَّ الإيْمَــانَ الحقيقــيَّ هــو الحقيقةُ الباطنةُ للإســلام، والإسلامَ الحقيقيَّ هو الصورةُ الظاهرةُ للإيْمَان، فإنَّ الإيْمَانَ ـ كمــا قلنا ـ عقيدةٌ تســتلزم العملَ الصالِحَ واجتنابَ الْمَحْظُورَاتِ، والإســلامَ هو انقيادٌ وإذعانٌ في الأقوال والأعمال، قائمٌ على عقيدةٍ راســخةٍ في النفس، ولذلك كان الركــنُ الأولُ من أركانه الإتيانَ بالشهادتين.

ونظرًا إلى أنَّ الأصلَ في الإيْمَــانِ هو التصديقُ ـ وهو معنىً باطنٌ ـ وأنَّ الأصلَ في الإسلامِ الانقيادُ ـ وهو فعلٌ ظاهرٌ ـ جاز إطلاقُ الإسلام على ما يبدو من أفعالِ مَن انتسَــبَ إليه ولو لَمْ يكن ذلك مَبْنِيًّا على تِلْكُمُ العقيدةِ المطلوبةِ الراســخةِ، وهذا شأنُ أولئك الأَعرابِ الذين ادَّعَوا الإيْمَانَ فنفاه الله عنهم، وأثبتَ لَهُــم صفةَ الإســلام أي الانقياد الشــكْلِيّ الظاهر، وإلَّا فالإســلامُ الْحَقُّ هو أنْ يُسْــلِمَ العبدُ نفسَــه ظاهرًا وباطنًا لِرَبِّهِ ســبحانه، كما يدلُّ عليه قولُــه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

أسئلـة:

١. عَرِّف الإيمان في اللغة؟ مدلّلًا على ما تقول.

٢. ما معنى الإيمان في المصطلح الشرعي؟

٣. هل يكفي في الإيمان التصديق الذهني من غير عمل الجوارح؟

٤. اذكر ثلاثة أدلـــة من القرآن على اشـــتراط العمل في الإيمان؟

٥. ما الدليل من السنة على أنَّ الإيمان قول وعمل؟

٦. بَيِّن معنى الإيمان بالله تعالى، وأثره في النفس؟

٧. ما معنى الإيمان بالملائكة، وهل لذلك من أثر؟

٨. ما حقيقـــة الإيمان بكتب الله، وكيـــف يكون التفاعل معه؟

٩. بَيِّنْ أثر الإيمان بالرسل في حياة الإنسان؟

١٠. لمـــاذا كان الإيمان باليـــوم الآخر ســـببا للصلاح والاستقامة؟

١١. أين تقدَّم ذكر القول الإيماني في هذا الكتاب؟

١٢. ما حكم من جـاء بالإيمان القولي مـن غير تصديق بقلبه؟

١٣. هل هنـاك فرق بيـن الإسـلام والإيمان فـي اللغة العربية؟

١٤. هـل يختلف معنى الإيمـان عن معنى الإسـلام في الشرع؟ بيّن جوابك بالدليل.

١٥. ما معنى قوله تعالى في الأعراب: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾؟

قَوَاعِدُ الدِّينِ

٣٦. قَوَاعِــدُ الدِّينِ عِلْـمٌ بَعْـدَهُ عَمَلٌ
وَنِـيَّــةٌ وَرَعٌ عَــنْ كُلِّ مَـا حُــظِلا

القَوَاعِـدُ هِيَ الأُسُـسُ والأصولُ، فَقَاعِـدَةُ البِناءِ أَسَاسُهُ الذي يُشَادُ عليه، وقاعدةُ الشَّجَرَةِ جِذْرُها الذي تَبْسُقُ منه.

و**الدِّينُ** هو ما يُدَانُ للهِ به، أي يُنْقَادُ لُه، والْمُرَادُ به هُنَا دِينُ الإسـلامِ، لأنَّه ديـنُ اللهِ الذي اصْطَفَاهُ واخْتَارَهُ لِعِبَادِهِ وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، قال تعالَى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، وقد بيّن تعالى أن كل دين سواه ليس هو من الله في شيء، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد رَضِيَهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ كما رَضِيَهُ لِلأُمَمِ مِنْ قَبْلِهَا، وَأَكْمَلَهُ لَهُمْ وَأَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْهِمْ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

والدِّينُ ـ كَغَيْرِهِ ـ لا يُشَادُ إِلَّا عَلَى قَوَاعِدَ، وَقَدْ بَيَّنَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ قَوَاعِدَهُ أَرْبَعٌ:

❖ أَوَّلُهَا: **العِلْمُ**

والْمُرَادُ به هنا: العِلْمُ الْمُتَعَلِّقُ بالدِّين، سواءً ما تَعَلَّقَ بالاعتقاد أو العملِ أو الأخلاقِ، وسواءً ما يتعلَّقُ بالتَّحَلِّي أو التَّخَلِّي، إِذِ الدِّينُ لا بُدَّ لِمُمَارِسِهِ مِنْ إتقانه، ولا يُمْكِنُهُ إتقانه إلا بالعلم، ولذلك كانت خلافةُ الإنسان في الأرض مَنُوطَةً بِمَا آتاه الله من علم، فَبِهِ شَرَّفَ اللهُ هذا المخلوقَ وأعلى دَرَجَتَهُ، وبَوَّأَهُ مُبَوَّأَ التَّكْرِيمِ في الْمَلأ الأعلى، وأمَرَ الملائكةَ المقرَّبين أنْ يسجدوا له، وقد بيّن اللهُ شَرَفَ العلم في آياتٍ شَتَّى من كتابه العزيز كقولِهِ:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقولِهِ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، ونَعَى على أهل الضلالِ جَهْلَهُمْ بقولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦].

وبيّن نَبِيُّهُ ﷺ أنَّ العِلْمَ المتعلق بالدين هو مَنَاطُ الخير، حيث قال: «مَنْ يُرِدِ اللّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدين»[1]، ودَلَّ الحديثُ على فَرْضِيَّةِ طَلَبِهِ، إذْ قال ـ عليه أفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ ـ: «طَلَبُ العَلْمِ فريضةٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ»[2].

وإنَّما كان العلمُ مِنْ قواعد الدين وَقَدَّمَهُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ على سائر قواعده لأنَّ كُلَّ ما يليه مُنْبَنٍ عليه، فالمسلم لا يدري ما يأتي وما يذر من الأعمال إلا بالعلم، ولا يُتْقِنُ النِّيَّةَ الصالحةَ إلا به.

(١) أخرجه الإمام الربيع باب: في العلم وطلبه وفضله (٢٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب: السنة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٤).

❖ ثانيها: العَمَلُ

والمراد به: العَمَلُ الصالِحُ الْمُوافِقُ لِحُكْمِ الله تعالَى، وإنَّمَا كان العَمَلُ مِنْ قواعد الدِّينِ لأنَّ الدين ليس أمرًا نَظرِيًّا، وإنَّما هو منهجٌ تطبيقي عَمَلِيٌّ، فلا بد للمتديِّنِ من أن يتجاوبَ في تصرفاته وأعماله مع ما يَدِينُ به من الدين، على أن العملَ لو كان بِمَنْأىً عن الدِّين لَمَا كان الدينُ أمرًا واقعيًّا، وإنَّما يَنْحَصِرُ في عالَمِ الْمِثَالِ، وهذا غَيْرُ ما أراده الله تعالَى من عباده، فإنَّ اللهَ ﷻ إنَّما شَرَعَ لعباده الدِّينَ ليُصلحوا به نفوسَهم، ولِتَتَجَسَّدَ به طاعتُهم لربِّهم، وليتقنوا به روابِطَهم فيما بَيْنَهُمْ، ولتكونَ كلُّ جزئيةٍ من جزئيات حياتِهم قائمةً على تعاليمه، مُسَوَّرَةً بأحكامه.

مِنْ أجل ذلك نرى الآيات الكثيرة في القرآن الكريم لا تذكر الإيْمانَ في مقام تبشير أهله بالفلاحِ إلا مقرونًا بالعمل، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩]، وقولِهِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧]، وقولِهِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴾ [مريم: ٩٦]، وقولِهِ: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، وقولِهِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٩]، وقولِهِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٧، ٨].

بَلْ بَيَّنَ سبحانه أنه لا نَجاةَ لأَحدٍ مِنَ الخُسران الذي حَكَمَ به على جِنْسِ الإنسان بالإيْمَانِ وَحْدَه حتى يكونَ معه العَمَلُ الصالِحُ والتَّوَاصِي بالحق والتَّوَاصِي بالصبر، وذلك في قولِهِ: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ

ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

ذلك لأن العمـلَ هو تَجْسـيدٌ لِحَقيقـةِ الإيْمَان وتصديـقٌ لَـهُ ـ كمـا سـبق ذِكْـرُهُ ـ، وإنَّمـا قَدَّمَ الْمُصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليـه العِلْمَ لأنَّ العِلْمَ إِمـامٌ والعَمَلَ تَابِعُه، إذْ لا يُتَصَوَّرُ التمييزُ بين الصالِحَات والسيئات إلا به، مع شُـمُولِهِ لأصلِ العمل وهو الإيْمَان، فإنَّ الإيْمَان الْحَقَّ لا يكـون إلا مَبْنِيًّا على العلم، فإنَّ الله فَرَضَ على عبادِهِ الإيْمَـانَ بِحَقائِقَ لا يَنْبُو العلمُ عن شـيءٍ منها، بل جميعُ دلائِلِهِ تَحُفُّ بِهَـا وتُؤَيِّدُها، وليسـت قضايا الدين التـي يَجِبُ الإيْمـانُ بِهَا في الإسـلامِ خيالاتٍ وأوهامًا؛ كما هو الشأنُ في غيْرِهِ، بل هِيَ حَقائِقُ تَشْهَدُ لَهَا العُقُولُ وتَدْعَمُها النُّقُولُ.

❖ ثالثُها: النِّـيَّة

وهي إخلاصُ العمل لله وحدَه، وهي رُوحُ العمل، إذْ لا قيمـةَ لَـهُ بِدُونِها، قال تعالـى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَن كَانَ

يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾

[الكهف: ١١٠].

ورَوَى الربيعُ عن أبِي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال: «الأعمالُ بالنِّـــيَّات ولِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى»(١)، وَرَوَاهُ الشَّيْخَانِ وغيرُهُمَا من طريق عُمَرَ رضي الله عنه بِلَفْظِ: «إِنَّمـــا الأعمالُ بالنيات وإنَّمَا لــكل امرئٍ ما نــوى، فَمَنْ كانـــت هِجْرَتُـــهُ إلى اللهِ ورَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ، وَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إِلَــى دُنْيَا يُصِيبُهَـــا أو امْـــرَأةٍ يَتَزَوَّجُهَـــا فَهِجْرَتُهُ إِلَى ما هاجَرَ إليه»(٢).

وكَوْنُ الأعمالِ بالنِّـــيَّاتِ إنما هو دَلِيلٌ على أنَّ العملَ لا قيمةَ لَهُ بِدُونِهَا، فقد يأتِي الإنسانُ العَمَلَ مســتقيمًا تامًّا ليس به اعْوِجَــاجٌ ولا خَلَلٌ، ولكنه

(١) أخرجه الإمام الربيع، باب: في النية (٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء أن الأعمال بالنية (٥٤)، ومســلم في كتاب: الإمارة، باب: قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية (١٩٠٧).

يَكُونُ وَبَاءً عليه ووَبَالًا، لأنَّه مِمَّا يَتَقَرَّبُ به إلى اللهِ وهو لَـــمْ يَقْصِدْ به وَجْهَـــه تعالَـــى، كأَنْ يُصلّيَ أو يتصـــدّقَ أو يَحُـــجَّ أو يُجَاهِدَ؛ لا لامْتِثَـــالِ أمْرِ اللهِ ولكن مُرَاءَاةً للنَّـــاسِ، لِيَنَالَ بَيْنَهُمْ شُـــهْرَةَ الصَّلاحِ والتقوى، فإنَّ هذا تَقَـــرُّبٌ إِلَى النَّاسِ بِمَا يُتَقَرَّبُ به إِلَى اللهِ، ولذلك عُدَّ مِنَ الإِشْـــرَاكِ، كمـــا في قولِهِ تعالَـــى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وبِمَا أنَّ النِّـيَّةَ الْمَطلوبَةَ شرعًا هِيَ إخْلاصُ العَمَلِ للهِ وَحْدَهُ؛ فإنَّها سِـرٌّ بَيْنَ العبدِ وربِّهِ، وليســـتْ قولًا باللِّســـانِ ـ كما هـــو تَصَـــوُّرُ عَوَامِّ النـــاس ـ، حتى أصبَحَـــتِ النيةُ عندَهـــم لا يُعْتَدُّ بِهَا ما لَـــمْ يأتِ بِهَا صاحِبُها نُطْقًا، وَلَرُبَّما كان هذا النُّطْـــقُ مُجَرَّدَ تَمْتَمَةٍ باللِّســـانِ مِنْ غيرِ اســـتحضارٍ لِمَعَانيهـــا، وهذا يعني فُقْدَانَ النية رأسًا، إِذِ النيةُ لُغَةً وشرعًا لا تعني النُّطْقَ، وإِنَّما هي حقيقةُ القَصْـــدِ بالقَلْبِ، فَمَنْ قَصَدَ بالعمل شيئًا فَقَدْ نَوَاهُ حَسْبَ قَصْدِهِ ذلك.

ولَمْ تكُنْ هذه الكلماتُ الْمُعَبِّرَةُ عن النِّيَّةِ مَعْهُودةً زَمَنَ النبي ﷺ ولا زَمَنَ الرَّعيلِ الأوَّلِ ـ وَهُمُ الصحابة والتابعون ـ، وإِنَّما أَحْدَثها مَنْ أحْدَثَهَا مِنْ بَعْدُ تَعليمًا للعَوَامِّ كيف يَنْوُونَ، وذلك عندما فَشَا الجهلُ في الناسِ فاحتاجوا إِلَى تَبصيرٍ بِمَا يَنْوُونَ، ولا قائِلَ بأنَّها وَحْدَها تكفي عن القَصْدِ، ولَكِنْ لِفُشُوِّ الجهلِ وتَبَلُّدِ الأذهانِ أصبحتْ في الناس هي النيةَ الْمَطْلوبَةَ، وأصبحتْ غايةً لا وسيلةً، فقد ضاع الْمَقْصِدُ لاشتغالِ الناس بالوسيلة دُونَه، واللهُ الْمُستَعان. وهذا مِمَّا يَدْعُو إلى ضَرُورَةِ تبصيرِ النَّاس بالْهُدَى وتعريفِهم بِحَقِيقةِ النية، ودعوتِهِمْ إِلَى أنْ يَكْتَفُوا باستحضارِها في أذهانِهِمْ عندما يَقُومُونَ إلى العباداتِ دُونَ تَرْجَمَتِهَا إِلَى أقْوَالٍ تُرَدَّدُ بِاللِّسَانِ.

❖ رابعُها: **الوَرَع**

وأَقَلُّهُ اجتنابُ مَحَارِمِ الله جَمِيعًا، ولذلك قال الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَرَعٌ عَنْ كُلِّ مَا حُظِلا**» أي: مُنِعَ،

فَحَقِيقَةُ الوَرَعِ هي التَّقْوَى، ولذلــك تَفَاوَتَتْ مَرَاتِبُ الناس فيه:

- فالْمَرْتَبَةُ الأولى هي مَرْتَبَــةُ العُدُولِ، وهي تَرْكُ الْمَحَارِمِ بِأَسْرِهَا مع فِعْلِ الفَرَائِضِ كُلِّهَا.

- والْمَرْتَبَةُ الثانيةُ هي مرتبة الصَّالِحِينَ، وهي تَرْكُ ما لا حَرَجَ فيه مَخَافَةَ الوُقُوعِ فيمــا فيه الحَرَجُ، هذا مع فعل الفرائض والحرص على النوافل.

- والْمَرْتَبَةُ الثالثةُ مَرْتَبَةُ الصِّدِّيقِينَ، ولا تَتَحَقَّقُ إلا بِتَرْكِ كثيرٍ مِمَّا لا حَرَجَ فيه، ولَوْ مع عَدَمِ الخَوْفِ مِنَ الوُقُوعِ فيما فيه الحَرَجُ، مع الْمُسَارَعَةِ إِلَى كُلِّ مَقْدُورٍ عليه من أعمال البِرِّ. وهي أَرْفَعُ الْمَرَاتِبِ.

أسئلـة:

١. بيّن معنى القواعد في اللغة؟

٢. تحدَّث بتفصيل عن الدين في الاصطلاح الشرعي؟

٣. لماذا كان العلم أول قواعد الدين؟ وما المراد به هنا؟

٤. اذكـر الأدلة مـن القرآن والسـنة على فضـل العلم المتعلق بالدين؟

٥. لماذا كان العمل من قواعد الدين؟

٦. اذكر بعض الآيات التي تقرن الإيمـان بالعمل؟ وما دلالة ذلك؟

٧. بيّـن الحاجة إلـى العلم فـي الجانبيـن الاعتقادي والعملي؟

٨. ما هي الأدلة على وجوب إخلاص النية في العمل؟

٩. بيّن حقيقة النية لُغة وشرعا؟ وما هو الخطأ الذي يقع فيه الناس في هذا الأمر؟

١٠. ما حقيقة الورع؟ وما أقلّه؟

١١. عدّد مراتب الورع، مُبيّنًا أعلاها وأدناها؟

أَرْكَانُ الـدِّيـنِ

٣٧. ارْضَ وَفَوِّضْ وَسَلِّمْ وَاتَّكِلْ فَبِذَا
تَحُــوزُ أَرْكَانَــهُ اللاتي بِهَا كَــمُلا

الأَرْكَانُ جَمْعُ رُكْنٍ، وَهُوَ الدِّعَامَةُ، وَهِيَ أَقْوَى مَا فِي البِنَاءِ.

وَفِي هَذَا تَشْبِيهٌ لِلدِّينِ بِبِنَاءٍ لَهُ دَعَائِمُ مَتِينَةٌ، وَإِنَّمَا عُدَّتْ هَــذِهِ أَرْكَانَ الدِّينِ لأَنَّهَا الجَانِــبُ القَوِيُّ مِنْهُ، فَمَنِ اسْــتَجْمَعَهَا فَقَدْ حَــازَ الدِّينَ بِحَذَافِيــرِهِ، لأَنَّها لا تَجْتَمِعُ إِلَّا فِي نَفْسِ مَنْ أَخْلَصَ للهِ تَعَالَى عُبُودِيَّتَهُ، وَتَجَرَّدَ مِنْ هَوَى نَفْسِهِ وَتَحَكَّمَ فِي وَسَاوِسِهَا.

وَأَرْكَانُ الدِّينِ هِــيَ: الرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ، وَتَسْــلِيمُ الأَمْرِ إِلَيْهِ، وَتَفْوِيضُ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ.

❖ **فَالرِّضَا بِقَضَائِهِ** هُوَ قَبُولُ كُلِّ مَا يَأْتِي مِنْ لَدُنْهُ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ، أَوْ سَــرَّاءَ أَوْ ضَرَّاءَ، بِحَيْثُ لا تَجِدُ النَّفْسُ حَرَجًا قَــطُّ وَهِيَ تَسْــتَجِيبُ لِدَاعِي اللهِ بِفِعْلِ

مَا أَمَرَ وَتَرْكِ مَا نَهَى، وَتَتَفَاعَلُ مَعَ سُنَنِ الحَيَاةِ، مُوقِنَةً أَنَّ كُلَّ مَا أَصَابَهَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَمِنَ اللهِ وَحْدَهُ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى الاتِّزَانِ وَالثَّبَاتِ أَمَامَ تَحَدِّيَاتِ الدَّهْرِ وَصُرُوفِ الزَّمَنِ، فَلا تَجْزَعُ لِضَرَّاءَ وَلا تَسْتَفِزُّهَا النَّعْمَاءُ.

❖ وَ**التَّسْلِيمُ** هُوَ الانْقِيَادُ وَالإِذْعَانُ لَهُ تَعَالَى، مَعَ الخُضُوعِ وَعَدَمِ الاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ.

❖ وَ**التَّفْوِيضُ** هُوَ الرِّضَا بِخِيَرَةِ اللهِ تَعَالَى لَهُ، لأَنَّهُ العَالِمُ بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ.

❖ وَ**التَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ** هُوَ الثِّقَةُ بِهِ ﷻ وَبِمَا عِنْدَهُ، وَعَدَمُ الاعْتِمَادِ عَلَى مَا عِنْدَ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. وَلا يَعْنِي ذَلِكَ إِهْمَالَ الأَسْبَابِ وَعَدَمَ الأَخْذِ بِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ التَّوَكُّلِ فِي شَيْءٍ، وَإِنَّمَا هُوَ عَجْزٌ وَجَهْلٌ، فَإِنَّ اللهَ ﷻ نَاطَ الأُمُورَ بِأَسْبَابِهَا، وَأَمَرَ بِالسَّعْيِ فِي الأَرْضِ وَالابْتِغَاءِ مِنْ فَضْلِهِ، وَهُوَ مِنَ الأَخْذِ بِالأَسْبَابِ، كَمَا أَمَرَ فِي الحُرُوبِ بِأَخْذِ الحَذَرِ مِنَ

العَدُوِّ وَإِعْدَادِ العُدَّةِ وَعَـدَمِ التَّفَرُّقِ وَالاخْتِلافِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مَعَ ثِقَتِهِ بِاللهِ سُـبْحَانَهُ فَقَـدْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ حَـقَّ تَوَكُّلِهِ. عَلَـى أَنَّ الْمُؤْمِنَ لا تُنْسِـيهِ الأَسْـبَابُ مُسَـبِّبَهَا، فَهُوَ يَلْحَظُ عِنْدَمَا يَأْخُذُ بِأَيِّ سَـبَبٍ قُدْرَتَهُ تَعَالَـى، وَيُحِسُّ بِعَظِيمِ فَضْلِهِ عَلَيْـهِ، إِذْ هَيَّأَ لَهُ تِلْكُمُ الأَسْبَابَ وَمَكَّنَهُ مِنْ مُمَارَسَتِهَا.

هَذَا وَقَدْ تَسَاءَلَ بَعْضُ طَلَبَةِ العِلْمِ عَنِ **الفَرْقِ بَيْنَ القَوَاعِدِ وَالأَرْكَانِ،** فَأَجَبْـتُهُ بِأَنَّ القَوَاعِدَ هِيَ الأُسُسُ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَـا البِنَاءُ، وَالأَرْكَانَ هِـيَ العُمُدُ الَّتِي يَشْـتَدُّ بِهَا، وَبِهَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ الأَرْكَانَ نَفْسَهَا هِيَ بِحَاجَةٍ إِلَى القَوَاعِدِ؛ إِذْ لا تَقُومُ إِلَّا عَلَيْهَا.

أسئلـة:

١. ما معنى الركن في اللغة؟

٢. للدين أربعة أركان، اذكرها؟

٣. بيّن لماذا عُدّت هذه الأربعة أركانا للدين؟

٤. اشرح الأركان الأربعة شرحا موجزا؟

٥. هل إهمال الأسباب من التوكل على الله؟ اشرح ذلك بالمثال.

٦. ما الفرق بين القواعد والأركان؟

مَسَالِكُ الدِّيـنِ

٣٨. ثُمَّ الظُّهُورُ وَدَفْعٌ وَالشِّـرَاءُ مَعَ الْـ * ـكِتْمَـــانِ طُرْقٌ لَهُ، أَكْرِمْ بِهَـا سُـبُـلا

الْمَسَالِكُ جَمْعُ مَسْـــلَكٍ؛ وهو الطَّرِيقُ، وإنَّما عَبَّرَ عن هـــذه الحالات بالْمَســـالك لأنَّها طُرُقٌ يســـلكها المسلمون ـ حَسْبَ مُلاءَمَةِ الظروف وتَهَيُّؤِ الأَسْبَابِ ـ إِلَى ما يبغونه من الحق والرشد وإقامة نظام الدين.

وهذا لأن الْمُسْـــلِمَ لا يُكْتَفَى منه بإصلاح نفســـه، وإنَّما هو مسؤولٌ عن إصلاح مُجْتمعه وأُمّـــته، وبِهذا ينتظم شَمْلُ المسلمين وتَمْتَدُّ بينهم أواصِرُ الوَلاية، قال تعالَـــى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١].

ولا بُدَّ مـــن مراعـــاة تفـــاوت الأحـــوال وتباين الظروف، وما ينشأ عن ذلك من اختلافِ الْمُلاءَمَاتِ للقيام بِهَـــذا الواجب، فمـــا يَجِبُ إِبَّـــانَ القوة ليس

كالذي يَجِبُ فِي فترات الضعف، ومن الْمَعلوم أنَّ الإسلامَ دِينٌ ونِظَامٌ، ولذلك يُبَوِّئُ كُلَّ أمْرٍ مُبَوَّأَهُ، ويُعطي كلَّ شيءٍ ما يلائمه من الأحكام، وقد بُعِثَ النبيُّ ﷺ جَامعًا للشَّتَاتِ ومُوَحِّدًا للصَّفِّ، ولكنه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ لَمْ يكن شأنُهُ وشأنُ أصحابِه في مَكَّةَ وهُمْ يُواجِهُونَ عَنَتَ الكُفْرِ وكِبْرِياءَ الجاهلية كما كان شأنُه وشأنُهم بَعْدَ الْهِجْرَة إِلَى المدينة المنوَّرة، حيث نَبَتَتْ أوَّلُ دولةٍ للإسلام في عهده عليه الصلاة والسلام وأَخَذَتْ تَبْسُقُ دَوْحَتُهَا وتَمْتَدُّ فُروعُها، لِتُظِلَّ بِظِلِّهَا الوَارِفِ الظَّلِيلِ كُلَّ مؤمنٍ، وَلِتُؤْوِي إِلَى رِحَابِهَا الآمِنَةِ كُلَّ مُسْتَضْعَفٍ.

ولا ريبَ أنَّ ما أسَّسه وبناه ﷺ من نظامٍ دينيٍّ ليس نظامًا وَقْتِيًّا، بل هو شامل لكل الأطوار والعُصور إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ وَمَنْ عليها، رَغْمَ أنَّ عَوَادِيَ الزَّمَنِ وصُروفَ الدهر متقلِّبةٌ بين مُلائِمَةٍ ومُعَاكِسَةٍ، فإنَّ رياحَ الأحداث منها الصَّبَا الْمُنْعِشُ، ومِنْهَا الدَّبُورُ الْمُدَمِّرُ، ومع ذلك فإن عُصْبَةَ الْحَقِّ مُطالَبون دائمًا بأنْ يُحَافِظوا على ما عندَهم من الحق،

وأنْ يُطَبِّقُوا نظامَه وَفْــقَ مُقتضيات الظروف، فلذلك شُــرِعَتْ لَهُمْ هذه الْمَسَــالِكُ لئلَّا يُفَرِّطُــوا في نظام الدين، وهي أربعة:

❖ أوَّلُها: **الظُّـهُور**

وهو ـ كاسْــمِهِ ـ يُنْبِئُ عن القوة واجتماعِ شَــمْل الأمَّةِ وانتظام أمرِها وعلوِّ كلمة الحق، وتَمَكُّن عُصْبَتِهِ من قيادة سفينة الأمَّة وَفْقَ نظام دينها.

وهــذا الــذي كان مِــنْ بعــدِهِ ﷺ عندمــا بايَعَ الْمُهَاجِــرُون والأنصــارُ والذيــن اتبعوهم بإحســانٍ الْخُلفاءَ الراشــدين، فإنَّ بَيْعَةَ كل واحد منهم كانَتْ وَفْقَ هذا النظام، وإنَّما دَأَبَ أصحابنا ـ رَحِمَهُم الله ـ على التمثيلِ لِهَذا الْمَسْــلَكِ بِمَا كان عليه حالُ الأمة في عهد **الخَلِيفَتَيْنِ الرَّاشِدَيْنِ أَبِي بكرٍ وعُمَرَ** رضي الله عنهما لأنَّ الأمة في عصرِهِما كانت في عافيةٍ من الفتنة ومأمَنٍ من الشِّــقاق والْخِلاف، وإنَّمَا بــدأتْ بعدَهُما تَهُبُّ عليها أعاصيــرُ الفِتَــنِ لِتُضْرِمَ نارَهــا، فحصل بينها ما حصل من الشقاق والاختلاف.

هذا؛ وبِمَا أنَّ هذا الْمَسْــلَكَ هو أعلى الْمَسَــالِكِ وأجَلُّها ـ إذ هو أصفاهــا مَوْرِدًا وأطْيَبُهــا ثَمَرًا ـ لَمْ تَتَوانَ هِمَمُ أهلِ الحق والاستقامةِ ـ في حالِ ما تكون الفُرَصُ مُوَاتِيَةً ـ عن الأخْذِ بنظامِه والاعتصام بِحَبْلِه، كما كان ذلك **بأرْضِ اليَمَنِ** عندما بايَعُوا طالِبَ الْحَقِّ عبدَالله بنَ يَحْيى الكنديَّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، و**بالقُطْرِ العُمَانِيِّ** مُنْذُ مبايَعَةِ الْجُلَنْدَى بنِ مســعودٍ ثُمَّ الأئمَّــةِ العُدُولِ مِنْ بعدِه ـ رحمهم الله تعالَى ـ، وكذلــك **بِبِلادِ الْمَغْرِبِ** منذ بَيْعَةِ الإمام أبِي الْخَطَّابِ الْمَعَافِرِيِّ، ثُمَّ اســتمرَّ هذا النظــامُ في عُهودِ الأئمَّةِ الرُّسْــتُمِيِّينَ مِــنْ بَعْدِهِ ـ رَحِمَ اللهُ الجميعَ ـ. وإلَى ذلك يُشِيرُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ في جَوْهَرِه حيث قال:

وَلِلْعُمَانِيِّــيــنَ وَالْمَغَــارِبَـــــهْ
وَحَـضْـرَمَـوْتَ أُمَــرَاءُ غَالِبَهْ

يُـشَـابِـهُـونَ الـعُـمَـرَيْـنِ عَـدْلا
وَوَرَعًــــا وَثِــقَـــةً وَفَـضْـلا

مَضَوْا عَلَى نَهْجِ الصَّــوَابِ فَلَهُمْ
حُسْــنُ الثَّنَا مَعَ الرِّضَا مِنْ رَبِّهِمْ

ومِيزَةُ هذا الْمَسْلَكِ أنَّ نظامَ الدِّينِ فيه يُطَبَّقُ على الأُمَّةِ بغير استثناءٍ، فتُقامُ فيه حُدودُ الله ويُؤْمَرُ فيه بالْمَعْروف ويُنْهَى فيه عن الْمُنْكَرِ، ويُنْصَرُ فيه الْمَظْلُومُ ويُغَاثُ فيه الْمَلْهُوفُ، ويُقْبَضُ فيه على يَدِ الظَّالِمِ، ويُؤْطَرُ فيه على الحَقِّ أَطْرًا، كما تُصَانُ فِيهِ أَرْضُ الإسلامِ وتُحْمَى فيه بَيْضَتُهُ.

❖ ثَانِيهَا: **الشِّرَاءُ**

وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]، فَالشُّرَاةُ بَاعُوا نُفُوسَهُمْ لله يَبْتَغُونَ رِضْوَانَهُ ﷻ.

وَالشِّرَاءُ إِنَّمَا يَكُونُ في حَالِ عَدَمِ ظُهُورِ كَلِمَةِ أَهْلِ الحَقِّ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ العَدُوُّ مُتَسَلِّطًا عَلَيْهِمْ، يُنْزِلُ بِهِمُ الْمَصَائِبَ وَيَسْعَى إِلَى صَدِّهِمْ عَنِ الهُدَى، وَلا يُبَالِي بِانتهاك الحُرَمِ وإضاعة الحقوق ونَهْبِ الأموال، فَتَنْبَرِي طائفةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِين لِمُحَاوَلَةِ الْحَدِّ مِنْ هذا الفساد، لإِقْلاقِ العَدُوِّ ومُحَاوَلَةِ مُبَاغَتَتِهِ تأديبًا له على تصرُّفاته.

وذلك كما وَقَعَ في عهد بني أُمَيَّـةَ عندما وَلِيَ لَهُمْ زِيادُ بن أَبِيهِ، فأَخَـذَ يَتَتَبَّعُ أهلَ الْحَقِّ تقتيلًا وتشـريدًا وتَمْـثيلًا، ولَمْ تَسْلَمِ النساءُ مِنْ بَطْشِهِ، فقد أخَذَ البَلْجَاءَ بِنَكِيرِ ظُلْمِهِ، وشَفَى غَلِيلَ نَفْسِهِ بِقَتْلِهَا وتَمْثِيلِها وتَعْرِيَتِهَا مِنْ ثيابِهَا، وكانت ـ رَحِمَهـا اللهُ ـ مثالًا لِرَباطَةِ الْجَأْشِ وصَلابَـةِ الْمَوْقِفِ أمـامَ طُغيانه وحِقْـدِهِ، حتى مَضَتْ شـهيدةً إلى رِضْوَانِ اللهِ، فانْبَرَى أهلُ الغَيْرَةِ والشَّـهامة والنَّجْـدَةِ والْمُـروءَةِ وبايعوا **أبَـا بِـلالٍ الْمِرْدَاسَ بن حُدَيْرٍ** رَحِمَهُ اللهُ، فَخَرَجَ بِهِمْ آبِيًا أَنْ يَسْتَعْرِضَ الناسَ بالسَّيْفِ إِلَّا مَنْ قاتَلَه، وكانوا شَـوْكَةً في جَنْبِ العدو، فَهَزَمُوا ـ وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلًا ـ أَلْفَيْ مُقَاتِلٍ بِآسَـكَ، وكانوا مِثَالًا للصَّلابة وقوة الشَّـكيمة ومَضَاءِ العَزِيْمَـةِ، حتى أَقْلَقُوا زِيـادًا وجُنْدَه، ثُـمَّ مَضَوْا في سـبيل الله شُـهداءَ بعد ما سَجَّلُوا بدِمَائهم تاريخَ البُطولة والفِدَاءِ.

بَايَـعَ صَحْـــبَهُ عَلَى الشِّـرَا وَمَـا
طَــالَ زَمَانُــهُ إِلَى أَنْ أُكْـرِمَــا
نَالُوا الشَّـــهَادَةَ الَّتي قَــدْ طَلَـبُوا
وَبِرِضَـا الرَّحْمَـــنِ فِـيها انْقَـلَبُوا

ولا يكون الشِّرَاءُ عندَ أصحابِنَا إِلَّا بأربعين رَجُلًا، وَلَعلَّهم أَخَذُوا ذلك مِمَّا كان في عهد الرسول ﷺ عندما أسْلَمَ عُمَرُ رضي الله عنه ، فَتَمَّ بإسلامِهِ عَدَدُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجَالِ أَرْبَعين، وقد كانوا مِنْ قَبْلُ يَعْبدون الله مُسْتَخْفِينَ في دار الأَرْقَمِ، ولكنَّهم خَرَجُوا بَعْدَ ذلك مُتَحَدِّينَ كِبْرِيَاءَ الجاهلية.

وليس لِمَنْ بايَعَ على الشراء تَرَاجُعٌ إلى أنْ يَلْقَى الله وَحْدَه، لأنه بايع على الْمَوْتِ، ولو بَقِي بنفسه، وقيل إنْ نَقَصُوا عن ثلاثةٍ كانوا في حِلٍّ مِنْ أمْرِهِمْ.

والْمَشْهور في الْمَذْهَبِ: أنَّ الشَّارِي لا تَجُوزُ لَهُ التَّقِيَّةُ، وأجازَها لَهُ الْمُحَقِّقُ الْخَلِيلِيُّ رحمه الله تعالى عند الحاجَةِ إليها، مُعَلِّلًا ذلك بأنَّ ما أوْجَبَهُ على نَفْسِهِ ليس أَوْجَبَ مِمَّا أَوْجَبَهُ اللهُ عليه.

وهؤلاءِ إنَّما يَخْرُجُونَ مِنَ الأوطانِ، فإنَّهم لا وَطَنَ لَهُمْ إلَّا حَيْثُ يُشْهِرُونَ سُيوفَهم، فحَيْثُمَا أشْهَرُوا سُيوفَهم أَتَمُّوا صلاتَهُمْ.

❖ ثالثُها: الدِّفَاعُ

وهو أنْ يَجْتَمِعَ الْمُسلمون عندَما يُفَاجِئُهُمْ عَدُوُّهم بالانْقِضَاضِ عليهم على مُبَايَعَـــةِ أحَدٍ منهم لِيَقُودَهم دِفَاعًا عن دينهم وعن حُرُمَاتِهِمْ، إلَى أنْ تَنْجَلِيَ الغُمَّةُ وينكشفَ العدوُّ، وتنتهي بذلك بَيْعَتُه.

وهذا كما وَقَعَ لِإخْوانِنَا أهلِ الْمَغْرِبِ؛ عندما كَشَّرَ أبو تَمِيمٍ الفَاطِمِيُّ الْمُلَقَّـــبُ بالْمُعِزِّ عن أنْيَابِهِ العُضْلِ فَقَتَـــلَ عَالِمَهُـــمْ أبـــا القاسِـــمِ يَزِيدَ بـــنَ مخلـــد الوِسْـــيَانِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فاجْتَمَعَ مَنْ كان حَوْلَه على مبايعة **أبِي خَـــزْرٍ الوِسْـــيَانِيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ إمَـــامَ دِفَاعٍ لَهُـــمْ، يَقُودُ مُجَاهِدِيهِمْ في ســـبيل الله حمايةً لدينهم ولِحُقوقهم، ولكنَّ الحَمْلَـــةَ التي قادها أبو خَزْرٍ مُنِيَـــتْ بالْهَزِيْمَةِ والفَشَلِ، لأنَّها لَمْ يُخَـــطَّطْ لَهَا مِنْ قَبْلُ، وإنَّما كانت أمْـــرًا ارْتِجَالِيًّا، دَفَعَتْهُمْ إليه الغَيْـــرَةُ والْحَمَاسُ كما سَجَّلَتْهُ الْمَصَادِرُ التاريخيّة.

ومِنَ العلمـــاءِ مَنْ ذَهَبَ إلـــى أنَّ بيعةَ **عبدالله بن وَهْبٍ الرَّاسِبِيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ كانت بيعة دفاع، ومِنْ بَيْنِ هؤلاءِ

العلَّامةُ الكِنْدِيُّ شارِحُ هذه الْمَنْظُومَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وليس ذلك بِشَيْءٍ، فإنَّ أحداثَ البيعة تَدُلُّ على أنَّها كانت بَيْعَةَ ظُهُورٍ، لأنَّهم وَلَّوْهُ أمْرَ الْمُسلمين بعد أنْ أَصْبَحوا لا قائدَ لَهُمْ حين وَقَعَ التحكيمُ واتَّفَقَ الحَكَمَانِ على خَلْعِ الخليفة الشرعي الإمامِ علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ، مع ما تَمَّ من الاتفاق بينه وبين خصمه معاوية بن أبِي سفيان على تَحْكيم ذَيْنِكَ الحَكَمَيْنِ.

❖ رابعُها: **الكِتْمَانُ**

وهو خِلافُ الظهور مَعْنىً وحُكْمًا، وذلك بأنْ يكونَ الْمُسلمون في ضَعْفٍ وتشتُّتٍ، بِحَيْثُ لا يُمْكِنُهم أنْ يَسْلُكوا أيَّ مَسْلَكٍ مِنَ الْمَسَالِكِ الثلاثةِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ قَبْلُ، ولا بُدَّ لَهُمْ مِنْ مَرْجِعٍ يَرْجِعُون إليه يَدُلُّهُمْ على الرُّشْدِ ويُذَكِّرهم بالله وباليوم الآخر، ويُصلح ذاتَ بَيْنِهِمْ، ويَقوم بِمَا أمْكَنَهُ من مَصَالِحِهِمْ.

وهذه الحالة التي مَرَّتْ بِهَا الدَّعْوَةُ إبَّانَ نُشُوئِها في **الْمُجْتَمَعِ الْمَكِّيِّ**، فإنَّ أصحابَ النبي ﷺ كانوا

يَلْتَفُّونَ حَوْلَه في كِتْمَانٍ مِنْ أَمْرِهِمْ، ويَتَلَقَّوْنَ عنه ما يُصْلِحُ دينَهم ودنياهم، ويُنير لَهُمُ الطريقَ ويُبَيِّنُ لَهُمُ الحقيقةَ.

وقد كان هذا هو مَسْلَكَ الإمام أَبِي الشَّعْثَاءِ جابر بن زيد رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ عندما أَبْصَرَ ببصيرته الثاقبة تَعَذُّرَ انتظام أمرِ الْمُسلمين في وقتِهِ واجتماعِ شَمْلِهِمْ على القيام بإنشاءِ نظامٍ إسلاميٍّ يَتَحَدَّى النظامَ القائمَ آنذاكَ.

وعَلَيْهِ دَرَجَ تلميذُه وخليفتُه العملاقُ القائدُ الْمُحَنَّكُ والرَّائدُ الْمُسَدَّدُ أبو عُبَيْدَةَ مُسْلِمُ بنُ أبي كَرِيْمَةَ التَّمِيمِيُّ ـ رِضْوَانُ اللهِ عليه ـ، الذي نَضِجَ في عَهْدِهِ الْجُهْدُ، فآتَت الدَّعوةُ على يديه ثِمَارَها الطيِّبة، إذْ تَمَخَّضَتْ عن ميلادِ بَيْعَاتٍ لأئِمَّةِ ظُهُورٍ بارزينَ، فقد بُويِعَ لأَرْبَعَةٍ مِنْ تلامذته بَيْعَةَ ظُهورٍ، فَصَدَقُوا ما عاهَدُوا اللهَ عليه إلَى أن قَضَوْا نَحْبَهُمْ باذِلِينَ أنفُسَهم في سبيل الله، وَهُمْ:

▪ **طالِبُ الْحَقِّ عبدُالله بنُ يَحيــى الكِنْدِيُّ**، الذي أظْهَرَ الحقَّ والعَــدْلَ بِأَرْضِ اليَمَنِ، وشَــمِلَ حُكْمُهُ أَرْضَ الحِجَازِ، وَوَصلَتْ خَيْلُهُ إلى وادي القرى.

▪ و**الجُلَنْدَى بنُ مسعود** الذي بويعَ بِعُمَانَ، فَصَالَ على الباطــلِ صَوْلَةَ اللَّيْــثِ الْهَصُورِ، وبَذَلَ نفسَــه ونفيســه في طاعة الله ونصرةِ دينه، إلــى أن فاضَتْ رُوحُه في سبيل الله.

▪ و**أبو الخطَّاب الْمَعَافِرِيُّ** الــذي بويع بِطَرَابُلُس الْمَغْرِبِ، فكان مِثَالًا للزهد والورع والتقوى والنَّجْدَةِ والإقدام والعدل والاستقامة.

▪ و**عبدُ الرَّحْمَن بن رُسْــتُم الفارســيُّ** الذي بويع بعده بالْمَغْرِب الأَوْسَــطِ، فأقام دولة الْحَق والإيْمَان والعدل والإنصــاف التي ســجَّلَ التــاريخُ مآثرَها العظيمةَ على صفحاتِ الأمْجَاد الْمُشْرِقة، رحمهم الله جميعًا.

وكثيرًا ما **يَتَوَلَّدُ الظهــورُ عن الكِتْمَانِ**، كما حَدَثَ ذلك في عهد النبي ﷺ، فإنَّه ـ بعد تأسيســه لقواعد

الدين وإعدادِه اللَّبِنَاتِ الأولــى لبناء الأمة الصالحة في عهد الكتمان ـ تَمَخَّضَتْ دعوتُه عن عهدٍ جديدٍ، ظهرَتْ فيــه كلمةُ الْحَق، وعَــزَّ أنصارُهُ بقيــام دولَةِ الإسلامِ على أرضٍ طَيْبَةَ ـ طَيَّبَ اللهُ ثراها ـ، إلى أنْ تَمَّ الفتــحُ الْمُبين، ولَــمْ يَقْبِضِ اللهُ عبدَه ورســولَه مُحَمَّــدًا ﷺ إلّا وجزيرةُ العــرب تُظِلُّها سَــمَاءُ تلك الدولة الْمُبَارَكة، ثُمَّ تَوَالَــتْ الفُتُوحُ في عهد خلفائه الراشــدين ﭫ إلى أن طَهَّــرَت الأرضَ من الرِّجْسِ، وحَرَّرَتْهَا من الظلم، وأقامت نظامَ العدل والإنصاف بين العالَمِين، فسَعِدَت الإنسانيةُ بعد شقائها، ونَعِمَتْ بعد بؤسِها، وعَرَفَتْ قيمتَها وقدْرَها.

وَهَكَذَا أَثْمَــرَ جُهْدُ أَبِــي الشَّــعْثَاءِ جَابِرِ بن زَيْدٍ وَخَلِيفَتِهِ أَبِي عُبَيْــدَةَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا مِنْ أَسَــاطِينِ الدَّعْوَةِ وَأَعْلامِ الهُدَى ﭫ، إِذْ حَقَّقَ اللهُ أُمْنِيَّاتِهِمْ بِقِيَامِ نِظَامِ العَدْلِ في الْمَشْــرِقِ وفي الْمَغْرِبِ مَعًا، وَالحَمْدُ للهِ الذي بِنِعْمَتِــهِ تَتِــمُّ الصَّالِحَاتُ وَتَتَحَقَّــقُ بِفَضْلِهِ الأُمْنِيَّاتُ.

أسئلـة:

١. عرف المسالك في اللغة؟

٢. ما هي الغاية من مسالك الدين؟

٣. تعددت مسالك الدين باختلاف حال المسلمين، بين ذلك؟

٤. كم عدد مسالك الدين؟ اذكرها مرتبة؟

٥. ما المراد بالظهور؟

٦. متى كان أسمى عهود الظهور؟

٧. اذكر أمثلة لتطبيق الإباضية لمسلك الظهور باليمن وعُمان والمغرب؟

٨. ما الميزة التي يتميز بها مسلك الظهور؟

٩. من أين أُخذ مسلك الشراء؟

١٠. متى يتخذ المسلمون مسلك الشراء؟

١١. اذكر مثالا من التاريخ على بيعة الشراء؟

١٢. بأي عدد تنعقد بيعة الشراء، وما الدليل على ذلك؟

١٣. هل يجوز للشاري أن يتراجع بعد البيعة؟

١٤. هل تجوز التقية للشاري؟

١٥. أين يُتم الشراة صلاتهم؟ وأين يقصرونها؟

١٦. متى يتخذ المسلمون مسلك الدفاع؟

١٧. اذكر مثالًا من التاريخ على إمامة الدفاع؟

١٨. هل تعد بيعة الإمام عبدالله بن وهب الراسبي بيعة دفاع؟ ولماذا؟

١٩. متى تكون مرحلة الكتمان؟

٢٠. هل مرت الدعوة النبوية بمرحلة الكتمان؟

٢١. اذكر مثالا على مسلك الكتمان في عهد التابعين؟

٢٢. هل يمكن أن تنبع إمامة ظهور من إمامة الكتمان؟

٢٣. من هو الإمام طالب الحق؟ وأين كان حكمه؟

٢٤. من هو أول إمام عماني؟

٢٥. أين تقع طرابلس المغرب اليوم؟ ومن كان أول إمام فيها؟

٢٦. اذكر ما تعرفه عن الدولة الرستمية؟

فَـرْزُ الدِّيـنِ

٣٩. وَفَـرْزُهُ فِي ثَلاثٍ: مُؤْمِـنٍ وَمُـنَا * فِـــقٍ وَصَاحِبِ شِـــرْكٍ جَاحِـدٍ عُذِلا

الفَرْزُ هُــوَ التَّمْيِيزُ والفَصْلُ، والْمُـرَادُ بِهِ هُنَا هُوَ: تَمْيِيـزُ النَّـاسِ بَعْضِهِمْ مِـنْ بَعْضٍ، والفَصْـلُ بَيْنَ أَحْكَامِهِمْ بِحَسَبِ مُعْتَقَدَاتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ الدِّينِيَّةِ.

وَهُمْ بِهَذَا الاعْتِبَارِ يَنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلاثِ طَوَائِفَ:

❖ أَوَّلُهَا: **الْمُؤْمِنُونَ**

وَقَــدْ سَــبَقَ بَيانُ حقيقــةِ الإِيْمــانِ ومَعنــاهُ لُغَةً واصطلاحًا، وتِبْيَانُ صفاتِ المؤمنينَ حَسْــبَ ما تَدُلُّ عليه النصوصُ القرآنيةُ والأحاديثُ النبويَّةُ الصحيحةُ.

وَتَقَرَّرَ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ أنَّ الإِيْمانَ الْمَطْلُوبَ هو عقيدةٌ رَاسِــخَةٌ في النفس، تَنْشَــأُ عنها الأعمــالُ الصالِحَةُ والأخــلاقُ الفاضلةُ والأقــوالُ الصادقــةُ، وَهُوَ رُوحُ الْحَيَــاةِ وَمِلاكُها، تَتَحَــوَّلُ به النفوسُ وتَــنْقَلِبُ به

الطِّبَاعِ إِلَى أَضْدَادِ ما كانت عليه، كَمَا حَدَثَ ذَلِكَ لِسَحَرَةِ فِرْعَوْنَ عندما كانوا لا يَعْرِفُونَ قيمةً للحَيَاةِ إِلَّا بِقَدْرِ ما يكسِبُونَه مِنْ مَنَافِعِهَا الْمَادِّيَّةِ، فَلِذَلِكَ قالوا لِفِرْعَوْنَ عندما أَتَوْا لِتَحَدِّي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدَعْوَتِهِ: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١].

وقد أَدْرَكَ اللَّعِينُ ما تَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ أَفْئِدَتُهُمْ وتَطِيرُ مِنْ أَجْلِهِ أَلْبَابُهُمْ، وَهُوَ ما يُؤْتَوْنَهُ مِنَ الْمَالِ وما يُبَوَّأُونَهُ مِنْ مَقَاعِدِ التَّكْرِيمِ والزُّلْفَى، فَلِذَلِكَ أضافَ إِلَى ما ذَكَرُوهُ ما لَمْ يَذْكُرُوهُ؛ إِذْ رَدَّ عليهم بقولِه: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢].

ولَكِنْ عندما أَشْرَقَ الإيْمَانُ على قلوبِهِمْ فأَحْيَا ضَمَائِرَهُمْ وأَنَارَ بَصَائِرَهُمْ تَبَدَّلَتْ نَظْرَتُهُمْ هَذِهِ إِلَى الحَيَاةِ، فَلَمْ يَرَوْا لَهَا قِيمةً إِلَّا بِقَدْرِ ما يَكُونُ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ بِكَلِمَةِ الحَقِّ ونُصْرَتِهِ، وَلَوْ كان ثَمَنُ ذلك هو الْحَيَاةَ كُلَّها، فلذلك رَدُّوا عليه بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

فما أسْــرَعَ هذا التَّحَوُّلَ مِنَ النَّقِيضِ إِلَى النَّقِيضِ ! وما أعْجَبَ هــذا التَّبَدُّلَ فــي الطِّبَــاعِ والْمَعَايِيرِ والتَّصَوُّرِ! علــى أنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُــنْ تَدَرُّجًا؛ بِحَيْثُ أَخَذَتْ تَنْحَلُّ عُقَدُ تَصَوُّرَاتِهِمُ السَّــابِقَةِ شيئًا فَشَيْئًا، وإِنَّما كان ذلك أمْرًا مُفَاجِئًا فِي نَفْسِ لَحظَاتِ مَوْقِفِ الحِوَارِ، فَمَا الَّذِي جعلَهُم يُلْقُونَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كُلَّ ما كانوا عليه مِــنْ قَبْلُ، وَيُوَدِّعُــونَ حَيَاتَهُمُ الأُولَى بِجَمِيع تَصَوُّرَاتِهَا وأفْكَارِهَــا وَمَوَازِينِهَا وَمَعَايِيرِهَا؛ لِيَسْــتَقْبِلُوا حَيَاةً جديدةً تَتَّسِمُ بِخِلافِ ما كانوا عليه مِنْ قَبْــلُ ظاهِرًا وباطنًــا ؟ إنَّه **الإِيْمَــانُ** الذي حَوَّلَ الطِّبَاعَ غَيْرَ الطِّبَاعِ والأَفْكَارَ غَيْــرَ الأَفْكَارِ والنُّفُوسَ غَيْرَ النُّفُوسِ.

وهكذا كانَ أَثَرُ الإِيْمَانِ فــي نُفُوسِ الرَّعِيلِ الأَوَّلِ الَّذينَ بايعوا رَسُــولَ الله ﷺ بَيْعَةَ الحَقِّ، ونَفَضُوا عَنْ أنفُسِهم كُلَّ ما عَلِقَ بِهَا مِنْ غُبَارِ الْمَاضِي، بَلْ تَطَهَّرُوا بِمَعِينِ الإِيْمَانِ الدَّفَّاقِ ظاهِرًا وباطِنًا مِنْ مَاضِيهِمْ كُلِّهِ، لِيَعُــودُوا كأنَّمَا أُنْشِــئُوا نَشْــأَةً جَدِيدَةً بِنُفُــوسٍ غَيْرِ

نُفُوسِهِمْ، وَطِبَاعٍ عَكْسَ طِبَاعِهِمْ، وَمَشَاعِرَ تَخْتَلِفُ كُلَّ الاخْتِلافِ عَنْ سَابِقَتِهَا، فَتَآلَفُوا بَعْدَ النُّفْرَةِ، واتَّحَدُوا بعد الفُرْقَةِ، وَصَارَ كُلٌّ مِنْهُمْ يُحِبُّ للآخَرِ ـ الذي كان يومًا مَا خَصْمَهُ اللَّدُودَ ـ ما يُحِبُّهُ لِنَفْسِهِ.

وهكذا شَأْنُ الإيْمَانِ دائمًا، فإِنَّه يَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ يَسْتَعْلِي عَلَى رَغَبَاتِ نَفْسِهِ وضَرُورَاتِ حَيَاتِهِ، لِيَكُونَ هَمُّهُ كُلُّهُ في إِرْضَاءِ رَبِّهِ ونُصْرَةِ دِينِهِ والنُّهُوضِ بِأُمَّتِهِ.

ولِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْمُؤْمِنِ حُقُوقٌ ووَاجِبَاتٌ، أَجْمَلَهَا القُرْآنُ وفَصَّلَتْهَا السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ ـ على صاحِبِها أفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلام ـ، فَقَدْ قَال تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. وهي عِبَارَةٌ تَشِي بِمَا يَكُونُ بَيْنَ أَهْلِ الإيْمَانِ مِن اتِّحَادِ الْمَشَاعِرِ وانْسِجَامِ الأَحَاسِيسِ، حَتَّى يُرِيد كُلٌّ منهم لِسَائِرِ إِخْوَانِهِ ما يُرِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الخَيْرِ.

وهو الذي بيَّنه الرسول ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بقوله: «الْمُؤْمن للمؤمن كالبنيان يشد

بعضه بعضًا»(1)، وبقوله: «لا يؤمن أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه»(2)، وبقوله: «ترى المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»(3)، وذلك قائم على ما يكون بينهم من الصَّفاء والولاية، حتى ينجذب بعضهم إِلَى بعض، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

ولأجل الْمُحَافَظة على هذه الصلة وإبقاء هذه الرابطة جاء في حديث رسول الله ﷺ كثير من حقوقها، كالتواصل بالزيارات في الأفراح والأتراح، وشهود الجنائز، وعدم خطبة أحد على

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الآداب، باب: تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا (٦٠٨٦)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تراحم المؤمنين (٢٥٨٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: الأدب، باب: رحمة الناس والبهائم (٦٠١١)، ومسلم في كتاب: البر والصلة، باب: تلراحم المؤمنين وتعاطفهم (٢٥٨٦).

خطبة أخيه أو المساومة على سَوْمِه، وهي وإنْ لَمْ تنحصر في أهل الاصطفـــاء وَحْدَهُمْ، إلا أنَّها رافِدٌ قوي لِمَا يكـــون بين أهل الاصطفاء من أســـباب المودة والإخاء.

❖ ثانيهما: **الْمُنَافِقون**

وهم قوم أظهـــروا الإيْمَان بألســـنتهم وباينوه في ســـريرَتِهِمْ أو بأعمالِهِمْ، وَوَصْفُهُمْ بالنفاق يُوحِي بِمَا عندهـــم من التناقض فـــي أحوالهم، وهـــو مُصْطَلَحٌ إســـلامي مَحْضٌ، إذْ لَمْ تكن التسمية بذلك معهودةً عند العـــرب قبل نزول القرآن، وإنَّمـــا مأخَذُها لُغَةً من: نَفَّق اليربوع ونَفِقَ ونَافَـــق؛ إذا خَرَجَ من نافقائه هروبًا من الصائد، وذلك أنَّ للـــيربوع بابَيْنِ: ظاهرًا ويُسَـــمَّى القاصعاء، وخفيًّا ويُسَمَّى النافقاء، فإذا أراد الصائد استخراجَه من قاصعائه ضرب برأسه النافقاء وخرج عنه، وهكذا الْمُنَافِقُ يدخل في الإســـلام من وجه ويَدَعُهُ من آخر.

وهو على ضربين:

- نفاق عَقَدِيٌّ: وهو أن يتبايــن القول والمعتقد، وذلك بأن يدَّعي الإيمان وهو يبطن الإشــراك، ومن هذا الصنف المنافقون الذين بكَّتهم القرآن في عهده ـ عليه أفضل الصلاة والســلام ـ، فقد ادّعوا الإيْمانَ برسالته ـ صلوات الله وســلامه عليه ـ مع انطوائهم على معتقــدات أهل الكفر والضــلال، وإنما جعلوا ما يظهرونه من الإيمان والإســلام جُنَّــةً لئلا يُحْكَمَ عليهم بأحكام أهل الشــرك والضــلال، مع ما كانوا يضمرونه من محاربة الإســلام مــن الداخل بالدس والوقيعة بين أهله، وتشــكيك ضعــاف النفوس من المؤمنين في أصول الإيمــان ومعتقداته، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقــرة: ٨، ٩]، وقولُــه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وقد كانوا مع كتمانِهِمْ عقائدهم يَبُوحون بِهَا بغير تَحَفُّظٍ عندما يَخْلُو بعضهم إلى بعض، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤]، ولَرُبَّما انْفَلَتَ من ألسنتهم عند وحدان المؤمنين ما يدل على دخائلهم، فلذلك كانوا يُمْعِنُون في نفي ما ينسب إليهم من قبل أولئك المؤمنين الذين ينقلون عنهم ما يكون من فلتات ألسنتهم إلى النبي ﷺ وإلى سائر المؤمنين، وذلك بتكرار الأَيْمَان أنَّهم ما قالوا كلمة الكفر وما كان منهم إلا ما يؤكد رسوخ إِيْمَانِهِمْ بالله واليوم الآخر، فلذلك قال تعالى فيهم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٢].

وهذا الصنف تجري عليه أحكام الإسلام ظاهرًا، كالتوارث بينهم وبين المؤمنين، ودفنهم في مقابرهم والصلاة عليهم إذا ماتوا، وإن كانوا في باطنهم مشركين، وإِنَّما أعَدَّ الله لهم من الجزاء ما يتلاءم مع

حالهم، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

- ونفاق عملي: وهو عدم التزام المرء بواجبات الإسلام فعلًا أو تركًا، وهو وإن كان أهون من سابقه إلا أنه أمر عظيم، لِمَا سبق من أن الإيْمان والإسلام يقتضيان الوفاء بِحُقوقهما ظاهرًا وباطنًا، وهذا الصنف وإن وافق مُعْتَقَدَهُ قَوْلُه إلا أنه مُخَالِفٌ لِمَا يقتضيه الاعتقادُ الْحَقُّ من طاعة رب الوجود والبعد عن معصيته، على أنَّ وَصْفَ هؤلاء بالنفاق إنَّما هو في حال الإصرار على ما يرتكبون، أما التائب من الذنب فكمن لا ذنب له.

ودليل هذا النوع من النفاق ما جاء في حديث رسول الله ﷺ من بيان صفة المنافق، فقد رَوَى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاثٌ: إذا حَدَّث كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا عَاهَدَ غَدَرَ»[1]. وفي روايةٍ

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: علامات المنافق (٣٣)، ومسلم في كتاب: الإيْمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٩).

مُسْلِمٍ: «وإِنْ صَامَ وَصَلَّى وزَعَمَ أنه مسلم»[1] بَعْدَ قولِه: «آية المنافق ثلاث». وفي رواية لهما وللترمذي والنسائي مثلُ ما تقدَّمَ، ولكن بإبدال «إذا ائتُمِنَ خان»[2] من قوله: «إذا عاهد غدر». وأخرج النسائي عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ثلاث مَنْ كُنَّ فيه فهو منافق، إذا حدَّثَ كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وَعَدَ أخلف، فمن كانت فيه واحدة منهن لم تزل فيه خصلة من النفاق حتى يتركها»[3]. وأخرج الشيخان وأصحابُ السنن إلا ابن ماجه عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت به خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَرَ»[4].

(١) هذه الزيادة تقدم تخريجها.
(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: الإيمان، باب: ما جاء في علامة المنافق (٢٦٣٢)، والنسائي في كتاب الإيمان، باب: علامة المنافق (٥٠٢٠).
(٣) أخرجه النسائي في كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (٥٠٣٨).
(٤) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق (٣٤)، ومسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان خصال المنافق (٥٨).

وفي رواية للنسـائي: «إذا وعد أخلف» بدلًا من «إذا ائتمن خان».

وهذا كله دليلٌ على أن النفاق يكون في الأعمال كما يكون في الاعتقاد، وليـس ذِكْرُ بعض الخصال في الأحاديث دليـلًا على الحصـر، وإنما ذلك من بـاب التمثيل. هذا هـو الذي دَرَجَ عليـه أصحابنا، ووافقهم عليه جماعة مـن الْمُحَقِّقين، كالعلامة ابن العَرَبِـي المالكي والحافـظِ ابن حَجَر العَسْـقَلانِي الشـافعي، والعَيْنِيِّ الْحَنَفِيِّ، وعَزَاهُ إلـى الْخَطَّابِيِّ، ونَسَبَه التِّرْمِذِيُّ في جامعه إلى أهل العلم.

❖ ثالثها: **المشركون**

وهم كلُّ مَنْ رَفَضَ قبول الإسـلام ظاهرًا وباطنًا، سـواء كان من عبدة الأوثان أو من الملاحدة أو من أهل الكتاب.

ويتحقق الشـرك بإنـكار كل ما عُلِـمَ من الدين بالضرورة مـن غير تأويل، كإنـكار وحدانية الله، أو

إنكار قدسيته عن اتخاذ الصاحبة أو الولد، أو الاتصاف بصفات النقص كالعجز والجهل والحدوث والموت والصمم والعمى، أو إنكار رسولٍ من رسل الله الذين ثبتت رسالتهم بالقطع، أو إنكار كتاب مما أنزل الله، أو حكمٍ قطعي شَرَعَه، أو إنكار اليوم الآخر أو شيء من أوصافه الثابتة بالقطع.

وبِهَذا يتبين دخول كفار أهل الكتاب في المشركين؛ بإنكارهم وحدانية الله سبحانه بنسبة الولد والشريك إليه، وإنكار نبوة نبينا ﷺ ونزول القرآن عليه، ولا معنى لِمَا يقوله البعض ـ وشاع في عصرنا ـ من أنَّهم غير مشركين، لأن الله ﷻ نَسَبَ الإشراك إليهم حيث قال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ولأن الله تعالى دعاهم إلى الإِيْمَان بِمَا أنزله مصدقًا لِمَا معهم، ثم أتْبَعَ ذلك بيانَ عاقبة الإشراك

ـ أي إنْ لَمْ يؤمنوا ـ وذلك قولُهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٧، ٤٨].

أمَّا مَا جاء من عطف المشركين على أهل الكتاب في نحو قولـه تعالـى: ﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾ [البينـة: ١]، وقولِهِ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [البينـة: ٦]؛ فهـو لأجلِ أنَّ عَبَـدَةَ الأوثان هم أعمق في الإشـراك وأبعد في الضلالة، فلذلك غُلِّبَ إطلاقُ وَصْفِ الشـرك عليهـم، كما غُلِّـبَ إطلاقُ وَصْفِ الإيْمان على مُؤْمِنِي هذه الأمة، كما في قوله تعالـى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ ﴾ [البقرة: ٦٢]. ثُمَّ بيّن حُكْمَ مَنْ آمَنَ مِنْ هذه الطوائف جميعًا فقـال: ﴿ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]، لأنَّ إيْمَانَ هذه الأمة أوْسَعُ وأشْمَلُ وأعْمَقُ، لِمَا أكرمها الله به من نزول الكتاب الْمُعْجِزِ عليها فيه تبيان كل شيء.

وبالجملة فإن وصف الشرك إذا أُطْلِقَ شَمِلَ أهل الكتاب وغيرهم، وإذا جاء معطوفًا على أهل كتابٍ كان مقصودًا به سائرُ أصناف المشركين من غيرهم.

ويتفق الْمُشركون جَميعًا في بعض أحكامهم، ومنها أنه لا توارث بينهم وبين الْمُسلمين، ولا يُدفنون في مقابرهم ولا يُصَلَّى عليهم إذا ماتوا، ولا يُحَيَّوْنَ بتحية الإسلام، ولا يُشَمَّت عاطسُهم، ومَنْ مات منهم بين المسلمين ولَمْ يكن هنالك أحد من أهل مِلَّتِهِ فإنَّ على المسلمين دَفْنَهُ فقط بِمَنْأًى عن مَقَابِرِهِمْ مِنْ غَيْرِ غُسْلٍ ولا صَلاةٍ، وإِنَّما تُسْتَرُ عَوْرَتُهُ لأَجْلِ حُرُمَاتِ الإنْسَانِيَّةِ. ويَفْتَرِقُونَ في بَعْضِهَا كَمَا سَيَأْتِي شَرْحُهُ ـ إنْ شَاءَ اللهُ ـ في ذِكْرِ أحْكَامِ الْمِلَلِ السِّتِّ.

أسئلـة:

١. ما معنى الفرز في اللغة؟ وما المراد به هنا؟

٢. إلى كم قسم ينقسم الناس حسب دينهم؟

٣. بيّـن باختصار أثر الإيمان القويّ في قصة سحرة فرعون؟

٤. اذكر ما أحدثه الإيمان في نفوس الرعيل الأول؟

٥. أجمل القرآن حقوق المؤمن على أخيه، وفصّلتها السنة، بين ذلك؟

٦. ما هي الروافد التي تُقوّي الصلة بين المؤمنين؟

٧. مَن هم المنافقون؟

٨. هل النفاق مصطلح قديم عند العرب؟

٩. اشرح معنى النفاق في اللغة، وعلاقته بالمعنى الاصطلاحي؟

١٠. للنفاق قسمان، اذكرهما؟

١١. من أيّ قسم كان المنافقون الذين فضحهم القرآن على عهد النبي ﷺ؟

١٢. عدّد بعض صفات المنافقين التي ذكرها القرآن؟

١٣. هل يعامل المنافق بأحكام المسلمين في الدنيا؟

١٤. عرّف النفاق العملي؟

١٥. أيهما أعظم: النفاق العقدي أم العملي؟

١٦. متى يُطلق على المرء وصف النفاق العملي؟

١٧. اذكر الأدلة على أنَّ النفاق يكون في الأعمال؟

١٨. هل خصال النفاق محصورة فيما ذكرته الأحاديث النبوية؟

١٩. مَنْ قال بالنفاق العملي من غير علماء الإباضية؟

٢٠. مَنْ هم المشركون؟

٢١. اذكر بعض الأمور التي يحكم على صاحبها أنَّه مشرك؟

٢٢. هل يدخل كفار أهل الكتاب في المشركين؟ بيّن قولك بالدليل.

٢٣. لماذا عُطف المشركون على أهل الكتاب في القرآن؟

٢٤. اذكر خمسة أحكام دنيوية للمشركين؟

حِـرْزُ الدِّيـنِ

٤٠. وَحِـرْزُهُ أَنْ تُوَالِي مَنْ أَطَاعَ وَتَبْـ * ـــرَا مِنْ مُصِرٍّ وَقِفْ عَنْ كُلِّ مَنْ جُهِلا

الْحِرْزُ كالحفظ وزنًا ومعنىً.

والمراد بالبيت أنَّ صَوْنَ الديـــن من الضياع إنما هو بولايـــة الصالحيـــن والبـــراءة من المفســـدين، والوقوف عمن جُهل أمرُه.

وإنَّما كان حِـــرْزُ الدين بذلك لما فيه من شـــدِّ الروابط بيـــن الْمُتَّقين والتناصيـــح بينهم والتعاون على البر والتقوى، وتَجَنُّبِ جَمِيع أســـباب الفساد والانفصال التام عن أهله، فإن الولاية رباط روحي يَشُـــدُّ الْمُؤمنَ إلى الْمُؤمنِ، حتـــى لا يُحِبَّ لَهُ إلَّا ما يُحِبُّه لنفســـه، ويَحْرِصَ على إصلاحه كحرصه على إصلاح نفســـه، ولذلك كانت الســـمة البارزة على الْمؤمنيـــن الذين يوالِي بعضُهـــم بعضًا أنَّهم يأمرون بالْمَعْروف وينهون عن الْمُنْكر، مع الالتزام

التام بالواجبات الشـــرعية، قال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ ﴾ [التوبة: ٧١].

فالمؤمن الوَفِيُّ في هذه البيئة الصالِحَةِ يشعر أنه يأوي إلى ركن وثيق، ويتفيأ ظلال الأخوة الخالصة بين المؤمنيـــن، يُعينونه على الخيـــر ويصونونه من الشر، ويُحافظون على ســـلامة دينه ودنياه، والفاجر يشعر أنه منبوذ لا تربطه بِهَذِهِ البيئة الصالحة رابطة، فتَضِيقُ به الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ، فإِمَّـــا أنْ يَضْطَرَّ إِلَى مُحَاسَبَة النفس والعودة إلى حظيرة الحق والالتفاف حول الصالحيـــن، وإما أن يبحث عـــن بيئة أخرى تلائم هـــواه وطباعه، فيَنْقَـــى الْمُجْتَمَـــعُ من أعماله ويَسْلَمُ من شره.

أسئلـة:

١. ما معنى الحرز في اللغة؟

٢. بيّن باختصار المراد بمصطلح (حرز الدين)؟

٣. حرز الدين يكون بثلاثة أمور، اذكرها؟

٤. لماذا كان حرز الدين في هذه الأمور الثلاثة؟

٥. ما هو أثر تطبيق حرز الدين في المجتمع المسلم؟

الوَلايَةُ وَالبَرَاءَةُ

الوَلايَةُ والبَرَاءَةُ على أقسامٍ، لأنَّهُما إمَّا أنْ تكونَا وَلايةَ جُمْلَةٍ وبراءَةَ جُمْلَةٍ، أو ولايةَ أشخاصٍ وبراءَةَ أشخاصٍ، وولايَةُ الأشخاصِ وبراءَةُ الأشخاصِ إمَّا أنْ تكونَا بِحُكْمِ الظَّاهِرِ أو بالحقيقةِ، ولَمْ يَتَعَرَّض الْمُصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ هُنَا لِبيانِ أحكام هذه الأقسامِ طَلَبًا للاختصارِ، وتَعْوِيلًا على ما ذَكَرَهُ في سائِرِ مُصَنَّفَاتِهِ وشُرُوحِهِ، وإنَّما ذَكَرَ بعضَ الْمُجْمَلاتِ منَ الأحكامِ، فقال في وَلايَةِ الجُمْلَةِ وبَرَاءَةِ الجُمْلَةِ:

٤١. وَوَالِ في جُمْلَةٍ مَنْ قَدْ أَطَاعَ وَعَا * دِ مَنْ عَصَى جُمْلَةً للهِ مُمْتَثِلا

❖ وَوَلايَةُ الجُمْلَةِ

هي أوَّلُ ما يَجِبُ من صُنُوفِ الوَلايةِ على الإنسانِ، فإنَّها تَجِبُ على كل مُسْلِمٍ عالِمًا كان أو جاهلًا، إذْ يَجِبُ على كلِّ أحَدٍ أنْ يعتقدَ أنّه يَتَوَلَّى

جَميعَ أوليـــاءِ اللهِ مِـــنَ الأوَّلينَ والآخِريـــنَ إلى يومِ الدِّيـــن، ويَبَرَأُ مِـــنْ جَميعِ أعـــداءِ اللهِ مـــن الأوَّلينَ والآخِرينَ إلى يوم الدِّين.

❖ وأمَّا **وَلايةُ الأشْخاصِ وَبرَاءَةُ الأَشْخَاصِ**

فَهُمَا إمَّا أنْ تَكُونَا ظاهِرَتَيْنِ أو حَقِيقِيَّتَيْنِ؛

❖ **فوَلايَةُ الظَّاهِرِ**

تَتَرَتَّبُ على ما يَظْهَرُ مِنْ صَلاحِ الإنسان واستقامَتِهِ في أقواله وأفعالِهِ، وكذلك البراءة منه بِحُكْمِ الظَّاهِرِ إنَّما هي مَبْنِيَّةٌ على وُقُوعِهِ في مُخَالَفَةِ الحقِّ قولًا أو عَمَلًا، وإِصْرَارِهِ عليها، وثُبُوتِ ذلك عليه.

وطُرُقُ هذه الوَلايَةِ الظاهِرِيَّةِ ثلاثٌ:

- إمَّا **الْمُعَايَنَةُ**، وهي أنْ يَشْهَدَ الإنْسَانُ الْمُسْلِمُ مِنْ غَيْرِهِ ما يَدُلُّ عَلَى اسْتِقَامَتِهِ مِنْ غَيْرِ خُرُوجٍ عَنْ مَسْلَكِ الحَقِّ قَوْلًا ولا عَمَلًا، مَعَ الْمُسَـــارَعَةِ إِلَى التَّوْبَةِ عِنْدَ الزَّلَلِ.

ـ وَإِمَّا **الشُّـــهْرَةُ**، وذلك بِأَنْ يَشْتَهِرَ الْمَرْءُ بِالصَّلاحِ والاسْتِقَامَةِ حَتَّى تَتَوَاطَأَ الأَلْسُنُ على نَقْلِ ذلك عَنْهُ.

ـ وَإِمَّــا **البَيِّنَــةُ العَادِلَةُ**، وهــي شَــهَادَةُ العَدْلَيْنِ، واخْتُلِفَ في شَهَادَةِ الوَاحِدِ.

وأَمَّا **البَرَاءَةُ بِحُكْمِ الظَّاهِرِ** فَتَثْبُتُ بالطُّرُقِ الْمَذْكُورَةِ مع إِضَافَةِ طريقٍ آخَرَ إِلَيْها، وَهِــيَ: **الإِقْرَارُ** بارتِكَابِ الكبيرَةِ، سَوَاءً كانت قَوْلًا أو عَمَلًا أو اعْتِقَادًا، والبَيِّنَةُ الَّتي تَثْبُتُ بِهَا البَرَاءَةُ لا تكون إِلَّا بِعَدْلَيْنِ.

ولَئِنْ كانت وَلايَةُ الظَّاهِرِ وَبَــرَاءَةُ الظَّاهِرِ مَبْنِيَّتَيْنِ علــى ما يَظْهَرُ مِنْ صَــلاحِ الْمَــرْءِ أَوْ عَدَمِــهِ؛ فَمِنَ الواجِبِ فيمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًــا بِصَلاحٍ ولا بِفُجُورٍ: **الوُقُوفُ عنــه**، حَتَّــى يَثْبُــتَ ما يُوجِــبُ وَلايَتَهُ أو ما يُوجِبُ البَرَاءَةَ مِنْهُ.

❖ وأَمَّا **وَلايَةُ الْحَقِيقَةِ وَبَرَاءَةُ الْحَقِيقَةِ**

فلا تَكُونَانِ إِلَّا بِنَصٍّ قَطْعِيٍّ ـ مَتْـنًا ودَلالَةً ـ يَدُلُّ على سَعَادَةِ أَحَدٍ بِعَيْنِهِ أَوْ شَــقَاوَتِهِ، سَوَاءً ذُكِرَ باسْمِهِ

أو بِكُنْيَتِهِ أو بِوَصْفِهِ، كما نَرَى في القرآن الكريم مِنَ النَّصِّ على:

سَعَادَةِ رُسُلِ اللهِ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ، وَسَعَادَةِ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وامْرَأَةِ فِرْعَـوْنَ، والرَّجُلِ الَّذي جَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ.

وَشَقَاوَةِ فِرْعَوْنَ وَأَبِي لَهَبٍ وامْرَأَةِ نُوحٍ وامْرَأَةِ لُوطٍ وابْنِ نُوحٍ الذي عَصَى أَمْرَهُ.

ومثل ذلك ما لو ثبت بالتواتر عن النبي ﷺ أن أحدًا بعينه من السعداء أو من الأشقياء، ولا يكفي في هذا كونه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد تـولاه أو أثنى عليه أو أخبر بصلاحـه أو عكس ذلـك، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يتولى ويبرأ بحكم الظاهر فيمن لَمْ يُوحَ إليه فيه بشيء، والدليـل على ذلك قولـه ﷺ: «وَلَيُـذَادَنَّ عن حوضي رجال من أمتي فأنادي أُصَيْحَابِي أُصَيْحَابِي، فيقال لي: لا تدري ماذا أحدثوا بعدك، فأقول فَسُـحْقًا فَسُـحْقًا»[1]

(١) أخرجه الإمام الربيع، باب في الأمة أمة مُحمد ﷺ (٤٣) من طريق أبي هريرة.

وفي روايــة: «رجالٌ أعْرِفُهم ويعرفونــي»[1]، وهو دليل على أنه ﷺ كان يتولاهم بِحُكْمِ الظاهر.

والفرق بيــن ولاية الحقيقــة وبراءَتِهــا والولاية والبــراءة بحكم الظاهــر: أنَّ ولايــة الحقيقة وبراءة الحقيقة لا تتبدلان، فالوَلِــيُّ بالحقيقة يظل وليًا ولو ارتكب ما ارتكب من الْمَحْجُــورات، وإن ارتدَّ عن إســلامه، لأن خبر الله لا يتبدل، وكذلك ما أخبر به المعصوم عن الله ســبحانه، وإنَّمــا تُنَفَّذُ فيه الأحكام الدنيويــة المترتبــة على أعمالــه، كإقامــة الحدود وغيرها، مع الاعتقاد الجــازم أنَّ مِيتَتَهُ لا تكون إلا مقرونة بخاتمة حســنة، ســواء ظهرت لنا أو خفيت علينا، وكذلك البــراءة بالحقيقة تظل ملازمة للمتبرأ منه، ولو بدا من أقواله وأعماله أنــه أَبَرُّ أهلِ زمانه، لليقين الجازم أنه لنْ يَمُوت إلا شقيًا.

وأما الولايــة والبــراءة بحكم الظاهــر فتتبدلان باختلاف حال الشخص الْمُتَوَلَّى أو المتبرأ منه، فإذا

(١) أخرجه البخاري باب في الحوض (٦٢١٢) من طريق سهل بن سعد.

استقام الفاجر وثبتت عند من كان يتبرأ منه توبته وجبت عليه ولايته، وكذلك العكس.

وليس في الجملة ولا في الحقيقة وقوف، لأن ولايتهما وبراءتهما لا تكونان إلا حسب ما في علم الله تعالى، والله لا تخفى عليه خافية، وإنما يجب الوقوف في الظاهر عمن لم يعرف منه موجب ولاية ولا براءة، لأن أحكام الظاهر مَنُوطَةٌ بِمَا يبدو من حال الإنسان، ومَنْ خَفِيَ أمرُه فالوقوف هو الواجب في حقه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وعند التحقيق ينكشف أن ولاية الجملة وبراءَتَها حكمها حكم الحقيقة، إذ هما أيضًا لا تتبدلان بتبدل أحوال المرء، لأنهما حسب حال المرء عند الله، وإن كانت ولاية الحقيقة وبراءتها المشهورتان في أشخاصٍ وهاتان في غيرِ مُعَيَّنِينَ، ويظهر ذلك في كون ولي الحقيقة لا يمكن أن يكون عدوًا في الجملة وكذا العكس، أما الولي بحكم الظاهر فقد

يكون عدوًا في الجملة وكـــذا العكس، لاحتمال أن يكون أمره عند الله بخلاف ما يبدو من حاله للناس.

هذا ولا خلاف فـــي أن على الإنســـان أن يتولى جَمِيع أوليـــاء الله مـــن الأولين والآخريـــن إلى يوم الدين، كذلك أن يبرأ من جميع أعدائه، وإنَّما الخلاف في ولاية الأشخاص وبراءَتِهم، فذَهَبَ إِلَى وجوبِهِمَا أصحابُنا بغير خلاف، ووافقهم عليهما بعض أصحاب المذاهب الأخرى، وخالفهم آخرون، والدليل عليهما واضح، فـــإن الله أوجب علـــى المؤمنيـــن أن يتولَّى بعضهم بعضًا حيث قال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]، وهؤلاء هم الْمُوَفُّون بدين الله، بدليل قوله في الآية نفســـها: ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [التوبة: ٧١].

وما ذكره مـــن أوصاف المؤمنين فـــي آيتي الأنفال والمؤمنـــون، وقال تعالَـــى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥].

وقال النبي ﷺ: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

لا يقال: إن هذا الواجب إِنَّما هو في جملة المؤمنين لا في أفرادهم، فلا دليل فيه على ولاية الأشخاص؛ **لأنا نقول**: إن الوصفَ الْمُجْمَلَ لا بد من أن ينطبق على الأشخاص، فصفة الإيمان والالتزام بِمُقتضياته ليست أمرا مثاليًا لا يلمسه الإنسان في حياة إخوانه المؤمنين، وإنما هو أمر واقعي يتجسد في حياة المتقين، فمن وُجِدَ فيه وَجَبَتْ على الكل ولايته.

على أن هذه الولاية ليست فيضًا من مشاعر الرحمة والود فحسب، بل هي تتجسد في الأعمال والأقوال أيضًا، كالمناصرة والدعاء بالرحمة، ولذلك كانت رابطة بين المؤمنين تجمع شتاتهم وتنتظم أفرادهم، حتى تكون جماعتهم ظاهرًا أمرُها، متمكنةً من رقاب أعدائها، كما يوحي به قوله ﷻ:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

ومما يؤكد ذلك أن الله سبحانه فرض على عباده المهاجرين والأنصار الذين ربطتهم رابطة الإيمان وانتظمتهم نصرةُ الله ورسوله والجهاد في سبيله بأموالهم وأنفسهم أن يتولى بعضهم بعضًا، ولم يجعل نصيبًا من هذه الولاية لمن لم يهاجر من المؤمنين، إلا في نصرته إن استنصر على من لم يكن بينه وبينهم ميثاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ﴾ [الأنفال: ٧٢].

ثم إنه سبحانه بيّن انحصار ولاء الكفار بعضهم لبعض، حيث قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]، ومعنى ذلك أنه لا يتولاهم إلا من

كان مثلهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وأتبع ذلك ما يترتب على ترك المؤمنين لهذا الواجب حيث قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣].

أما البراءة من الأشخاص فدليلها قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾، إلى أن قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الممتحنة: ٤-٦]، ومن المعلوم أن براءة إبراهيم ومن معه إنما كانت من أشخاص بأعيانهم، ومن بينهم أبو إبراهيم، وقد أوجب الله على المؤمنين التأسي بهم، حيث قال أولًا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾.

ومفهوم ذلك أنَّ مَنْ لَمْ تكن له هذه الأسوة فليس هو مِمَّنْ يرجو الله واليوم الآخر، وزاد ذلك تأكيدًا

قولُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، فإن مثل هذا القول لا يَخْرُجُ إلا مَخْـرَجَ التهديد لِمَنْ أعرض عن الاتباع.

فإن قيـل: إنَّ إبراهيمَ وَمَنْ مَعَه تبـرأوا من القوم المشـركين؛ فلا يقوم من هذا دليل على البراءة من أصحاب الكبائر دون الشرك، كقتل النفس بغير حقٍّ والزنا وأكل الربا وسائر أنواع الظلم والفسوق.

قلنا: إنَّ هذه كبائر تَوَعَّـدَ الله عليها، وقد جاء في كتابه وفي سنة نبيه ﷺ ما يدل على استحقاق فاعلها سَـخَطَ الله ووعيـدَه، ولا شـك أنَّ الإقـدامَ عليها والإصرارَ علـى مُقَارفتهـا عصيانٌ لأمـر الله تعالى وفسـوقٌ عن دينه، وقد أخْبَرَ سـبحانه في كتابه أنه حَبَّبَ إلى عباده المؤمنين الإيْمانَ وكَرَّهَ إليهم الكفرَ والفُسُـوقَ والعصيانَ، وذلك قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجـرات: ٧]. ومِـنْ شأنِ كراهةِ الفعلِ كراهةُ فاعله.

ويؤكِّد ذلك ما جاء على لســـان رسول الله ﷺ مِمَّا يدل على براءته مِمَّنْ فَعَلَ الكبائر دون الشرك، كقولِهِ: «مَنْ غَشَّــنا فليس منــا»[(١)]، وقولِهِ: «ليس مِنَّــا مَنْ لَطَمَ الخُدُودَ وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجاهلية»[(٢)]. ومِثْلُهُ ما جاء على لســـانه مِنْ لَعْنِهِ مَنْ أتَـــى بعض الكبائر، كَلَعْنِهِ الْمُتشـــبِّهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النســـاء بالرجال[(٣)]، كمـــا في حديث ابـــن عباس عند البخاري، وكقولِهِ: «لَعَنَ اللّٰهُ الرِّبا وآكلَه ومؤكلَه وكاتبَه وشاهِدِيه»[(٤)]، وقولِهِ: «لَعَنَ اللّٰهُ الْمُحَلِّلَ والْمُحَلَّلَ لَهُ»[(٥)].

(١) أخرجه الإمام الربيـــع في كتاب: البيوع، باب: في الربا والانفساخ والغش (٥٨٢).

(٢) أخرجـــه البخاري في كتـــاب: المناقب، بـــاب: ما ينهى عن دعوى الجاهلية (٣٥١٩)، ومســـلم في كتاب: الإيمان، باب: تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية.

(٣) **لَعْن الرسول ﷺ الْمُتشـــبِّهين من الرجال بالنســـاء والمتشبهات من النساء بالرجال**: أخرجه البخاري في كتاب: اللباس، باب: المتشبهون بالنساء والمتشبهات بالرجال (٥٨٨٥) من طريق ابن عباس.

(٤) أخرجه أبو داوود في كتابك البيوع، باب: في آكل الربا ومؤكله (٣٣٣٣)، والترمذي في كتاب: البيوع، بابك ما جاء في أكل الربا (١٢٠٦).

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب: النكاح، باب: في التحليل(٢٠٧٦)، والترمذي في كتابك النكاح، باب: ما جاء في المحلل والمحلل له (١١١٩).

فلا رَيْبَ في كونِه ﷺ بريئًا من هذه الأعمال وفاعلها، وللمؤمنين فيه أسوةٌ حسنةٌ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ثُمَّ إِنَّ المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أشارَ إلى **وَلاية الحقيقة وبراءَتِها** بقولِهِ:

٤٢. وَكُلُّ مَنْ عَصَمَ الْمَوْلَى وَلايَتُهُ
فَرْضٌ كَعُدْوَانِ مَنْ إِيَّاهُ قَدْ خَذَلا

ويعني به أن ولاية الحقيقة فريضة على المؤمن لكل من عصمه الله من الهلاك، سواء كانت هذه العصمة **عصمة من الوقوع في الأعمال المهلكة** كعصمة الملائكة، الذين قال الله فيهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقال فيهم: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، وقال فيهم أيضًا: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وَمِثْلُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ، فَقَدْ أثْنَى اللهُ عليهم في كِتَابِهِ وَوَصَفَهُمْ بأنَّهم مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ، وأنَّهم مِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ، مَعَ مَا جَاءَ في كتابِهِ مِنْ قَوْلِهِ لإِبْلِيسَ ـ لَعَنَهُ اللهُ ـ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وهؤلاء هم من أخص عباده، فلا سلطان للشيطان عليهم، وأما ما كان من عتاب الله لبعضهم وذكر اعترافهم بذنوبِهِمْ ونسبة العصيان إليهم فإنَّما ذلك لعلو قدرهم، فالصغير في حق غيرهم كبير في حقهم، وقد قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فما بالك بالمرسلين الذين هم أشد قربًا وأقرب مَنْزِلَةً وأجلُّ قدرًا؟ وعلى أي حال فهم لا يُقَرُّون على باطل ولا يُصِرُّون على ما فعلوا، وإنَّما تتجدد توبتهم إلى الله في كل حين.

أو كانت **عِصْمَةً من الموت على ما يسخط الله** من المعتقد الباطل أو العمل الفاسد أو القول المنكر، كما هو شأن الذين كتب الله لهم النجاة من الرَّدى، فأنقذهم من الضلال إلى الهدى، وأخرجهم

من الظلمات إلى النور، وباعدهم من الغي والفساد، ومن هؤلاء من كان من قبل على ملة الإشـــراك بالله فأنقذه الله منها كسحرة فرعون.

وبالجملة فإن كل مــن ثبتت عصمته من الهلاك بالدليل القطعي أو ثبت رضـــى الله تعالى عنهم أو أنهم مـــن أوليائـــه وأصفيائـــه، أو أنهم مـــن حزبه المقربيـــن؛ فهم أوليـــاء بالحقيقة ســـواءً كانوا غير معيّنين بأشـــخاصهم كعموم الملائكة وجلة الأنبياء والمرسلين، أو كانوا معيّنين كالمنصوص عنهم من الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ومثل ذلك امرأة فرعون ومريم ابنـــة عمران والرجل الذي جاء من أقصـــى المدينة وهو يســـعى آمرًا قومـــه باتباع المرسلين.

ويقابل هذه الولاية ما يجب من براءة الحقيقة من كل مَن ثبت خذلان الله تعالى لَهُ وسَخَطُه عليه، وأنه من أهـــل العذاب، ســـواءً كانـــوا غيـــر مَحْصُورين كالشـــياطين وأوليائهـــم الذيـــن ماتوا علـــى كفرهم

وفسقهم، أو كانوا مذكورين بأسْمَائهم كفرعون وقارون وهامان، وبنُعوتِهم وأوصافهم كأصحاب الأخدود والذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، وكذلك امرأة نوح وامرأة لوط، أو بالكنى كأبي لهب، وقد سَبَقَ بيانُ هذا القسم من الولاية والبراءة كسائر الأقسام مع بيان طائفة مِمَّا يتعلق به من الأحكام.

٤٣. وَكُنْ مُوَالٍ إِمَامَ الْمُسْلِمِينَ وَمَنْ
حَوَتْهُ طَاعَتُهُ إِلا الَّذِي انْخَزَلا

يعني أنَّ مِنَ الواجب على المسلمين أن يوالوا إمامهم الشرعي الذي اختير للإمامة وبويع بيعة شرعية من قبل أهل الحل والعقد من المسلمين، والتزم العمل بكتاب الله وسنة رسوله ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ، فإن ولايته واجبة على الأمة كطاعته، ما لَمْ يُحْدِثْ حدثًا ينقض هذه الولاية ويسقط طاعته عن رقاب العباد، لأن طاعته وولايته كليهما مرهونان بطاعته هو لربه ووفائه بعهده،

والتزامه ما التزمه من القيام بأمر المسلمين وفق نظام الحق وطبق معايير العدل.

فإن حاد عن ذلك كان كغيره في وجوب إنزاله حَيْثُ أنزلَ نفسه، فتجب استتابته، فإن تاب قُبِلَتْ توبَتُه واستمرَّتْ ولايَتُه وبقيت إمامته، إلا أن يكون الحدث الذي ارتكبه موجبًا لإقامة حدٍ عليه، فهنا يجب على جماعة المسلمين بعد ثبوت ذلك الحدث عليه أن يخلعوا طوق الإمامة عن رقبته، ويَخْتاروا مِنَ الْمُسلمين مَنْ يتولَّى هذا الْمَنْصِبَ فيقيم عليه الْحَدَّ الواجب، لأنه وغيره في حدود الله سواء، فإن تاب قبلت توبته، ولكنه يظل غير أهل للإمامة، وقيل بل على جماعة المسلمين إقامة الحد عليه واستتابته، فإن تاب قبلت توبته وعادت إليه الولاية واستمرت إمامته فيهم.

والقول الأول هو الأرجح، نظرًا لِمَا لِمَنْصِبِ الإمامة من قدر، ولا ريب أن ارتكاب الإمام موجب الحد وظهور ذلك بين الناس حيث أنزل به ما يستحقه

من العقاب يَجْعَلُه عُرْضَةً لسخرية الساخرين وتَنَدُّرِ سفهاء الناس، فلا تبقى له في نفوسهم هيبة، وذلك منافٍ لِمَا يَجِبُ أن يكون عليه الإمام من الهيبة والوقار وتقدير عامة الناس وخاصتهم له، فبِدُونِ ذلك ينحَلُّ النظام وتعم الفوضى.

وإن كان ما أتاه من حدث لم يطلع عليه إلا أحد بعينه من المسلمين؛ كان على ذلك أن يصارحه بِمَا اطلع عليه، وأن يطلب منه التوبة إلى الله والرجوع إلى الحق، فإن تاب قَبِلَ منه، وإن أصرَّ تَبَرَّأَ منه سرًّا، لئلا يبيح البراءة من نفسه، وأبقى له الطاعة فيما إذا لم يأمره بِمَعْصِيَةِ الله تعالى، حفاظًا على وحدة الأمة واستقامة أمرها.

وقولُه: «**ومن حوته طاعته**» يعني وجوب ولاية من كان من رعايا إمام المسلمين مُنْقادًا لِحُكْمِهِ مُذْعِنًا لطاعته، لَمْ تَبْدُرْ منه بادرة سوء، ولَمْ يُخَالِفْ شرع الله تعالى، لأن من كان كذلك فهو

من أهل الاصطفاء، لأن سيرته تُرْتَضَى وقد نَهَجَ منهج الحق.

فإن قيل: ما وجه تخصيص من كان من رعايا إمام المسلمين بِهَذا الحكم، مع أن الولاية حق لكل من استقام على الطريقة ولو كان من رعايا الجبارين؟

قلنا: هذه هي ولاية بَيْضَةِ المسلمين، لأن الأصل في جماعة المسلمين ـ مع اسْتِتْبَاب الحكم الشرعي وإقامة حدوده، وتنفيذ الأحكام على القوي والضعيف ـ أن تكون أحوال المسلمين في إطار دولتهم على نَهْجِ الاستقامة، إلا مَنْ بَدَرَتْ منه بادرة سوء فظهرت مُخَالَفَتُه لأحكام الدين أو تَمَرُّدُه على إمام المسلمين، فالواجب في حقه ما هو حقيق بأمثاله من البراءة والإبعاد عن هذا التكريم، لأنه انْخَزَلَ ـ أي انقطع ـ عن ركب جماعة المسلمين، وهو معنى استثناء المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ حيث قال: «**إلا الذي انْخَزَلا**».

٤٤. وَعَـــادِ في الدِّينِ جَـبَّارًا وَعَامِلَـهُ
وَمَنْ لَـــهُ في سَبِيلِ الْمُكْـــفِرَاتِ تَلا

٤٥. لا كُلَّ مَنْ قَدْ حَوَى سُلْطَانُ عِزَّتِـهِ
إِذْ قَـــدْ يَكُونُ هُـــنَاكَ مُؤْمِـــنٌ دَخَلا

كما تجب ولاية الإمام العادل تجب البراءة من ضده وهو الإمام الجائر، لفساده وجوره، وكذا كل من شدَّ أَزْرَهُ وأعانه على بطشه وظلمه، وهو المراد بـ «**عامله**».

ولكن لا ينطبق هــذا الحكم على جميع الذين شَــمِلهم حكمه وكانــوا لــه رعية، فقــد يضطر الصالِحُــون إلــى العيــش تحت نير أهــل الظلم والاستبداد، كما كان ذلك في عهد بني أمية، فكم من صالِــحٍ اضطرته الأقــدار إلــى العيش تحت سلطتهم، وإلى اتقاء بطشهم وظلمهم، وناهِـــيكَ بِمَــنْ كان تَحْــتَ وطأتِهِــمْ مِنْ خيــار الصحابة والتابعيــن، كعبدالله بن عُمَــرَ وعبدالله بن عباس

وأنس بن مالك وجابر بن زيد وجعفر بن السَّمَّاك وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وضُمام بن السائب وأبي الحُرِّ علي بن الحصين وأبي نوح صالح الدهان وغيرهم من أهل البر والصلاح والتقوى، كما وُجِدَ ذلك في الأمم السابقة كامرأة فرعون ومؤمن آل فرعون، فلا يَضِيرُ أحدًا في دينه أن تَعْلُوَهُ يَدُ جَبَّارٍ مفسدٍ مع استقامته على الحق وعدم تفريطه فيما بينه وبين ربه.

والمراد بولاية الإمام العدل والبراءة من إمام الجور: إمامُ الزمان، فإن على المسلم أن يكون عالِمًا بِحَال إمام زمانه، ليطيعه إن كان من أهل الطاعة، ويَحْذَرَهُ إن كان من أهل الجور، وكذلك تجب ولاية من اشتهر بالصلاح والعدل والتقوى من الأئمة الغابرين والبراءة من أضدادهم.

٤٦. ثُمَّ الوَلايَةُ تَوْحِيدًا تَكُونُ وَأُخْـ * ـرَى طَاعَةً فُرِضَتْ إِنْ شَرْطُهَا حَصَلا

٤٧. كَذَا البَرَاءَةُ، وَالشَّرْطُ الَّذِي وَجَبَتْ * بِهِ الوَلايَةُ: أَنْ تُلْفِيهِ مُمْتَثِلا

يعني أن الولاية تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون مقرونًا بتوحيد الله تعالى، لأنه مِمَّا يندرج في الاعتقاد، ومنها ما يكون من ضمن الطاعات، لأنه مِمَّا يندرج في الأعمال، وكذلك البراءة.

فولاية الجملة وبراءة الجملة داخلتان في الاعتقاد المفروض على العباد، وكذلك ولاية الحقيقة وبراءة الحقيقة، لأنهما لا تَجِبَان إلا بنصٍّ قطعي، فتركهما إنكار للنص وإعراض عنه، ولذلك يكفر كفر شرك من أنكر ولاية الجملة وبراءتها، أو ولاية الحقيقة وبراءتها.

وذلك بِخِلاف ولاية الظاهر وبراءته، فمن أنكرهما فهو فاسق، وكُفْرُهُ كفرُ نعمة لا يخرجه من

ملة الإسلام، والإتيانُ بِهِمَا من الطاعات العملية، وتركهما من المعاصي، وقد سبق أن الولاية مشروطة بامتثال مَنْ تتولاه أمْرَ الله تعالى فعلًا وتركًا، وهو معنى قول المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «**والشرط الذي وجبت به الولاية أن تلفيه مُمْتَثلا**».

٤٨. وَرَبُّنَا لَمْ يَزَلْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِيْـ * ـيًا هَكَذَا وَعَدُوًّا لِلَّذِي نَصَلا

٤٩. وَهَكَذَا أَبَدًا لَيْسَ الزَّمَانُ وَلا الْـ * أَفْعَالُ تَقْدَحُ فِيهِ، خُذْهُ مُنْتَحِلا

يعني أن ولاية الله لأوليائه وعداوته لأعدائه أَزَلِيَّتانِ لا تتبدلان بتغير الأحوال ولا بتقلب الأزمان، فإن الله لَمْ يَزَلْ عليمًا بأحوال عباده، وما سيؤول إليه أمر كل أحد منهم من صلاح الصالحين ورشد الراشدين، أو فساد المفسدين وضلال الغاوين.

فهو تعالى **وَلِيٌّ** لأوليائه الذين علم انقلاب

أمرهم إلى الصلاح والتقوى، وإن كانوا قبل ذلك على فجور وضلال كسحرة فرعون، فإنَّهم أولياء لله ﷻ حتى حين عتوهم في الكفر، عندما انبروا لِمُغَالَبَةِ موسى ﵇ رغبةً في إزهاق الحق الذي جاء به، وهو عَـدُوٌّ لأعدائه الذين علم أنهم سينقلبون إلى الفساد والغي، حتى في حين عبادَتِهم له وامتثالهم أوامره، كإبليس فإنه عدو لله قبل طرده، كما أنه عدُوٌّ له بعد طرده، ولَم تُغْنِ عنه من الله عبادتُه شيئًا، وكالذي آتاه الله آياته فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين، فهو عدو لله قبل تَلَبُّسِهِ بِهذه الضلالة، كما أنه عَدُوٌّ له بعدها.

وبِهَذا يتبين أن ولاية الله لعباده أزلية أبدية، وكذا عداوته للمجرمين، لا يؤثر عليهما ما يحدث منهم من أفعال الخير أو الشر، لأن خاتِمَةَ كل منهم معلومة له تعالى، وبِحَسَبِهَا كانت ولايته لمن تولاه وعداوته لمن عاداه.

٥٠. لَكِنَّنَا قَدْ تُعُبِّدْنَا بِطَاعَتِهِ
فَكُلُّنَا عَامِلٌ بِمَا لَهُ جُعِلا

يعني أن الله ﷻ تعبدنا بطاعته، مع علمه سبحانه بِمَصير كل منا، وولايته لمن صلح وبراءته من المفسدين، وما منا إلا هو **عامل بِمَا جُعِلَ له** ـ أي خُلِقَ ـ كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ عندما قيل له: أفلا نَتَّكِل ؟ فقال: «اِعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»[١]، ذلك لأن صلاح مَنْ صلحَ وفسادَ مَنْ فَسَدَ لَمْ يكن إلا بِمَا اختاره لنفسه، نسأل الله تعالى العافية في الدارين.

٥١. مَعْنَى مُوَالٍ مُعَادٍ: عَالِمٌ بِهِمُ
وَبِالَّذِي فَعَلُوهُ الجِدَّ وَالْهَزَلا

هذا بيانٌ لمعنى ولاية الله تعالى لأوليائه وعداوته لأعدائه، فإنَّهما راجعتان إلى علمه بخاتِمَةِ كل منهم

(١) رواه البخاري باب قوله: (فأما من أعطى واتقى) رقم (٤٦٦١)، ومسلم باب: في كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابه رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٧).

ومآلِه في الآخرة، وعليه فهما صفتا ذات، وقيل المراد بولايته: توفيقه للصالحين منهم؛ وببراءته: خذلانه للمجرمين، وعليه فهما صفتا فعل.

وقول المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وبالذي فعلوه الجدّ والهزلا**» مُرَادُهُ: الذي يفعلونه، وإنَّما عَبَّرَ بالماضي عن المضارع لأجل تحقق مضمونه، فإن ما علم الله وقوعه لا بد منه.

والْجِدُّ والْهَزْلُ معروفان، وهُمَا ضِدّان، وهُمَا هنا بيانٌ لِمَا أجْمَلَهُ الضمير المنصوب في فعلوه، ولذلك كان الجد بدلًا منه والهزل معطوفًا عليه.

أسئلـة:

١. عدّد أقسام الولاية والبراءة إجمالا؟

٢. ما هو أول قسم يجب على الإنسان من تلك الأقسام؟

٣. وضّح معنى ولاية الجملة وبراءة الجملة؟

٤. تنقسم ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص إلى قسمَين، اذكرهما؟

٥. ما المقصود بولاية الظاهر وبراءة الظاهر؟

٦. كيف تثبت الولاية الظاهرية؟

٧. هل هناك فرق بين طرق الولاية والبراءة بحكم الظاهر؟

٨. ما حُكم مَنْ لم نعرفه بصلاح أو فجور؟

٩. مِنْ أين تثبت ولاية الحقيقة وبراءة الحقيقة؟

١٠. هل كان النبي ﷺ يتولّى ويبرأ بحكم الظاهر؟ وما الدليل؟

١١. ما الفرق بين ولاية الحقيقة وبراءتها والولاية والبراءة بحكم الظاهر؟

١٢. في أيّ أقسام الولاية والبراءة يكون الوقوف؟

١٣. فيمَ تتفق ولايــة الجملــة وبراءتها وولايــة الحقيقة وبراءتها، وفيمَ يختلفان؟

١٤. هل يمكن أن يكون وليّ الحقيقة عدوًا في الجملة أو العكس؟

١٥. هل يمكــن أن يكون الوليّ بحكــم الظاهر عدوًا في الجملة أو العكس؟ ولماذا؟

١٦. هل اتفق العلماء على وجوب ولاية الجملة وبراءتها؟

١٧. بيّن خــلاف العلماء فــي وجوب ولاية الأشــخاص وبراءتهم؟

١٨. اذكــر الأدلة من القرآن والســنة علــى وجوب ولاية الأشخاص وبراءتهم؟ وبيّن وجه الدلالة منها؟

١٩. مِنْ أدلة وجوب ولاية الأشــخاص ما جاء في سورة الأنفال فــي حديثها عن المهاجريــن والأنصار وعن الكفار، اذكر تلك الآيات وبين دلالتها على ذلك؟

٢٠. ما هو الدليل على وجوب براءة الأشخاص؟

٢١. هل تجب البراءة من أصحاب الكبائر دون الشــرك؟ وما الدليل؟

٢٢. ما هي القاعدة فيمن تجب له ولاية الحقيقة؟

٢٣. بيّن الأدلة على عصمة الملائكة؟

٢٤. هل جميع الأنبياء والرسل معصومون؟ ولماذا عاتب الله بعضهم ونسبه إلى العصيان؟

٢٥. اذكر أمثلة لمن تجب ولايتهم بالحقيقة؟

٢٦. ما هي القاعدة فيمن تجب منهم براءة الحقيقة؟

٢٧. اذكر أمثلة لمن نتبرأ منهم براءة الحقيقة؟

٢٨. هل يجب على المسلمين أن يتولوا إمامهم الشرعي؟

٢٩. مَنْ هو الإمام الذي تجب ولايته وطاعته؟

٣٠. ماذا يجب على المسلمين تجاه إمامهم إذا أحدث حدثا لا يُوجب حدًّا؟

٣١. إذا فعل الإمام ما يوجب الحد، وعلم المسلمون عنه ذلك؛ فماذا يجب عليهم؟

٣٢. هل يعود الإمام إلى منصبه بعد توبته وإقامة الحد عليه؟ بيّن قولك بالدليل.

٣٣. ماذا يجب على من اطلع على حدث للإمام، ولم يشاركه أحد في معرفة ذلك؟

٣٤. هل تجب ولاية جميع رعايا الإمام الشرعي؟

٣٥. ما معنى ولاية بيضة المسلمين؟

٣٦. بيّن حكم البراءة من الإمام الجائر؟

٣٧. هل تجب البراءة من جميع رعايا الحاكم الجائر؟

٣٨. اذكر بعض خيار الصحابة والتابعين الذين عاشوا تحت حكم أئمة الجور؟

٣٩. لقد حكى القرآن الكريم عن بعض الصالحين من رعية فرعون، اذكر الآيات الدالة على ذلك؟

٤٠. هل على المسلم أن يكون عالما بحال حاكم زمانه، ولماذا؟

٤١. الولاية والبراءة تكونان إما توحيدا وإما طاعة، ما معنى ذلك؟

٤٢. ما حكم من أنكر ولاية الجملة وبراءتها، أو ولاية الحقيقة وبراءتها؟ علّل إجابتك.

٤٣. ما حكم مَنْ أنكر ولاية الظاهر وبراءتها؟

٤٤. ما معنى قول الناظم: (والشرط الذي وجبت به الولاية أن تلفيه ممتثلا)؟

٤٥. ما معنى أنَّ ولاية الله لأوليائه وعداوته لأعدائه أزليتان أبديتان؟

٤٦. هل كان سحرة فرعون أولياء لله قبل إيمانهم؟ علّل إجابتك.

٤٧. هل كان إبليس وليا لله قبل أن يطرده الله؟ بيّن السبب.

٤٨. هل للإنسان أن يتكل على علم الله بمصيره ويضيع العمل؟

٤٩. ما معنى ولاية الله لأوليائه وبراءته من أعداءته إذا قلنا إنهما صفتا ذات، وما معناهما إن قلنا إنهما صفتا فعل؟

ذِكْرُ الكُفرِ وَمَا يَشْتَمِلُ عليْه

الكُفْرُ لُغَةً: هو التغطية، ولذلك سُمِّيَ الزارعُ كافرًا، لأنه يُغطّي البَذْرَ بإلقاء التراب عليه؛ قال تعالى: ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]. ومِنْ شواهدِهِ قولُ الشاعر:

* أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا فِي كَافِرِ *

يعني به غروبَ الشمس، فـ «ذُكَاءُ» هي الشمس، وإلقاؤُها يَمِينَها في كافرٍ: كنايةٌ عن اسْتِتَارها وراء الأفق في الغروب. ومنه قولُ لَبِيدٍ:

يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرًا
فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

وهو في الاصطلاح كُفْرَانِ: كفرٌ بالله وكفرٌ بنعمته.

❖ **فالكُفْرُ بالله:**

هو الإشراكُ به سبحانه، وهو مُخْرِجٌ من مِلَّةِ الإسلام، وسيأتي ـ إنْ شاءَ الله ـ بيانُه قريبًا مَقْرُونًا بِحُكْمِهِ في شرح كلام المُصَنِّف.

❖ وأمَّا **الكُفر بنِعْمَتِهِ تعالَى:**

فهو صَرْفُ ما أنْعَمَ بِهِ ﷻ على عبده من نعمه الظاهرة أو الباطنة إلى ما لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أجْلِهِ من الطاعة، ويكون ذلك بالإعراض عن مفروضاته تعالَى أو ارتكاب مَحْظُوراته، وهو بِهَذا الْمَعنى نقيضُ الشُّكْرِ، لأنَّ الشُّكْرَ صَرْفُ العبد ما أنعم الله به عليه من النعم في طاعته.

ومِنْ **أدلَّتِهِ** قولُه تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وقولُهُ حِكَايَةً عن سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وقولُهُ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ

﴿إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وذلك أنَّهُ جَعَلَ تَرْكَ الحجّ كُفْرًا.

وقد وَرَدَتْ بِهِ أحاديثُ كثيرةٌ، حتى إنَّ مُسْلِمًا أفْرَدَ لَهُ بابًا في صَحِيحه، وتَرْجَمَ لَهُ البُخَارِيُّ بقولِهِ: (كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ). ومِمَّا جاءَ فيه قولُ النبي ﷺ: «سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وقِتَالُهُ كُفْرٌ»[١]، وقولُهُ: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[٢]، وَمَا رَوَاه الرَّبيعُ رَحِمَهُ اللهُ مِنْ قولِهِ ﷺ: «مَنْ أَتَى رَجُلًا شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ أَوْ أَتَى النِّسَاءَ في أعْجَازِهِنَّ فَقَدْ كَفَرَ»[٣]، وقولِهِ: «لَيْسَ بَيْنَ العَبْدِ والكُفْرِ إِلَّا تَرْكُهُ الصَّلاة»[٤] وفي روايةِ غَيْرِ الرَّبيع: «بين الرَّجُلِ والكفر»[٥]. وحديثُ بُرَيْدَة

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان/ باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله (٤٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الفتن/ باب: الإنصات للعلماء (١٢١).

(٣) أخرجه الإمام الربيع في الزيادات/ باب: الحجة على من قال إن أهل الكبائر ليسوا بكافرين (٧٤٨).

(٤) أخرجه الإمام الربيع في كتاب: الصلاة/ باب: جامع الصلاة (٣٠٣).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب: الإيمان/ باب: بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (٨٢).

عند الجَمَاعة إلا البخاري: «العَهْدُ الذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»(١).

ويَخْتلفُ هذا الكفر عن سابقه بأنَّهُ لا يُخْرِجُ صاحبَه من مِلَّةِ الإسلام، بلْ يُعَامَلُ في الحياة الدنيا معامَلَةَ المسلمين إلّا في الوَلاية؛ فإنَّها اصطفاءٌ لا يكون إلّا لِمَنْ ثَبَتَ صَلاحُهُ وتَقْواه.

وقد أَثْبَتَهُ أصحابُنا ـ رحمهم الله ـ باتفاقٍ، وقال بِهِ كثيرٌ من أهل الحديث وجماعةٌ من الْمُحَقِّقِينَ، وأَنْكَرَهُ أكثرُ أهلِ العلم مِنْ غَيْرِنَا، وقد حَارُوا في فَهْمِ هذه النصوص وما تُحْمَلُ عليه، فمنهم من قال: إنَّ المرادَ بِهَا الْمُبالَغة، وأنَّ هذه الأعمال هي في الأصلِ أعمالُ الكَفَرة، ومنهم مَنْ حَمَلَها على من أَتَى بِمَا ذُكِرَ مُسْتَحِلًّا، وذَهَبَتْ طائفةٌ كالحنابلة إلى أنَّ تارِكَ الصلاة مِنْ بَيْنِ هؤلاءِ

(١) أخرجه النسائي في كتاب: الصلاة / باب: الحكم في تارك الصلاة (٤٦٢)، والترمذي في كتاب: الإيْمان / باب: ما جاء في ترك الصلاة (٢٦٢١)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة/ باب: ما جاء في ترك الصلاة (١٠٧٩).

كُفْرُهُ كُفْرُ مِلَّةٍ، ومعناه أنَّه يُعَامَلُ معاملة المشركين في الحياة الدنيا.

وهذا كُلُّهُ فِرارٌ من الواضح إلى المُشْكِل، فإن الدلائل قائمة على أن المرادَ بالكفر فيما ذُكِرَ كُفْرُ النِّعْمَة، فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ لعبادة الله تعالى، والعبادةُ هي مُنتَهَى الخضوع والتواضع والانقياد، وخُلِقَ لَهُ ما في الأرض جَمِيعًا، وسُخِّرَ لَهُ ما في الوجود، ليكون ذلك كلُّه عَونًا على القيام بِحُقوق العبادة والطاعة، فإنْ هو شَذَّ فَسَخَّرَ شيئًا من طاقاته أو شيئًا من هذه الْهِبَات الأخرى للاستعانة بِهِ على معصية الله تعالى كانَ ذلك جَحْدًا معنويًا لِمَا أنْعَمَ الله عليه من تِلْكُمُ النعمة التي انْحَرَفَ بِهَا عن سواءِ السبيل، وهو عَيْنُ الكفر لُغَةً، فإنْ هو أَصَرَّ على ذلك كان حَقيقًا بوصف الكفر، وبِهَذا يتبين لكَ أنَّ الإصرارَ على أيِّ كبيرةٍ هو كفرٌ بنعمته سبحانه، سواء كانت فعلًا أو تركًا.

هذا؛ وقد بيّن الْمُصنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى النوعَ الأكبرَ من الكفر وهو الشِّرْكُ حيثُ قال:

٥٢. وَالشِّرْكُ لا بُدَّ مِنْ أَنْ تَعْرِفَنْهُ لِكَيْ
تَكُونَ في مَقْعَدٍ عَنْ غَيِّهِ اعْتَزَلا

٥٣. وَهْوَ الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ اللهِ - جَلَّ - وَبَيْـ *
ـنَ الخَلْقِ أَوْ جَحْدُهُ سُبْحَانَهُ وَعَلا

يَعني أنَّهُ لا بُدَّ لكَ من معرفة الإشراك بالله، لأَجْلِ أنْ تكونَ بِمَنْأىً عنه، وهو ينقسم إلى قسمين: شِرْكِ مُسَاوَاةٍ وشِرْكِ جُحُودٍ.

❖ فالْمُسَاواةُ:

أنْ يُسَوِّيَ بين الله وبينَ خَلْقِهِ في شيءٍ، فَمَن اتَّخَذَ معَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فقد سَوَّى بين الله تعالى وبين غيره؛ إذْ جَعَلَ الأُلُوهِيَّةَ مُشْتَرَكَةً بينه وبين شريكه، ومَنْ زَعَمَ أنَّ للهِ ﷻ مُعينًا أو وزيرًا أو مُشيرًا فقد سَوَّى بين الله وبين غيره في الاحتياج إلى مَن احتاج إليه، وكذلك مَنْ زَعَمَ أنَّ للهِ صاحبةً أو وَلَدًا فقد سَاوَاه تعالى بغيره في ذلك، ومِثْلُهُ إنْ زَعَمَ أنَّ اللهَ سبحانه حادثٌ أو فَانٍ، أو وَصَفَهُ بأيِّ صِفَةٍ من

صفات الخلق، فقد ساواه تعالى بِخَلْقِهِ في الاتصاف بتلك الصفة.

❖ وأمَّا **الجُحُودُ**:

فهو أنْ يَجْحَدَ وُجـودَ اللهِ تعالى، أو ما عُرِفَ مِنَ الدِّين بالضَّرُورة من صفاته وأفعاله، كأَنْ يَجْحَدَ كونه عالِمًا أو كونَه سَـمِيعًا أو بَصيرًا أو قَديرًا، أو يَجْحَدَ خَلْقَهُ الخَلْقَ أو إِمَاتَتَهُمْ، أو بَعْثَ العُقَلاء وحِسَابَهُمْ، أو أنْ يَجْحَدَ إِثَابَتَهُ للمُطيـع وعقوبَتَهُ لِمَنْ عَصَاه، أو يَجْحَدَ إِنْزَالَهُ لِلْكُتُبِ أو إرسَـالَهُ للرُّسل، ويدخُلُ في ذلك ما لَوْ جَحَدَ وَلَوْ رَسُـولًا واحدًا أو كتابًا واحدًا مِمَّا ثَبَتَت الحُجَّةُ بِه، أو يَجْحَـدَ حُكْمًا مِنَ اللهِ أَنْزَلَهُ في كتابه، أو خَبَرًا أَخْبَرَ بِه، فإنَّه بِذَلِكَ كُلِّهِ يكونُ في عِدَادِ المشركين.

وهذا التقسـيمُ ليـس مَنْصُوصًا عليـه، وإنَّمَا هو اصطلاحٌ لأصحابنا، وإلَّا فيُمْكِنُ عند التحقيق أن يُرَدَّ الشركُ كُلُّهُ إلى المساواة أو إلى الجحود.

والأصلُ في **الإشــراكِ** لُغَةً: جَعْلُ شــريكٍ لأَحَدٍ. والكفرُ يشملُ الإشراكَ كما يشمل كفرَ النعمة، وإنّما هو في الإشراكِ أَغْلَظُ، فهو مُخْرِجٌ من مِلَّةِ الإسلام، فَلا تَوَاصُلَ بين الْمُشــركين والْمُسلمين بِجَوازِ تَنَاكُحٍ ولا تَوَارُثٍ ولا دَفْنٍ في مقابر الْمُســلمين، ولا القيامِ بأيِّ حقٍّ من حقوق الْمَوْتَى إلا الدَّفْنْ.

٥٤. وَمَا سِـوَاهُ مِنَ الكُــفْرَانِ يَلْزَمُـنَا
أَيْ عِلْمُــهُ إِنْ عَلِمْــنَا حُكْمَهُ الفَصِلا

٥٥. مَا لَمْ نَكُنْ رَاكِـبِيهِ أَوْ نُصَوِّبُ مَنْ
يَأْتِيــهِ عَمْدًا وَجَهْلا، هَكَــذَا نُــقِلا

يعني أنَّ مَا عَدَا الشِّرْكَ مِنَ الكفر ـ وهو **كفرُ النِّعْمَةِ** السَّالِفُ الذِّكر ـ يَلْزَمُنا عِلْمُهُ بقيام الحجَّة بِه، واختُلِفَ فيمن تقوم به الحجة فيما يســع جهلُه نحو هذا، فقيل لا تقوم إلّا بعَدْلَيْنِ، وقيل بل تقوم بِعَدْلٍ واحدٍ.

ومُرادُهُ بِهَذَا جميعُ الْمَحَارِمِ من الأفعال والأقوال التي هي دونَ الإشراك، وهي كالزِّنا وأكْلِ الرِّبا وقتلِ

النفس المحرَّمةِ بغير حقٍّ، وشُــرْبِ الخمر وعقوقِ الوالدين وقطــعِ الرَّحِــمِ، والســرقةِ وأكلِ أموالِ اليتامى ظلمًا وأكلِ أموال الناس بغير حق، والغِيبَةِ والنميمــةِ وقــذفِ المُحْصَنَات والتجسُّــسِ على العَوْرات، والسُّــخْرِيَةِ من المؤمنين أو المؤمنات، فإنَّ ذلك كُلَّه مِمَّا **يَسَــعُ المســلمَ جَهْلُهُ ما لَمْ تَقُم الحجةُ بِهِ؛** إلّا إِن ارتكَبَــه، أو تَوَلَّى راكِبَه، أوْ تَبَرَّأَ من عالِمٍ تَبَرَّأَ من راكِبِه، أو وَقَفَ عن وَلايته بسببِ براءته تلك، فَبِكُلِّ ذلــك يَضيقُ عليه جهلُه ويجب عليه علمُه، فتقــوم عليه الحجة عندئذٍ بــأيِّ مُعَبِّرٍ يُعَبِّــرُ لَهُ عن حكمه ولــو كان كافرًا، كما شَــرَحَهُ الإمــامُ أبــو ســعيدٍ فــي اســتقامته، وبَسَــطَهُ الْمُصــنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ في مَشَارِقِه، وقد تَضَمَّنَ ذلك كُلَّه الأَثَــرُ الْمَرْوِيُّ عــنِ الإمام أبي الشَّــعْثاء جابرِ بن زيــد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيثُ قال: «يَسَــعُ النــاسَ جَميعًا جَهْلُ ما دَانُوا بِتَحْرِيــمِهِ؛ مَا لَمْ يَرْكَبُوهُ أو يُصَوِّبوا راكِبَه أو يَتَبرَّأوا مِنْ عالِمٍ تَبرَّأَ مــن راكِبِه أو يَقِفُوا عنه»، وحُكِيَ انعقادُ الإجماعِ عليه.

أسئلـة:

١. ما معنى الكفر في اللغة؟

٢. ينقسم الكفر في الاصطلاح إلى قسمين، اذكرهما؟

٣. اشرح المقصود بكفر النعمة؟

٤. ما الدليل على صحة مصطلح (كفر النعمة) من القرآن الكريم؟

٥. اذكر بعض الأحاديث التي أطلقت لفظ الكفر على صاحب المعصية غير الشرك؟

٦. ما حكم كافر النعمة في الدنيا؟

٧. مَنْ قال مِنَ المذاهب الإسلامية بإثبات كفر النعمة؟ ومَنْ أنكره؟

٨. الذي أنكر (كفر النعمة) كيف فسر الأحاديث الدالة عليه؟

٩. وضّح الدليل على صحّة تسمية المعصية بكفر النعمة؟

١٠. لماذا يطالب المرء بمعرفة الشرك؟ اذكر مِنَ القصيدة ما يدلّ على إجابتك.

١١. ينقسم الشرك بالله إلى قسمين، اذكرهما؟

١٢. متى يُعدّ الإنسان مشركا بالله شرك مساواة؟

١٣. عرّف شرك الجحود؟ واذكر أمثلة عليه؟

١٤. ما معنى الإشراك في اللغة؟

١٥. أيهما أغلظ: كفر الشرك أم كفر النعمة؟ ولماذا؟

١٦. بماذا تقوم الحجة لمعرفة المحرمات من غير الشرك؟

١٧. متى يضيق على الإنسان معرفة المُحرّم ولا يسعه جهله؟

قَـوَاعِـدُ الكُفْـرِ

٥٦. جَهْلٌ، حَمِيَّةٌ، كِبْرٌ، بَعْدَهُ حَسَـدٌ
قَوَاعِـدُ الكُفْرِ، فَاحْـذَرْ دَاءَهَا العُضَلا

القَوَاعِـدُ جَمْعُ قاعـدَةٍ، وهي الأصـلُ. يَعني أنَّ أصولَ الكفر بِقِسْمَيْهِ ـ وهُمَا الشـركُ وكفرُ النعمة ـ أربعةٌ: وهي الجَهْلُ والحَمِيَّةُ والكِبْرُ والحَسَدُ.

وقد حَذَّرَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ من داءِ هذه العِلَلِ **العُضَلِ** أي العُضَال، و**الدَّاءُ العُضَالُ** هـو المرض الذي أعْيَا الأطبَّاءَ علاجُه، وقد عَدَّها كذلـك لأنَّها مُهْلِكَةٌ لِمَنْ لَمْ يتخلَّصْ منها بتوفيق الله تعالى إيَّاه.

❖ وأوَّلُها: **الْجَهْلُ**

وهو عَـدَمُ الْمَعرفة بِمَا مِـنْ شـأنِهِ أنْ يُعْرَفَ، فهو نقيضُ العلمِ، وينقسـم إلى قسمين: بسـيطٍ ومُرَكَّبٍ، فالبسيط: عدم المعرفة بالشـيءِ أصلًا، والمركَّبُ: عدم المعرفة بِهِ مع تصـوُّرِ معرفته على خلاف ما هو عليه،

ولذلك كان أشدَّ؛ فهو مُرَكَّبٌ من جهلينِ: جهلٍ بالشيءِ وجهلٍ بأنه جاهِلُهُ، وهذا الذي عَنَاه الشاعرُ بقولِهِ:

وَمِنْ عَجَبِ الأَيَّامِ أَنَّكَ جَاهِلٌ
وَأَنَّكَ لا تَدْرِي بِأَنَّكَ لا تَدْرِي

والأوّلُ أَخَفُّ لِبَسَاطَتِهِ.

وإنَّما كان الجهلُ من قواعد الكفر لأنه بِقِسْمَيْهِ يعود إلى الجهل غالبًا، فالذين اتخذوا مع الله إلَـهًا آخَرَ أو جَحَدُوا وجودَه رأسًا أو جحدوا صفاته الذاتية أو أفعالَه هُمْ أشدُّ الناس جهلًا؛ وإنْ كان ذلك عائدًا إلى العناد، فإنَّ آياتِ الله تعالى الدالّة على وجوده ووَحْدانيته وسائر صفاته هي مِنْ أَبْيَنِ البيِّنات وأظهرِ البراهين، فالإنسانُ يتلوها على صفحات وجوده بنفسه، إذ ما مِنْ خليَّةٍ من خلاياه إلّا وهي شاهدُ عَدْلٍ على وجود الله وعلى وحدانيته واتصافه بالكمالات، فضلًا عن أصوات سائر الكائنات التي تُنادِي كلُّ ذرَّة من ذرَّاتِهَا بلسانِ حالِهَا مُعْلِنَةً افتقارَها إليه وأنَّها لَمْ توجَدْ إلّا بإِيْجَادِ الله لَهَا.

فمَنْ تعامَتْ بصيرتُه عن هذه الدلائل وتَصَامَمَ سَمْعُهُ عن هذه الشهادات كان أَعْرَقَ النَّاسِ في الجهل وأَضَلَّهُمْ عن الحقيقة، وكذلك مَنْ جَحَدَ رسالاتِه سبحانه إلى مَن اصطفاهم مِنْ خَلْقِهِ لِحَمْلِ أمانته إِلَى عباده، لا سيَّما خاتَمُ الْمُرسَلين وقائدُ الغُرِّ الْمُحَجَّلِين، فمَنْ كَفَرَ بِهِ هو أعمى الناسِ بصيرةً؛ لِظُهورِ برهانه وقَهْرِ معجزته وانكشافِ صدقِه، فلم يَبْقَ أمامَ مَنْ جَحَدَ رسالتَه إلّا العنادُ والمكابَرَة.

❖ ثانيها: **الْحَمِيَّة**

وهي العَصَبِيَّةُ الباطلة، فإنَّها تُعْمِي بصيرةَ صاحبِها حتى يَجْعَلَ الباطلَ حقًّا والْحَقَّ باطلًا، وهي من شأنِ أهل الْجَاهلية؛ قال تعالَى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

وإنَّما كانت من قواعد الكفر لأنَّها تَحُولُ بين مَن اسْتَحْكَمَتْ في نفسه وبين اتِّباع الْحَقِّ، فقد يَرَى الْحَقَّ بأُمِّ عينيه ولا يَصُدُّهُ عنه إلّا هذه الْحَمِيَّة، كما كان من فرعون وآلِه الذين أراهم الله من آياته ما جعلهم مُوقنين

بصدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكنَّهم أَخْلَدُوا إلى عِنَادِهم، كما قال الله تعالَى فيهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وكذلك شأنُ أولئك الذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، فإنَّ حَمِيَّتَهُمْ لآبائهم صَدَّتْهُمْ عن الخروج عَمَّا أَلِفُوه منهم.

وإنَّ مِنْ شأنِ الحمية أنْ تَدْعُوَ كلَّ طائفةٍ بأنْ تَلْتَفَّ حول نفسها وتدخلَ في حربٍ مع غيرها؛ ولو أيْقَنَ أفرادُها أنَّها ظالِمَةٌ وأنَّ الحق في جانب غيرها، مع أنَّ مُجَرَّدَ الرُّكون إِلَى الظلم مَهْلَكَة، ولو كانَ مَيْلًا بالقلب مِنْ غير أن يكونَ لَهُ أثرٌ على الفعل؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

- ثالثُها: **الكِبْرُ**

وهو أنْ يَتَعَالَى الإنسانُ بنفسِه، وعُرِّفَ بأنَّه: تَسْفِيهُ الحَقِّ وغَمْطُ الخَلْقِ، أي ازدراؤُهم واحتقارُهم. والمتكبِّرُونَ إِمَامُهُمْ إبليسُ ـ لعنَهُ الله ـ فإنَّما عَصَى

اللهَ تبـــارَك وتعالى باســـتكبارِه، إذْ رأى لِنَفْسِهِ مِزِيَّةً على آدَمَ عليه السلام فـقال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وعلَيْهِ فإنَّ الكِبْرَ إِمَامُ الْمَعَاصي، لأنَّ أوَّلَ ما عُصِيَ اللهُ تَعالَى بِه.

والْمُتَكَبِّـــرُ مُتطَاوِلٌ على الله تبـــارك وتعالى، فإنَّ الكِبْرِيَاءَ مِنْ خصائصِه عز وجل، ففي الحديث القُدُسِـــيّ: «الكِبْرِيَـــاءُ رِدَائــي والعَظَمَـــةُ إِزَارِي، فَمَـــنْ نَازَعَني أَحَدَهُمَا قَذَفْتُهُ في النـــار ولا أُبَالِي»(١). ومعناه أنَّ كلَّ واحدةٍ من الصفتين خاصَّةٌ به عز وجل، ليس لِغَيْرِهِ منهما نصيبٌ، كخُصُوصيَّة أحدِنا بِرِدَائِهِ وَإِزَارِه، فلِذَلك كان حَرِيًّا مَنْ تَطَاوَلَ على الله ســـبحانه بِمُنَازَعَتِهِ إحداهما أنْ يَقْذِفَهُ في النار.

وإنَّما كان الكِبْرُ مِنْ قواعد الكفر لأنَّه يَحُولُ دُونَ اتباع الحق، كما في قصَّة إبليسَ ـ لعنه الله ـ، وكذلك أولئك المتكبرون الذين صَدُّوا عـــن الحق صُدُودًا،

(١) أخرجه مســـلم في كتاب: البر والصلة والآداب/ باب: تحريم الكبر (٢٦٢٠).

كقوم نوح وعاد وثَمُـــودَ والذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّهِ وفرعونَ وقومِه، لذلـــك كان كل متكبرٍ مصروفًا عن آيات الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

❖ رابعُها: الْحَسَدُ

وهو تَمَنِّي زَوَالِ نعمة الغَيْرِ، سواء كان هذا التمنِّي مصحُوبًا بِتَمَنِّي انتقالِهَا إلى الحاسد أو مُجَرَّدِ زوالِهَا، وهو دَاءٌ عُضَالٌ يُثْمِرُ العداوةَ والبَغْضَاءَ، فإنَّ الحاسِدَ يَشْعُرُ بِنَارٍ تَضْطَرِمُ بين جَوَانِحِه، يُؤَجِّجُها ما يَراه من نعمة الله تعالى علـــى غيره، فلذلـــك يَتَمَنَّى إطفاءَهَا بزوال تِلْكُمُ النعمة، وقد أجادَ مَنْ قال:

إِنِّي لأَرْحَـمُ حَاسِـــدِيَّ لِحَـرِّ مَا
ضَمِـنَتْ صُـدُورُهُمُ مِنَ الأَوْغَـارِ
نَظَـرُوا صَنِـــيعَ اللهِ بِي فَعُـيُونُهُمْ
فِي جَـنَّـــةٍ وَقُـــلُوبُهُمْ فِي نَـــارِ

وقد يَدْفَعُ الحَسَدُ بِصَاحِبِهِ إلى أنْ يُكَابِرَ الحقيقة التي تَمْلأُ عقلَه وقلبَه فيَجْحَدَها، كمـــا كـان ذلك

من أُمَيَّةِ بنِ أبي الصَّلْتِ؛ الذي كان يَتَطَلَّعُ إلى نُبُوَّةٍ يُشْرِقُ ضياؤُها فَيُبَدِّدُ ظلامَ الجاهلية، فلمَّا أكْرَمَ اللهُ بذلك عبدَه ورسولَه محمَّدًا ﷺ حَسَدَه على ما آتَاه اللهُ وَكَفَرَ به. وهكذا كان صَنِيعُ كثيرٍ من المشركين، إذْ لَمْ يَصْرِفْهُمْ عن الإيمان بِهِ ﷺ إلّا هذا الداءُ.

وهكذا صَنِيعُ اليهود، فإنَّهم كانوا مُوقنين بنبوَّتِهِ ﷺ بِمَا وَجدُوهُ مِنْ نُعُوتِهِ في التوراة، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا، فلمَّا جاءَهم ما عَرَفُوا كَفرُوا بِهِ حَسَدًا أَنْ تَخْرُجَ النبوَّةُ مِنْ بني إسرائيل إلى العرب، ولذلك قال الله تعالى فيهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وبِدَافِعِ الحسد كانوا يَتَمَنَّوْنَ الكفرَ لِلَّذين آمنوا، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقد يَسْعَى الْحَاسدُ إلى الإضْـــرار بالْمَحْسُودِ في جســـمِهِ أو عقلِهِ أو مالِهِ أو ولدِهِ أو أهلِهِ، لِذَلِكَ كُلِّهِ كان من قواعد الكفر.

ولِمَا لِلْحَسَدِ مِنْ أَثَرٍ خطيرٍ في حياة الناس عَلَّمَنَا اللهُ تعالى أنْ نستعيذَ بِهِ مِنْ شرِّ حاسدٍ إذا حَسَد؛ فيما أَنْزَلَهُ في سورة الفَلَق.

ومِمَّا تَقَـــدَّمَ يَتَبَيَّنُ أنَّ الكُفْـــرَ القائمَ على القواعد المذكورة هو أعَـــمُّ مِنْ أَنْ يكونَ كُفْرَ شِـــرْكٍ أو كُفْرَ نِعْمَةٍ، فإنَّ كُلًّا من الجهل والحمِيَّة والكبر والحسـد يَنْشَأُ عنه كلُّ واحدٍ من الكُفْرَيْنِ كَمَا عَلِمْتَ.

أسئلـة:

١. عرِّف القاعدة في اللغة العربية؟
٢. كم عدد قواعد الكفر؟ اذكرها إجمالا.
٣. لماذا كانت قواعد الكفر داء عضالا؟
٤. عرِّف الجهل؟
٥. للجهل قسمان، اذكرهما وبيِّن الفرق بينهما؟
٦. لماذا كان الجهل من قواعد الكفر؟
٧. ما معنى الحمية التي هي من قواعد الكفر؟ وهل ذكرت في القرآن الكريم؟
٨. كيف تكون الحمية سببا في الكفر؟ أوضح إجابتك بالمثال والدليل.
٩. عرّف الكبر؟
١٠. من هو إمام المتكبرين؟
١١. ورد حديث قدسي في التحذير من الكبر؟ اذكره واشرح معناه.
١٢. اذكر أمثلة من المتكبرين الذين ذكرهم القرآن الكريم؟

١٣. ما معنى الحسد؟

١٤. لماذا كان الحسد داء عضالا؟

١٥. اذكر أمثلة من الذين حســـدوا ســـيدنا محمدًا ﷺ من الأفراد أو الجماعات؟

١٦. بيّن آثار الحسد السيئة على الحاسد والمحسود؟

١٧. أين تجد الاستعاذة من شر الحسد في القرآن الكريم؟

١٨. هل قواعد الكفر مختصة بأحد أقسامه؟

الكلمة الطيبة

أَرْكَانُ الكُفْرِ

٥٧. وَرَغْـبَةٌ رَهْـــبَةٌ أَرْكَانُـهُ، وَيَلِيـ * ـــهَا شَــهْوَةٌ غَضَبٌ فِي كُلِّ مَا حُظِلا

يعني أنَّ أركانَ الكفر التي يُشَادُ بِهَا بِنَاؤُهُ هي هذه الأربعة: الرَّغْبَةُ والرَّهْبَةُ والشَّهْوَةُ والغَضَبُ.

❖ فالرَّغْبَةُ:

هي الْمَيْلُ الزَّائِدُ إلـــى الدنيا حتى يَمْتَنِعَ صاحبُه مِنْ أداءِ ما عليه من الحق، ويَحْرِص على أخْذِ حقِّ غيره، وهـــذا هو حُـــبُّ الدنيا الـــذي يُعْمِي بصيرةَ صاحبه، فلا يُبَالي بِمَا يتَرَتَّبُ عليه من خَسَـــارٍ في الدار الآخرة، وهو المـــراد بِنَحْوِ قولِهِ تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وقولِهِ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا

لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقولِهِ: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴾ [الإسراء: ١٨]، وقولِهِ: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩].

وإنَّما كانت الرغبةُ من أركان الكفر لأنَّها إذا استحكَمَتْ في النفس اسْتَوْلَتْ على العقل، وهَيْمَنَتْ على الأحاسيس والْمَشَاعر، فَتَصُدُّ صاحبَها عن اتّباع الْحَقّ، وتَحُولُ بينه وبين الواجب، فكَمْ من خبيرٍ بأنَّ الإسلامَ حقٌّ - مِنْ أَهْلِ الكتاب أو غيرِهِمْ - أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ عن براهينه، وأَصَمَّ أُذُنَيْهِ عن حُجَجِهِ، خَشْيَةَ أن يفوتَه ما يَسْتَمْتِعُ به في حياته الدنيا من مالٍ يأتيه مِنْ قِبَلِ الذين غَرَّرَهُمْ بِضَلالِهِ، أو جاهٍ ومَرْتَبَةٍ عند عظيمٍ من عظماء الكفر، وقد تَصُدُّ هذه الرَّغْبَةُ صاحبَها عن قول الحق، فيُخفي شهادةً تَحَمَّلَها أو يَشْهَدُ زُورًا بِخِلافِ ما عَلِمَ.

❖ وأمَّا **الرَّهْبَةُ:**

فهي الخوفُ الْمُفْـرِطُ الذي يَصْـرِفُ صاحبَه عن الواجب، كأنْ يَخْشَـى أحَدًا مـن الْمَخْلوقين، فيمتنعَ عن اتّباع الحقّ لأجْلِهِ، ومنها خشيةُ الفقر الْمَانعةُ من أداءِ حـقّ الله كالـزكاة، وحقوقِ أهلِـهِ كالإنفاقِ على العِيَال، وقد أَوْقَعَت هذه الخشـيةُ قومًا في مُعَاكَسَـةِ الفطرة بِحَيْثُ انْتَزَعَتِ الرَّحْمَةَ من قلوبِهِمْ فَقَتلوا أفلاذَ أكبادِهم خشيةَ الإمْلاق، ولذلك قال تعالَى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾ [الإسراء: ٣١].

ويَنْـدَرِجُ في هـذه الرَّهبـةِ الامتناعُ عـن الأمرِ بالْمَعروف والنهيِ عن الْمُنكر مع وجوبِهما، وكذلك الفِرَارُ من الزَّحْفِ وعَـدَمُ الثبات لِلْعَدُوِّ وعَدَمُ الدفاعِ عن النفس والدِّين وسائِرِ الحُرُمَات.

❖ وأمَّا **الشَّهْوَةُ:**

فهي مَيْلُ النفس إلى اتّباع الْمَلَـذَّاتِ، وهي تَكُونُ من أركان الكفر عندمـا تَخْرُجُ بصاحبهـا عن حُدودِ ما أباحـه الله تعالى لَهُ مِـنْ مَلاذِّ الحياة إلـى ما حَرَّمَ

عليه، فإنَّ هذه هي الشهواتُ المُحَرَّمَةُ الْمُهْلِكَةُ الصَّارِفَةُ عن الحــقّ، ولذلك قَرَنَ اللهُ بيـــن اتّباعها وبين إضاعة الصلاة في قوله تعالـــى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

❖ وأمَّا **الغَضَبُ**:

فهو انفعالٌ نَفْسِيٌّ يَدْفَعُ بصاحبه إلى الانتقام من الغير، وإنَّمـــا هو مِـــنْ أركان الكفر عندمـــا يَدْفَعُ إلـــى الانتقام بالباطل كما هو شَـــأْنُ المُجْرِمينَ، أمَّـــا إنْ كان غَضَبًا للهِ تعالى حينمـــا تُنْتَهَكُ حُرَمُـــهُ ويُضَاعُ دينُه فهـــو مِنْ أَجَلِّ الْمَحَامِـــدِ، وقد وَصَـــفَ اللهُ المؤمنيـــن بقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وبقولِهِ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وإنَّما تَكُونُ هـــذه الخصالُ أَرْكانًـــا للكُفْرِ عندما تَدْفَـــعُ بصاحِبِها إلـــى باطـــلٍ أو تَصرِفُهُ عـــن حَقٍّ، ويَخْتَلِـــفُ نوعُ الكفـــر باختلافِ ما تُـــؤَدِّي إليه من نتيجةٍ، فقد تكون عاقبتُها تركَ الإســـلامِ رأسًا، وهذا هو الكُفْرُ الْمُخْـــرِجُ من الْمِلَّةِ، وقـــد تكونَ ارتكابَ شيءٍ من مَحَارِمِه، وذلك هو كُفْرُ النعمة.

و«**حُظِلَ**» في البيت بِمَعْنَى: مُنِعَ.

أسئلة:

١. كم عدد أركان الكفر؟ اذكرها إجمالا.

٢. متى تكون الرغبة من أركان الكفر؟

٣. اذكر بعض الآيات التي تبيِّن خسارة مَنْ قدَّم دنياه على آخرته؟

٤. ما هي الرهبة التي تعدّ ركنا للكفر؟ اذكر أمثلة عليها وما تؤديه من الكفران.

٥. هل الشهوة على إطلاقها من أركان الكفر؟ اشرح جوابك.

٦. بيّن متى يكون الغضب مذموما، ومتى يكون محمودا؟

٧. هل أركان الكفر المذكورة تُؤدّي إلى كفر الشرك أم إلى كفر النعمة؟

ذِكْرُ الْمِلَلِ السِّتِّ وَأَحْكَامِهَا

٥٨. وَهَذِهِ مِلَلُ الأَدْيَانِ قَدْ نُصِبَتْ
لا بُدَّ لِلْمَرْءِ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ الْمِلَلا

الْمِلَلُ جَمْعُ مِلَّةٍ بِمَعْنَى الدِّين، وهي في الأصْلِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ أَمَلَّ بِمْعَنى أَمْلَى، قال تعالَى: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وأصلُها في الْمِلَّةِ الشرعية، وهي التي أَمَلَّها الْمَلَكُ على الرسول، وأَمَلَّها الرسولُ على الأمَّة، ولكنها أُطْلِقَتْ على سائر النِّحَل، سواء ما كان لَهُ أصلٌ فيما أوحاه الله تعالى أو لا.

ومِلَلُ الناس بِحَسَبِ الأحكام الشرعية في أصحابِهَا تنقسمُ إلى سِتٍّ؛ وهي: **الإسلام واليهودية والنصرانية والصابئة والْمَجُوسِيَّة وعبادة الأصنام**، ويَندرج في هذه الأخيرةِ جميعُ أنواع الشرك، فيدخل في حكمها الْمَلاحِدَةُ كالشُّيُوعِيّين والوُجُودِيّين، وسائرُ الذين لا يدينون بدين.

ووجوبُ معرفة هـذه الْمِلَلِ مِنْ أجْلِ الفَرْزِ بين أَتْباعِها في الأحكام، وهو الذي دَرَجَ عليه كثيرٌ من أصحابنا، وذَهَبَ الإمامانِ أبو يعقوب الوارجلانِيُّ وأبو إسحاق اطفيِّش إلى أنَّ معرفتها ليست من ضروريَّات الدين، وهي داخِلَةٌ فيما يَسَعُ جَهْلُهُ من الأحكام الشرعية والْمُعْتَقَدَات الدينية، وهذا القول مِنَ الحُجَّةِ بِمَكانٍ، إذْ لَمْ يُؤْثَرْ قَطُّ عن النبي ﷺ عندما كان يدعو إلى الإسلام أنَّهُ يُلَقِّنُ الناسَ معرفةَ هذه الْمِلَلِ، ويَشْرَحُ لَهُمْ أحكامَها، ولا أُثِرَ ذلك عن أحدٍ من صحابته رضي الله تعالى عنهم.

وما مِنْ رَيْبٍ أنَّ إلزامَ ذلك جَمِيعَ الناسِ ذُكورَهُمْ وإناثَهُمْ صِغارَهُمْ وكِبارَهُمْ بَدْوَهُمْ وَحَضَرَهُمْ فيهِ حَرَجٌ كبيرٌ على عَوَامِّ الناس وجَهَلَتِهِمْ، فمَا لِلْعَامِّيِّ الذي لا يَعْنِيهِ إلا أمرُ نفسِه وبَحْثِ أحكام هذه الْمِلَلِ؟ فإنَّ التعبُّدَ بأحكامها لا يعني عَوَامَّ المسلمين، وإنَّمَا هو مِنْ خصائص خاصَّتِهِمْ، فكيف يُلْزَمُ أنْ يَعْرِفَ هذه الْمِلَلَ وأنْ يَفْرِزَ بين أحكامها جميعًا؟!

فإنْ قيلَ: بــأنَّ هــذه الْمِلَلَ مَنْصُــوصٌ عليها في القرآن؛ وذلك أنَّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الحـج: ١٧]، فَمِنَ الضرورة أنْ يَعْرِفَها الإنسانُ المسلمُ.

قُلْنَــا: ليس كلُّ منصوصٍ عليه فــي القرآن مِمَّا لا يســع جهله، وإلا وَجَبَ على كل مســلمٍ منذ بلوغِهِ الحُلُمَ أو دخولِهِ الإسلامَ أنْ يُلِمَّ بكُلِّ أحكام القرآن، ويُحْصِيَ كلَّ ما جاء فيه، وهو مِنَ العُسْــرِ بِمَكانٍ، علــى أنَّ كثيرًا من الْمُســلمين لا يُتقِنون قراءَةَ القرآن رأسًا، وَهَبْ أَنَّهُمْ يَـتْلُونه؛ فإنَّ القليل مِمَّنْ يتلونَه هم الذين يُدرِكون معانِيَه، كَيْفَ وفِيهِمُ العَرَبِــيُّ والأَعْجَمِيُّ؟ وأَنَّى لِلأعجمــي أنْ يُكَلَّفَ فَهْــمَ مَضَامينِ الكلام العربي مع عــدم إتقانه لغة العرب؟! والعربُ أنفسُــهم ليس بإمكانِهِمْ إدراكُ مقاصدِ القرآن إلا بعد دراسة فنون العربية ودراسة علوم القرآن.

ومع هذا فإنَّ تِلْكُــمُ الْمِلَلَ عندمــا ذُكِرَتْ في الآية المشارِ إليها لَمْ يَقْتَرِنْ ذِكْرُها بتِبْيان أحكامِها، وإنَّمَا جــاءتْ متناثرةً في آيــاتٍ متعدّدةٍ وسُــوَرٍ مُخْتلفة، مــع أنَّ هذه الأحــكامَ نفسَــها وَقَعَ في بعضها خلافٌ بين أهل العلم بِحَسَبِ ما فَهِمَه كلُّ فريقٍ من ظواهِرِ الأدلَّةِ.

وبالجُمْلَةِ فــإنَّ معرفةَ هذه الْمِلَــلِ وأحكامِها مِمَّا يَجِبُ على الإنسانِ بعد أنْ تقومَ بذلك الحجَّةُ ويَتَّضِحَ لَهُ الْمَقصَدُ ويَتَيَسَّرَ لَهُ الفهمُ، وإلا فهي كسائر الأحكام الشــرعية والعقائد الدينية التــي يكفي الإيْمَــانُ بِهَا إجمالًا؛ ما لَمْ تَقُم عليه الحجَّة بتفصيلها، وما لَمْ يَقَعْ فــي مُخَالَفَةِ الْمَشْــروعِ بالإقدام على ما لَمْ يَــأْذَنْ بِهِ الحَقُّ، كما جاءَ الأَثَرُ في أنواعِ الْمَحَارِمِ: «يَسَعُ الناسَ جَهْلُ ما دَانُوا بِتَحْرِيــمِهِ؛ مَا لَمْ يَرْكَبُوهُ أو يُصَوِّبوا راكِبَه أو يَتَبَرَّأوا مِنْ عالِمٍ تَبرَّأَ من راكِبِه أو يَقِفُوا عنه».

على أنَّ العَمَلَ بشــيءٍ فيمــا يتعلَّق بِهَــذِهِ الْمِلَلِ لا يَعنــي العوامَّ، وإنَّما هو مِنْ شــأنِ خاصَّةِ الخَاصَّةِ

ـ كما ذَكَرْنا ـ، لأنَّ الإقْدَامَ على أمرٍ يتعلَّق بأصحابِهَا إنَّما هو شأنُ أئمَّةِ المسلمين.

ثُمَّ أَخَذَ يُبَيِّنُ الأحكامَ الْمُتعلِّقَةَ بِهَذِهِ الْمِلَلِ، فقال:

٥٩. فَالْمُسْلِمُونَ؛ وَهُمْ مُوْفٍ وَمُجْتَرِحُ
وَالْمُجْرِمُونَ بِنَهْكٍ مِنْهُمُ انْفَصَلا

٦٠. أَوْ مُسْتَحِلٌّ، وَأَحْكَامُ الأُلَى انْتَهَكُوا
أَنْ يَرْجِعُوا كُلَّ مَا صَابُوا وَإِنْ جَزُلا

٦١. وَقَدْ يَجُوزُ لِكُلٍّ مَا يَجُوزُ لَنَا
إِلا الوَلايَةَ خُصَّتْ بِالَّذِي عَدَلا

الْمِلَّةُ الأولى منَ الْمِلَلِ السِّتِّ هي مِلَّةُ الإسلام.

❖ والإسلامُ

هو دينُ الله الحق الذي ارتضاه لخلقه وأرسَلَ بِهِ رُسُلَه وأنْزَلَ به كتبه، ولكنَّ الْمَحْسُوبين على هذا الدين فِيهِمُ الوَفِيُّ الصالِحُ الذي الْتَزَمَ جميعَ أحكامه، فأدَّى الفرائضَ واجتنبَ الْمَحَارِمَ، وحَرَصَ جُهْدَه

على إتيان الفضائل واجتناب الْمَكْرُوهِ، وإنْ وَقَعَ في مَحْظُورٍ أو قَصَّرَ في مفروضٍ بادَرَ إلى التوبة وسَدِّ الخَلَل. وفيهم **الْمُقَصِّرُ**: إمَّا بتركِ ما فُرِضَ وإمَّا بِفِعْلِ ما حَرُم. والكلُّ مَحْسُوبٌ على هذا الدين، فلا يقال بِخُروجِهِ منه إلّا إنْ أنْكَرَ ما هو معلومٌ من الدين بالضرورة.

ومَنْ وَقَعَ في ارتكاب ما حَرُمَ لا يَخْلُو إمَّا أنْ يكونَ أَتَى ما أَتَى **اسْتِحْلالًا** أو **انْتِهَاكًا**، **فالْمُسْتَحِلُّ** تُجْزِيهِ التوبةُ مِمَّا أتى، ولا يُلْزَمُ بشيءٍ فيما يتعلق بحقوق الناس الَّتي أضاعَها، سواء ما يتعلق بالأَنْفُسِ أو الأموال أو الأعراض، إلا ما بَقِيَ بعينه في يده، فإنَّ عليه أنْ يَرُدَّهُ إلى صاحبه، وذلك هو خَلاصُه منه، أمَّا ما تَلِفَ فلا يُطالَبُ بِهِ.

والْمُسْتَحِلُّ هو الْمُعْتَقِدُ حِلَّ ما أتى بتأويله دليلًا من الأدلة الشرعية، كالْخَوَارِجِ ـ وهم الأَزَارِقة والنَّجْدِيَّة والصُّفْرِيَّة ـ فإنَّهم يَحْكُمون بِحُكْمِ الشرك على كلِّ مرتكبِ كبيرةٍ، فيستبيحون بسبب ذلك

سَفْكَ دمه وغنيمةَ مالِهِ وسَبْيَ نسائه وذُرِّيَّتِهِ، ويتأوَّلون في هذا قــولَ الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، إذْ حَمَلُوه على الطاعة بأكلِ الْمَيْتَةِ، ومعنى ذلك أنَّ مَنْ أَكَلَ الْمَيتةَ عندهم مُشْــرِكٌ، وهكذا بقية الكبائر، وقد أفْرَطَت الأزارقـةُ في الغُلُوِّ حتى حَكَمَتْ علــى كلِّ مَنْ عصــى اللهَ ورســولَه ـ ولــو بِمُقَارَفَةِ صغيرةٍ ـ بالإشراك، مستدلِّين بقولِ الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحــزاب: ٣٦]، إذْ حَمَلوا الضلالَ الْمُبِينَ على الشرك.

وهذا كلّه خِلافٌ لِمَا استقرَّ عليه إجماعُ الأمَّة قبلَ أنْ تَظْهَرَ بِدْعَتُهُمْ هذه، فإنَّ الأمةَ مُجْمِعَةٌ على أنَّ مِمَّا يُعْصَى بــه الله تعالى ما هو دونَ الإشــراك من أنواع الفُسُوق، وأنَّ الْمُرادَ بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾: إنْ أَطَعْتُمُوهُمْ في اعتقــادِ حِلِّ الْمَيْتَةِ، فإنَّ اعتقادَ حِــلِّ ما حَــرَّمَ اللهُ ردٌّ لِحُكْمِــه ﷻ، ومَنْ رَدَّ حكمَه الصريحَ فقد أشــرك، أمَّا قولُه تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ فلا يعني الضلالُ فيه الإشراكَ، إذْ ليس كلُّ ضلالٍ شِرْكًا.

وإنَّ مِنْ أَبْيَنِ الأدلَّة على فسادِ مُعْتَقَدِهِم وضلالِ تأويلهم ما نَصَّ عليه القرآن من الْحُدود الَّتي تَجِبُ على من قَارَفَ بعضَ الكبائر، كالقطعِ الواجبِ على السَّارق والسارقة، والْجَلْدِ مائةً على الزانِي والزانية، والْجَلْدِ ثَمَانين على الذين يَرْمُونَ الْمُحْصَنَات، وكذلك ما ثَبَتَ بالسُّنة من جلد شارب الخمر، فإنَّ هذه كلَّها كبائرُ، فلو كانت شِرْكًا لَكَانَ حَدُّ مَنْ أتاها حَدَّ الارتدادِ وهو القتل، وَكَوْنُ عُقُوباتِهَا دُونَه دليلٌ قاطِعٌ على أنَّها ليسَتْ شِرْكًا.

وبالجُمْلَةِ فإنَّ أولئكَ تأوَّلوا ذلك التأوُّلَ الباطِلَ فحَكَمُوا على الكلِّ بالشرك، وتَرَتَّبَ عليه ما تَرَتَّبَ مِن استحلالِ غنيمةِ أموالِهِمْ، واستحلالِ وَطْءِ نسائهم بعد سَبْيِهِنَّ، فمَنْ تَابَ مِنْ هؤلاء إلى رُشْدِهِ وتابَ إلى رَبِّه كانت توبتُه كافيةً في رفع أوزار ما ارتكبوه، وليس عليهم ضَمَانُ ما أَتْلَفُوه، وإنَّما عليهم رَدُّ ما بقي في أيديهم بِعَيْنِه.

وأمَّـــا **الْمُنْتَهِكُ** فيجب عليـــه مع التوبـــةِ أنْ يَرُدَّ ما أَتْلَفَ من مـــالٍ، وأنْ يَضْمَنَ ما أصـــابَ من دماءِ الناس وأعراضهم، وذلك معنى قول المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى:

.... وَأَحْكَامُ الأُلَى انْتَهَكُوا
أَنْ يَرْجِعُوا كُلَّ مَا صَابُوا وَإِنْ جَزَلا

لأنَّ توبتَه موقوفـــةٌ على ردِّ الْمَظَالِـــمِ، كما جاء في الحديث[1]، فتوبةُ الْمُنْتَهِكِ من هذه الناحية أشدُّ من توبة الْمُسْـــتَحِلِّ، وإنَّما يُشَـــدَّدُ علـــى الْمُسْـــتَحِلِّ بوجوب الاستيـــثاق من توبته، وذلك بأنْ تكون توبته تَفْصِيلًا، بِحَيْثُ يُعَـــدِّدُ ما خَالَفَ فيه الحـــقَّ، ويُعْلِنُ رجوعَه إلى مُعْتَقَدِ المســـلمين وقولِهِمْ، وأنْ يُعْلِـــنَ وَلايَتَه لِمَنْ تَبَرَّأَ منهم من أئمَّة أهل الحق، وبَرَاءَتَـــهُ مِمَّنْ دان بوَلايتهم من أئمة أهـــلِ الضلال، هذا فيما بَيْنَهُ وبين الْمُسْلِمين، أما فيما بَيْنَهُ وبين ربِّهِ فَحَسْبُهُ أنْ يَتُوبَ كما يتوبُ غيرُه، مُقْلِعًا عن كل ضلالةٍ اعتقدَها إلى ضِدِّها من الحق.

(١) انظـــر الحديث الـــذي أخرجه الإمـــام الربيع في بـــاب: الوعيد في الأموال (٦٩١).

هذا؛ وجَميعُ الْمُسْلِمينَ بَرُّهُمْ وفاجِرُهُمْ تَجِبُ لَهُم حقوقُ الإسلام العامة، كَرَدِّ السلام وتَشْمِيتِ العاطس ودَفْنِهِمْ في مقابر المسلمين، وجميع حقوق الموتى من المسلمين، وكذلك الْمُوَارَثَةُ بينهم وبين غيرهم من أبناء ملة الإسلام، وإنَّما تُقَامُ عليهم الحدودُ الشرعية إن ارتكبوا موجباتِهَا، ويُقاتَلُونَ إنْ بَغَوْا مِنْ غير أنْ يُجْهَزَ على جريحهم أو يُتْبَعَ مُدْبِرُهُمْ، إلّا أنْ يكونَ لَهُمْ رِدْءٌ يرجعون إليه، ولا تُغْنَمُ أموالُهُمْ ولا تُسْبَى ذَرَاريهم سواء كانوا مستحلين أو منتهكين.

وإنَّما اسْتَثْنَى بعضُهم في الصلاةِ على موتاهم مُدْمِنَ الخمر، وتاركَ الصلاة عمْدًا طُولَ عُمُرِهِ، وقاتِلَ نفسِه عمْدًا، والعَبْدَ الآبِقَ. وقيل بلْ لا يُصَلَّى على كلِّ مُصِرٍّ على كبيرة حتى مات عليها. والصحيحُ الصلاةُ على هؤلاءِ جَمِيعًا؛ إنْ لَمْ يكونوا خَرَجوا من ملة الإسلام بإنكارِ حُرْمَةِ ما أَتَوْا، أو وُجُوبِ ما تَرَكوا مِمَّا هُوَ معلومٌ من الدِّين بالضَّرورة.

والدَّليلُ على الصلاة عليهم ما أخْرَجَهُ الربيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ من طريق ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «الصَّلاةُ جائزةٌ خلفَ كلِّ بَارٍّ وفاجِرٍ، وصَلُّوا على كلِّ بَرٍّ وفاجِرٍ»(١). وقولُهُ ﷺ فيما رواه الربيعُ أيضًا ـ: «الصلاة على مَوْتَى أهلِ القبلة الْمُقِرِّينَ بالله ورسولِهِ واجبةٌ، فَمَنْ تَرَكَها فقد كفر»(٢). فإنَّ هذا عامٌّ ولَمْ نَجِدْ لَهُ مُخَصِّصًا يُخرِجُ أولئك من عُموم الحكم، وإنَّما تُستَثْنَى الوَلايةُ، فلا تُمْنَحُ إلّا لِلْوَفِيِّ، لأنَّها اصطِفَاءٌ لِمَن اتقى الله وأطاعه، وهو مَصُونُ الدَّمِ والْمَالِ والعِرْضِ.

(١) أخرجه الإمام الربيع في الزيادات، باب: الحجة على من لا يرى الصلاة على موتى أهل القبلة (٧٧٦).

(٢) أخرجه الإمام الربيع في الزيادات، باب: الحجة على من لا يرى الصلاة على موتى أهل القبلة (٧٧٧).

٦٢. ثُمَّ اليَهُودُ النَّصَارَى وَالْمَجُوسُ مَعًا
وَالصَّابِئُونَ لَهُمْ حُكْمٌ وَقَدْ عُقِلا

٦٣. يُسَالَمُونَ إِذَا انْقَادُوا عَلَى صِغَرٍ
بِجِزْيَةٍ، أَوْ أَبَوْا فَالكُلُّ قَدْ قُتِلا

ذَكَرَ المصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هنا حُكْمًا مُشْتَرَكًا بين أصحاب أَرْبَعِ مِلَلٍ من الْمِلَلِ السِّتِّ؛ وهُم **اليَهُودُ والنَّصَارَى والْمَجُوسُ والصَّابئون**.

❖ فاليَهُودُ

هم أهلُ التَّوْرَاةِ التي يزعُمُونَ التَّمَسُّكَ بِهَا، مع أنَّهم حَرَّفوا الكَلِمَ عن مواضعه، وأضافوا إلى التوراة ما ليس فيها، وحَذَفُوا ما لَمْ يَرُقْ لَهُمْ منها، فَضَلُّوا بذلك ضَلالًا مُبِينًا.

❖ والنَّصَارَى

هم أهل الإنْجِيل، وقد وَقَعُوا فيما وَقَعَ فيه اليهودُ من التحريف والتبديل والضلال.

❖ وأمَّا الصَّابئون

فهم قومٌ لَمْ يَتَّضِحْ للنـــاسِ مُعْتَقَدُهُمْ لإخفائِهِ عن غيرهم، ولَمْ يــأتِ القرآنُ ببيــانِ ما يعتقدون فيكونُ عليه الْمُعَوَّلُ في إثبات ذلك، لذلك وَقَعَ الخلافُ بين أهل العلم كثيرًا في مُعْتَقَداتِهِمْ، فقيل: كانوا مُتَمَسِّكين برسالةٍ سَمَاوِيَّةٍ ـ وهي رِسَـــالَةُ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ ووقعوا في التحريف والتبديل كغيرهم. وقيـــل إنَّهم يَعْبُدُونَ الملائكة. وقيل بَلْ يعبدون الكواكبَ ولكنَّهم يَرْمُزُونَ بِهَا إلى الملائكة. وقيل بأنَّ دِينَهُمْ خَليطٌ مِمَّا جاء في الإنجيل والتوراة والقرآن، إذْ أَخَذُوا مِنْ كلِّ ما طابَ لَهُمْ وقالوا: أَصَبْنَا دِينًا. وقد بَسَـــطْتُ القولَ فيهم في تفسيرِنَا، فَلْيُرَاجِعْهُ مَنْ شَاءَ.

❖ وأمَّا الْمَجُوسُ

فهم أصحابُ زرَادشْـــت الذي يُنْسَبُونَ إليه، وهم يَعْبُدُونَ النارَ، ومِنَ الناس مَنْ يقول بأنَّهُم كانوا أهلَ كتابٍ فَرُفِـــعَ عنهـــم لِتَغْييرهم، وقد رأيْـــتُ العلامَةَ أبا زُهْرَةَ في كتابه «خَاتَم النبييـــن» يَجْزِمُ بأنَّهم أهلُ

كتابٍ، بَلْ ويَجْزِمُ بأنَّ زرادشْـــت الذي يَنْتَسِبُون إليه كان نَبِيًّا رسولًا، ويستدلُّ لذلك بِمَا في كتابِهِم الذي بأيديهم مِنْ بَشَـــائِرِ بِعْثَةِ النبـــي ﷺ؛ مُؤَكِّدًا أنَّ ذلك لا يُمْكِنُهُمْ أنْ يَتَوَصَّلُوا إلى عِلْمِهِ إلّا بِطَرِيقِ الوَحْيِ. وأَرَى في القَطْعِ بذلك مُجَازَفَةً؛ لِعَدَمِ وُجودِ ما يُشِيرُ في القرآنِ الكريمِ إلى نُبُوَّةِ زرادشْـــت، وعَدَمِ وُرُودِ ذلـــكَ عن النبيِّ ـ عليـــه أفضلُ الصلاةِ والســـلامِ ـ، واحْتِمَالِ أنْ تَكُونَ بَشَائِرُ بِعْـثَةِ رسولِ اللهِ ﷺ وَصَلَتْهُمْ باخْتِلاطِهِمْ بِمَنْ أُوتِيَ عِلْمَ الكِتَابِ.

هذا؛ وَالحُكْمُ الذي ذَكَـرَهُ هُنَا لِهَذِهِ الْمِلَلِ الأَرْبَعِ ـ وَهُوَ أنَّهُم يُسَالَمُونَ إذا أَدَّوُا الجِزْيَةَ عَنْ صَغَارٍ ـ إِنَّمَا هُوَ ثَابِتٌ في أهـــل الكِتَابَيْنِ بِالنَّصِّ عَلَيْـــهِ في قَوْلِهِ تَعَالَـــى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبـــة: ٢٩]. إِذْ جعَلَ الغَايَةَ مِنْ مُقَاتَلَتِهِمْ رُضُوخَهُمْ لأَنْ يُعْطُوا الجِزْيَةَ وَهُمْ صَاغِرُون،

وَهَذَا بَعْدَ أَنْ يُعْرَضَ عليهم الإِسْلامُ وَيَرْفُضُونَ، فَإِنْ قَبِلُوهُ كانوا إِخْوَانَنَا، لَهُمْ ما لَنَا وعليهم ما عَلَيْنَا.

وأمَّا الصَّابِئُونَ فَإِنَّ إِجْرَاءَ هَذَا الحُكْمِ عَلَيْهِمْ لِقَرْنِهِمْ بِأَهْلِ الكِتَابِ في أَكْثَرَ مِنْ مَوْضِعٍ في القُرْآنِ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]. عَلَى أنَّ اقْتِرَانَهُمْ بِهِمْ في مَقَامِ التَّبْشِيرِ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَعَمِلَ صَالِحًا يُوحِي بِأَنَّهُمْ كانوا أَهْلَ كِتَابٍ كَمَا قِيلَ.

وَأمَّا الْمَجُوسُ فَإِلْحَاقُهُمْ بِأَهْلِ الكِتَابِ لِمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مِنَ السُّنَّةِ.

و**الجِزْيَةُ** الَّتي يُعْطُونَهَا هي ضَرِيبَةٌ مَالِيَّةٌ يأخُذُها منهم إمامُ الْمُسْلِمِينَ، لِيَتَمَتَّعُوا بالأَمْنِ والاسْتِقْرَارِ في كَنَفِ دَوْلَةِ الإِسْلامِ، فلا يُنَالُوْنَ بِأَذىً في أَنْفُسِهِمْ ولا في أَهْلِيهِمْ ولا في ذَرَارِيهِمْ ولا في أَمْوَالِهِمْ، ويَنْعَمُونَ بِحُقُوقِ الْمُوَاطَنَةِ العَامَّةِ، ويُعْطَوْنَ بِذَلِك

ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ في هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَتَرَتَّبُ على ذَلِكَ حِلُّ أَكْلِ ذَبَائِحِهِمْ وَنِكَاحِ الحَرَائِرِ مِنْ نِسَائِهِمْ بلا خِلافٍ، أمَّا في حَالِ حَرْبِهِمْ فلا تَحِلُّ عَلى الْمَشْهُورِ نِسَاؤُهُمْ، لأنَّ سَبْيَهُنَّ مَشْرُوعٌ، ولا يَجُوزُ أنْ تَكُونَ حَلِيلَةُ مُسْلِمٍ عُرْضَةً لِلسَّبْيِ، والخِلافُ في أَكْلِ ذَبَائِحِهِمْ، وَقَدْ شَرَحْتُ ذَلِكَ فيما كَتَبْتُهُ في **أَحْكَامِ التَّذْكِيَةِ**.

هذا، والْجِزْيَةُ رَاجعةٌ إلى نَظَرِ الإمام، فَيَرْفَعُهَا أو يَخْفِضُهَا بِحَسَبِ اخْتِلافِ الْحَالَةِ بَيْنَ اليُسْرِ والعُسْرِ والرّخْصِ والغَلاءِ، **هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ**، ومِنْهُمْ مَنْ حَدَّدَهَا بِمِقْدَارٍ، واخْتَلَفُوا في ذلك، وأكْثَرُ قَوْلِ مَنْ حَدَّدَهَا: أنّها عَلَى الغَنِيِّ مِنْهُمْ أرْبَعَةُ دَنَانِيرَ مِنَ الذَّهَبِ أو ما يُعَادِلُهَا، وعلى الْمُتَوَسِّطِ دِينَارَانِ، وعلى الفَقِيرِ دِينارٌ، وذلك في كُلِّ عَامٍ، ولا يُؤْخَذُ على امْرَأَةٍ ولا عَبْدٍ ولا مَجْنُونٍ ولا شَيْخٍ هَرِمٍ ولا رَاهِبٍ، واخْتُلِفَ في الْمُفْلِسِ، فقيل: لَيْسَتْ عليه جِزْيَةٌ، وهذا هو الظَّاهِرُ، وقِيلَ بَلْ هي عَلَيْهِ، لأنَّهُ ـ وَإنْ لَمْ يُمْكِنْهُ دَفْعُهَا ـ قَادِرٌ على دَرْئِهَا عَنْ نَفْسِهِ بالإِسْلامِ.

هذا؛ ولا تُنْكَحُ نِسَاءُ الْمَجُوسِ ولا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَإِنْ دَانُوا بِأَدَاءِ الْجِزْيَةِ، وإِنَّما يُلْحَقُونَ بِأَهْلِ الكِتَابِ فـــي قَبُولِهَا منهم ومـــا يَتَرَتَّبُ عليه مِـــنْ أَمْنِهِمْ على أنفُسِهِمْ وعلى نِسَائِهِمْ وذَرَارِيهِمْ وعلى أمْوَالِهِمْ.

وسُـــمِّيَتْ جِزْيَةً لأَنَّها تُجْزِي عَنْ دَمِهِمْ وَذَرَارِيهِمْ وأمْوَالِهِمْ بِصَوْنِهَا بذلك.

وَإِنْ أَبَوا الإِسْـــلامَ والجِزْيَةَ مَعًا فَإِنَّهُـــمْ يُقَاتَلُونَ، ويَحِلُّ في قِتَالِهِمْ ما يَحِلُّ في قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ غنم أمْوَالِهِمْ وَسَبْيِ ذَرَارِيهِمْ وَنِسَائِهِمْ.

٦٤. وَالْمُشْرِكُونَ ذَوُو الأَوْثَانِ لَيْسَ لَهُمْ
سَـــلامَةٌ غَيْـــرَ إِنْ دَانُـــوا بِمَـــا نَـــزَلا

هذا هو حُكْمُ الْمِلَّةِ السَّادِسَـــةِ مِنْ هـــذِه الْمِلَلِ السِّتِّ، وهي مِلَّةُ

❖ الإِشْرَاكِ بالله

وأُطْلِقَ على هؤلاء وَصْفُ الْمُشْرِكِينَ مَعَ مُشَارَكَةِ غَيْرِهِمْ لَهُمْ في الإِشْراكِ ـ كَالْمَجُوسِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ

النَّـــارَ، والصَّابِئِينَ الذين قِيــلَ عنهم أنَّهُــمْ يَعْبُدُونَ الكَوَاكِبَ أو الْمَلائكةَ، واليَهُودِ الذين قالوا عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ، والنَّصَارَى الذين قالوا الْمَسِــيحُ ابنُ اللهِ، وَقَالُوا بِأَنَّهُ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ، وقالوا بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ ـ لأنَّ هؤلاءِ أَعْمَــقُ في وَصْفِ الشِّــرْكِ، فكان لَهُمْ وَصْفًا غَالِبًــا، ويَدْخُلُ فيهم الْمَلاحِدَةُ كالشُّــيُوعِيِّينَ والوُجُودِيِّينَ والدَّهْرِيِّينَ، وكُلُّ أصْحَابِ الدِّيَانات التي لا صِلَةَ لَهَــا بِوَحْيِ السَّــمَاءِ، فَــإِنَّ هــؤلاءِ جَمِيعًا لا سَلامَةَ لَهُمْ مِنْ حُكْمِ السَّيْفِ إلَّا أنْ يُقْلِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ والضَّلالِ، ويَدِينُوا دِينَ الحَقِّ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

ولا تُؤْخَذُ مِنْ هــــؤلاءِ جِزْيَةٌ، ولا تَحِلُّ نِسَــاؤُهُمْ ولا ذَبَائِحُــهُمْ بِحَالٍ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفــال: ٣٩]، ولا يَجُــوزُ أيضًا إِنْكَاحُهُــمْ مُسْــلِمَةً لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ

﴿ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ولِقَوْلِهِ: ﴿ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٠]، ويَدْخُلُ في هذا أَهْلُ الكِتَابِ، فلا يَجُوزُ إِنْكَاحُهُمُ الْمُسْلِمَاتِ إِجْمَاعًا، ولَوْ جَازَ نِكاحُ الْحَرَائِرِ مِنْ نِسَائِهِمْ.

فإِنْ قِيلَ: مِنْ أَيْنَ جَاءَتْ هذِهِ التَّفْرِقَةُ؛ بِحَيْثُ جَازَ نِكَاحُ نِسَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ وَلَمْ يَجُزْ إِنْكَاحُهُمُ الْمُسْلِمَاتِ؟ فَإِنِ اعْتُبِرُوا دَاخِلِينَ في الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ النَّهْيَ عَنْ نِكَاحِ الْمُشْرِكَاتِ كالنَّهْيِ عَنْ إِنْكَاحِ الْمُشْرِكِينَ سَوَاء، وَإِنِ اعْتُبِرُوا غَيْرَ داخلين فيهم فلا دَلِيلَ على مَنْعِ إِنْكَاحِهِمْ، أَمَّا قَوْلُهُ تعالَى: ﴿ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ فَإِنَّما هو في مُشْرِكِي العَرَبِ، لأَنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ فيما يَتعَلَّقُ بِصُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ الَّذِي أَبْرَمَهُ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُشْرِكِي مَكَّةَ؟

قُلْنَا: هُمْ دَاخِلُونَ في حُكْمِ الْمُشْرِكِينَ، لأَنَّ وَصْفَ الشِّرْكِ يَنْطَبِقُ عَلَى كُلِّ مَنِ اتَّخَذَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ،

وَهُمْ كَذَلِكَ، وَقَدْ سَبَقَ تَحْرِيرُ هَذَا، وإِنَّمَا خَرَجَتْ نِسَاؤُهُمْ مِنْ عُمُومِ حُكْمِ: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ مِنْ أَجْلِ تَخْصِيصِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

والْخُصُوصُ يَقْضِي على العُمُومِ، سَوَاءً تَقَدَّمَهُ أَوْ تَأَخَّرَ عَنْهُ، كَيْفَ وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ؛ لأَنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ مِنْ آخِرِ القُرْآنِ نُزُولًا؟ فَلِذَلِكَ انْعَقَدَ الإِجْمَاعُ على حِلِّيَّةِ نِسَاءِ أَهْلِ الكِتَابِ لِلْمُؤْمِنِينَ، على أَنَّ هَذِهِ الْحِلِّيَّةَ مُقَيَّدَةٌ عِنْدَنَا وعِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ العُلَمَاءِ بِكَوْنِ الكِتَابِيَّةِ ذِمِّيَّةً غَيْرَ مُحَارِبَةٍ، أَمَّا إِنْ لَمْ تَكُنْ كذلك فلا يَحِلُّ نِكَاحُها كما تَقَدَّمَ.

ومَشْرُوعِيَّةُ الزَّوَاجِ بالكِتَابِيَّاتِ ـ عِنْدَمَا يَكُنَّ عَلَى الذِّمَّةِ ـ فيها حِكْمَةٌ بالِغَةٌ، وَهِيَ أَنْ يَحْصُلَ التَّدَاخُلُ بين الْمُسْلِمِينَ وأَهْلِ الكِتَابِ، ويَجِدُوا في مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ وأَخْلاقِهِمْ ما يَدْعُوهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ دِينِهِمْ،

وَتِلْكَ هي وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ، وَمَعَ ذَلِك فإِنَّهُ عِنْدَمَا خَشِيَ عُمَرُ رضي الله عنه أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لانْدِفَاعِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الكِتَابِيَّاتِ وَتَضرُّرِ الْمُسْلِمَاتِ بِبَقَائِهِنَّ أَيَامَى نَهَى عَنْهُ، لا سِيَّما أَكَابِرَ الصَّحَابَةِ، كَقِصَّتِهِ مع حُذَيْفَةَ رضي الله عنه .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هذا الْمَطْلَبَ لا يَتَحَقَّقُ عندما يَكُونُ الْمُسْلِمُونَ ضُعَفَاءَ وَيَكُونُ الكِتَابِيُّونَ أَقْوَى، فَفِي هَذِهِ الحَالَةِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ الزَّوَاجُ مِنْهُمْ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ إِلَى الإِسْلامِ يُصْبِحُ الأَمْرُ في مُنْتَهَى الخَطَرِ على الدِّينِ، بِحَيْثُ لا يَبْعُدُ أَنْ تَسْتَوْلِيَ الكِتَابِيَّةُ على أَوْلادِ الْمُسْلِمِ مِنْهَا، فَتُنَشِّئَهُمْ على مِلَّتِهَا كما تُرِيدُ، وَقَدْ وَقَعَ ذلك فِعْلًا، إِذِ انْحَرَفَ بِهَذَا عَدَدٌ مِنْ أَوْلادِ الْمُسْلِمِينَ فَاعْتَنَقُوا النَّصْرَانِيَّةَ، وَقَدْ حَدَثَ هَذَا لِكَثِيرٍ مِنْ أَوْلادِ العُمَانِيِّينَ مِمَّنْ نَعْرِفُ آبَاءَهُمْ، بَلْ وَقَعَ أَحَدُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ لا يُبَالُونَ بِمَصِيرِ أَفْلاذِ أَكْبَادِهِمْ في غَرَامٍ يَهُودِيَّةٍ بريطانِيَّةٍ عِنْدَمَا كان يَدْرُسُ في دَارِ الغُرْبَةِ، فَتَزَوَّجَهَا وَوَلَدَتْ مَوْلُودًا نَشَّأَتْهُ

على اليَهُودِيَّةِ، وانْتَزَعَتْـــهُ مِنْ يَدِ أَبِيهِ فَأَلْحَقَتْهُ بِالكيان الصهيوني، فَأَصْبَحَ يَهُــودِيَّ الْمُعْتَقَدِ صهيوني النَّزْعَةِ والْجِنْسِــيَّةِ، أَوَلا يَكْفِي هَذَا عِبْرَةً لِعُـــبَّادِ الشَّهَوَاتِ الَّذِيــنَ لا يُبَالُونَ بِمُسْــتَقْبَلِ أَفْــلاذِ أَكْبَادِهِـــمْ وَثَمَرَةِ أَفْئِدَتِهِـــمْ ؟! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧].

هَذَا؛ وَلَئِنْ كان عُمُـومُ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١] مُخَصَّصًا بِجَوَازِ نِكَاحِ الكِتَابِيَّاتِ مَعَ مُرَاعَاةِ القُيُــودِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَــى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٢١] بَاقٍ على عُمُومِهِ، فَــلا يَحِلُّ لِمُسْــلِمَةٍ الاقْتِرَانُ بِأَيِّ مُشْرِكٍ كَانَ، سَوَاءً وَثَنِـيًّا أَوْ كِتَابِـيًّا، مَعَ اعْتِضَادِهِ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنــة: ١٠]. إِذْ لا خِلافَ في كُفْرِ أَهْلِ الكِتَــابِ بَعْــدَ تَحْرِيفِهِــمْ وَتَبْدِيلِهِـــمْ وَكُفْرِهِمْ بِنَبِيِّنَا ﷺ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ.

ولا يُعَكِّرُ هَذَا الاسْتِدْلالَ كَوْنُ الآيَةِ الكَرِيْمَةِ نَزَلَتْ

في مُشْــرِكِي العَرَبِ؛ لأنَّ الْحُكْمَ نِيطَ بِالكُفْرِ وَجُعِلَ عَامًّا فــي الكُفَّــارِ، والْحُكْمُ عَلَــى الْمُشْــتَقِّ يُؤْذِنُ بِعِلِّـيَّتِهِ، ولا عِبْرَةَ بِخُصُوصِ السَّبَبِ مَعَ عُمُومِ اللَّفْظِ، وَمَــا كان مِنْ تَزْوِيــجِ النَّبِــيِّ ﷺ بَعْضَ بَنَاتِــهِ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فَذَلِكَ قَبْلَ مَشْرُوعِيَّةِ هَذَا الْحُكْمِ.

٦٥. وَالحُكْمُ إِنْ حَارَبُوا فِي الكُلِّ مُتَّحِدٌ
نَهْــبٌ وَسَــبْيٌ وَقَتْــلٌ فِيهِــمُ فُعِــلا

٦٦. حَاشَــا قُرَيْشًا فَإِنَّ السَّــبْيَ مُمْتَنِعٌ
فِيهِمْ عَلَى قَوْلِ أَهْــلِ الْمَغْرِبِ الفُضَلا

يَعْنِي أَنَّ جَمِيعَ هَؤُلاءِ الْخَارِجِينَ عَنْ مِلَّةِ الإسْلامِ ـ سَوَاءً كانوا يَهُودًا أو نَصَارَى أو صَابِئِينَ أو مَجُوسًا أو مُشْــرِكِينَ يَعْبُدُونَ الأَوْثَانَ أو مَلاحِدَةً مِمَّن لا دِينَ لَهُمْ ـ يَتَّحِدُ حُكْمُهُمْ إِنْ حَارَبُوا الْمُسْلِمِينَ، وهو **قَتْلُ مُقَاتِلَتِهِمْ وغنم أَمْوَالِهِمْ وَسَــبْيِ ذَرَارِيهِمْ وَنِسَــائِهِمْ**، وفي هَذِهِ الحَالَةِ لا يَحِلُّ نِكَاحُ نِسَــاءِ أَهْلِ الكِتَابِ، لأَنَّهُنَّ عُرْضَةٌ للسَّبْيِ كما ذَكَرْنَا.

واخْتُلِفَ في **حِـلِّ ذَبَائِحِهِمْ**، فَجُمْهُورُ أصحابِنَا لا يَرَوْنَ حِلَّهَا حَتَّى يَكُونُوا أَهْلَ ذِمَّةٍ، وَذَهَبَ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَجُمْهُورُ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الأُخْرَى إِلَى أَنَّهم إِنْ ذَكُّوهَا ذَكَاةً شَرْعِيَّةً حَسْبَمَا يَدِينُون فَهِيَ حَلالٌ، وهُوَ أَقْوَى دَلِيلًا كَمَا بَسَطْتُهُ فِيمَا كَتَبْتُهُ في الذَّبَائِحِ.

واخْتُلِفَ في **السَّبْيِ**؛ هَلْ يَشْمَلُ جَمِيعَ العَنَاصِرِ والشُّعُوبِ أَوْ يُسْتَثْنَى مِنْ حُكْمِهِ بَعْضُهُمْ؟ فقِيلَ باسْتِثْنَاءِ العَرَبِ مُطْلقًا، وهذا قَوْلُ أَهْلِ الْمَشْرِقِ مِنْ أَصْحَابِنَا، لِمَا يُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لا رِقَّ على عَرَبِيٍّ بَعْدَ اليَوْمِ». وقِيلَ باسْتِثْنَاءِ قُرَيْشٍ وَحْدَها تَكْرِيْمًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وهو مَعْنَى قَوْلِ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

حَاشَا قُرَيْشًا فَإِنَّ السَّبْيَ مُمْتَنِعٌ
فِيهِمْ عَلَى قَوْلِ أَهْلِ الْمَغْرِبِ الفُضَلا

وَقِيلَ بِعَدَمِ اسْتِثْنَاءِ أَحَدٍ، لأَنَّ عِلَّةَ ذلك هِيَ الإِشْرَاكُ، وَهُمْ جَمِيعًا مُشْتَرِكُونَ فيه، مَع أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ لِقُرَيْشٍ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ

الطُّلَقَــاءُ»، وهو وَإِنْ لَــمْ يَكُنْ نَصًّا فــي اعْتِبَارِهِمْ سَـبَايَا قَبْلَ أَنْ يُـــنْعِمَ عليهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بِمَا أَنْعَمَ به عَلَيْهِمْ مِنَ الإِطْلاقِ؛ فَإِنَّهُ يَسُوغُ أَنْ يُسْـــتَنْتَجَ منه هَــذَا الْحُكْمُ لِمَــنْ رَأَى ذلك، إِذِ الإِطْلاقُ إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ قَبْضٍ، وقد سَبَى ﷺ قَوْمًا مِــنَ العَــرَبِ كمــا وَقَعَ ذلــك في هــوازن وبَنِي الْمُصطلق. وما وَرَدَ مِنْ أَنَّهُ قَالَ: «لا رِقَّ على عَرَبِيٍّ بَعْدَ اليَوْمِ» لَمْ أَجِدْ لَهُ سَــنَدًا، ولَــوْ ثَبَتَ ذلك لَمَا وَقَعَ خِلافٌ في مَضْمُونِهِ.

عَلَى أَنَّ السَّبْيَ إِنَّما هُوَ إِجْرَاءٌ عَسْكَرِيٌّ، ولا يَلْزَمُ أَنْ يَتَرَتَّبَ عليهِ الاسْــتِرْقَاقُ، وإِنَّمــا كانَ ما كانَ مِن اتِّبَاعِ هذا الإِجْــرَاءِ لأَجْلِ ضَــرُورَةِ الْمُعَامَلَةِ بِالْمِثْلِ، لِئَلا يُكَالَ الشَّرُّ لأُمَّةِ الإِسْــلامِ وَهِيَ مَكْتُوفَةُ الأَيْدِي عَنِ الــرَّدِّ بِمِثْلِهِ، مَعَ ما فِيــهِ مِنَ الأَسْــبَابِ لاهْتِدَاءِ السَّبَايَا إِلَى الإِسْــلامِ وإِنْقَاذِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وضَلالِهِ، وَإِلَّا فَــإِنْ كانَتْ مَصْلَحَةُ الإِسْــلامِ والأُمَّــةِ في عَدَمِ الاسْتِرْقَاقِ فإِنَّ ذلك هُوَ الذي يُؤْخَذُ بِهِ.

ومِمَّا يَدُلُّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

إِذْ لَمْ يَذْكُرْ سُبحانه وتعالى هُنَا إِلَّا طَرِيقَيْنِ في مُعَامَلَةِ الأَسْرَى، وَهُمَا: الْمَنُّ عليهم بِإِطْلاقِ سَرَاحِهِمْ ومُفَادَاةُ أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ بِهِمْ، إِذِ الأَصْلُ في الإنسانِ الْحُرِّيَّةُ، والرِّقُّ عَارِضٌ لَهُ.

ولِذَلِكَ أَبْطَلَ الإِسلامُ جميعَ وَسَائِلِه إِلَّا هَذِهِ الوَسِيلَةَ الوَاحِدَةَ الَّتِي اقْتَضَتْهَا ضَرُورَةُ التَّعامُلِ بِالْمِثْلِ، لِئَلَّا يَقِفَ الْمُسْلِمُونَ مَوْقِفَ الذُّلِّ والضَّعْفِ أمامَ أعْدَائِهِمْ، ومع قِيَامِ الْمُعَاهَدَاتِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ غَيْرِهِمْ على عَدَمِ اسْتِرْقَاقِ أَسْرَى الْحَرْبِ والْتِزَامِ ذلك مِنْ قِبَلِ الغَيْرِ لا تَبْقَى ضَرُورَةٌ دَاعِيَةٌ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ تَقْدِيمُ الْمَنِّ على الفِدَاءِ في الآيَةِ الكَرِيْمَةِ إِلَّا دَلِيلًا على سَمَاحَةِ الإِسْلامِ وعَظَمَتِهِ واعْتِدَالِهِ ورِفْقِهِ، وذلك بِخِلافِ ما يُرَوِّجُهُ خُصُومُهُ ويُحَاوِلُونَ إِلْصَاقَهُ بِهِ مِمَّا هُوَ مِنْهُ بَرَاءٌ.

٦٧. وَالذِّبْحَ[١] إِنْ سَالَمُوا أَهْلُ الكِتَابِ مَعَ النْـ * ـنِكَـاحِ مِنْهُـمْ أَجِـزْ إِلا الإِمَـاءَ فَـلا

هذا الحُكْمُ خَاصٌّ بِأَهْلِ الكِتَـابِ ـ كما تَقَدَّمَ ـ، وهُوَ إِبَاحَةُ أَكْلِ ذَبَائِحِهِمْ ونِكَاحِ الْحَرَائِرِ مِنْ نِسَائِهِمْ، وَقَـيَّدَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى حِلِّيَةَ ذَبَائِحِهِمْ بِمَا يُقَيِّدُ نِكَاحَ الحَرَائِرِ مِنْ نِسَـائِهِمْ؛ وَهُوَ كَوْنُهُمْ مُسَالِمِينَ أيْ غَيْرَ مُحَارِبِينَ، وهو مَذْهَبُ جُمْهُورِ أصحَابِنَا ـ كما تَقَدَّمَ ـ خِلافًا لِرَأْيِ جُمْهُورِ الأُمَّةِ.

وقد اخْتَرْتُ غَيْرَ هذا القَوْلِ ـ كما أَشَرْتُ مِنْ قَبْلُ ـ لِمَا في صَحِيحِ البُخَارِيِّ: «مِنْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَخَذُوا يَوْمَ خَيْبَرَ جِرَابَ شَحْمٍ أَلْقَاهُ اليَهُودُ مِنْ دَاخِلِ حِصْنِهَا فَأَكَلُوهُ»[٢]، وإِنْ كانَ ما ذَهَبَ إِلَيْـهِ جُمْهُورُ أصحابِنَا أَبْلَغَ في الاحْتِيَاطِ وأَقْعَدَ مِنْ حَيْثُ النَّظَرُ إِلَّا أَنَّ الْخَبَرَ

(١) الذِّبح ـ بكسر الذال ـ: اسم لما يُذبح من الحيوان، قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾. وأما الذَّبح ـ بفتح الذال ـ فهو فعل الذابح من قطع الحلقوم ونحوه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر (٤٢١٤).

أَبْطَلَـــهُ، ولا حَـــظَّ لِلنَّظَرِ مَـــعَ الأَثَـــرِ، ولا رَيْبَ أنَّ الاحْتِيَاط بابٌ وَاسِعٌ ويَنْبَغِي الأَخْذُ بِهِ في العَمَلِ، أمَّا في الإِفْتَــاءِ والْحُكْمِ فَيُؤْخَذُ بالدَّليــلِ، كما قَالَ إِمَامُ الْمَذْهَبِ أبو سَــعيدٍ الكُدَمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «لَيْسَ العالِمُ مَنْ حَمَلَ النَّاسَ على وَرَعِهِ، وإِنَّما العَالِمُ مَنْ أَفْتَاهُمْ بِمَا يَسَعُهُمْ في دِينِهِمْ».

وأمَّا حِلُّ **تَزَوُّجِ نِسَائِهِمْ** فهو مُقَيَّدٌ بِقَيْدَيْنِ:

❖ **أَوَّلُهُما:**

أنْ يَكُونَ ذلك في حَالَةِ سِــلْمٍ لا في حَالَةِ حَرْبٍ، لأنَّ الْمُحَارِبَةَ عُرْضَةٌ لِلسَّــبْيِ ـ كما تَقَدَّمَ ـ، ثُمَّ إِنَّها لا يُؤْمَنُ مِنْهَا أنْ تَكُونَ عَيْـنًا لأهْلِ مِلَّتِهَا، تَدُلُّهُمْ على ثَغَـرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَعَوْرَاتِهِمْ، وَمَنِ الَّذي يَأْمَنُ اليَوْمَ ـ وَقَــدْ تَحَالَفَــتِ اليَهُودِيَّــةُ والصَّلِيبِيَّــةُ على حَرْبِ الإِسْــلامِ وَأَهْلِهِ ـ مِنْ إِقْحَــامِ العُنْصُرِ النِّسَــائِيِّ في سِيَاسَتِهِمُ الْحَرْبِيَّةِ، واتِّخَاذِ اللَّوَاتِي يَقْتَرِنَّ مِنْهُنَّ بِرِجَالِ الْمُسْــلِمِينَ عُيُونًا عليهم يَكْشِــفْنَ لأَقْوَامِهِنَّ ما خَفِيَ عليهم مِنْ ثَغَرَاتِ أُمَّةِ الإِسْــلامِ وعَوْرَاتِهَا، لا سِــيَّما

أولئِكَ اللَّاتِي يَتَسَنَّى لَهُنَّ الاقْتِرَانُ بِرِجَالِ السِّيَاسَةِ والْحَرْبِ، فَيَصْطَدْنَ مِنْهُمْ أَسْرَارَ الأُمَّةِ لِيَبْثُثْنَهَا أَبْنَاءَ مِلَّتِهِنَّ عَبْرَ قَنَوَاتٍ مُخَصَّصَةٍ لِذَلِكَ؟! فَكَمْ مِنْ أَسِيرِ شَهْوَتِهِ رُزِئَتِ الأُمَّةُ بِسَبَبِهِ؛ إِذْ بَاحَ بِمَا يُكِنُّهُ مِنْ أَسْرَارٍ إِلَى الَّتِي يَعُدُّهَا شَرِيكَةَ حَيَاتِهِ سَاعَةَ هَيَجَانِ شَهْوَتِهِ وَلَوْعَةِ غَرَامِهِ، فاطَّلَعَتْ على ما لا يَطَّلِعُ عليه مِنَ الأُمَّةِ إِلَّا خَاصَّتُهَا مِنْ أَسْرَارِ السِّيَاسَةِ الْحَرْبِيَّةِ، وهي لَمْ تَأْتِ إِلَيْهِ إِلَّا لِتَخْدُمَ مَصْلَحَةَ أُمَّتِهَا، فَلَمْ تَأْلُ جَهْدًا في القِيَامِ بِمُهِمَّتِهَا والْحِفَاظِ على مَسْؤُولِيَّتِهَا، فأَصْبَحَتِ الأُمَّةُ هِيَ الْخَاسِرَةَ، إِذْ رَاحَتْ ضَحِيَّةَ شَهَوَاتِ كُبَرَائِهَا.

❖ **ثَانيهِمَا:**

أَنْ تَكُونَ حُرَّةً، إِذْ لا تَحِلُّ إِمَاءُ أَهْلِ الكِتَابِ، لأَنَّ حِلِّيَّةَ نِكَاحِ الأَمَةِ مَشْرُوطَةٌ في القُرْآنِ بِعَدَمِ اسْتِطَاعَةِ الطَّوْلِ إِلَى نِكَاحِ الْمُحْصَنَاتِ ـ أي الْحَرَائِرِ ـ وخَوْفِ العَنَتِ ـ وَهُوَ الوُقُوعُ في الزِّنا ـ مَعَ كَوْنِ الأَمَةِ الْمَنْكُوحَةِ مُؤْمِنَةً، وذلك لِقَوْلِهِ تعالَى:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إِلَى قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥].

وهذا التَّشْدِيدُ إِنَّما هُوَ لأَجْلِ الْمُحَافَظَةِ مِنَ الْمُسْلِمِ على أَفْلاذِ كَبِدِهِ وَثَمَرَاتِ فُؤَادِهِ لِئَلا يَكُونُوا عُرْضَةً لِلرِّق، وَلِئَلَّا يَكُونُوا تَبَعًا لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ الأَوْلادَ كَمَا يَتْبَعُونَ آباءَهُمْ في الأَنْسَابِ يَتْبَعُونَ أُمَّهَاتِهِمْ في الْحُرِّيَّةِ أو الرِّقِّ، فلذلك ما كانَ لِلْمُسْلِمِ أنْ يَلْجأَ إِلَى مَا يُرِقُّ أولادَه في سَبِيلِ قَضاءِ شَهْوَتِهِ، إِلَّا أنْ لا يَجِدَ مَنَاصًا مِنْ ذلك، بِحَيْثُ لا يَقْدِرُ على مُقَاوَمَةِ غَرِيزَتِهِ ولا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى نِكَاحِ الْحُرَّةِ، فَيَتَخَلَّصُ بِهِ مِنْ تأثيرِ تلك الغَرِيزَةِ.

ومُنِعَ مِنْ أنْ تَكُونَ الأَمَةُ الَّتي يَنْكِحُها غَيْرَ مُسْلِمَةٍ؛ لِئَلَّا يُسْتَرَقَّ أولادُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الكِتَابِ، هذا هُوَ قَوْلُ أصحابِنَا والْجُمْهُورِ، وفي ذلك خِلافٌ بَسَطْتُهُ في بَعْضِ الفَتَاوَى فَلْيَرْجِعْ إِلَيْهِ مَنْ شَاءَ.

وقولُ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إِلَّا الإِمَاءَ فَلا**» جَرْيٌ على مَذْهَبِ أصْحَابِنَا وَوَافَقَهُمْ عليه الْجُمْهُورُ؛ وهو عَدَمُ حِلِّ نِكَاحِ الإِمَاءِ منهم، وقد عَضَّدُوا ذلك بِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، فَإِنَّ الْمُحْصَنَاتِ وَصْفٌ يَشْمَلُ الْحَرَائِرَ والعَفَائِفَ.

أسئلـة:

١. بيّن معنى المِلّة في اللغة العربية؟

٢. ما المقصود بالْمِلَل الست؟

٣. في أيّ ملّة يندرج الشيوعيون والملاحدة؟

٤. اختلف العلماء في وجوب معرفة الملل الست؟ بيّن هذا الخلاف، وما القول الذي يُؤيِّده الشارح؟

٥. اذكر دليلَين استدلّ بهما الشارح لما ذهب إليه؟

٦. كيف تردّ على مَن قال بوجوب معرفة الملل الست لذكرها في القرآن؟

٧. هل أحكام الملل الست مذكورة في آية واحدة أو سورة واحدة؟

٨. بيّن صحّة هذه العبارة مِنْ عدمها: (اتفق العلماء على أحكام الملل الست)؟

٩. متى يلزم الإنسان معرفة الملل الست وأحكامها؟

١٠. مَنِ الذي يعنيه في الأكثر معرفة أحكام الملل الست؟

١١. مَن هم الذين يُحسبون على ملّة الإسلام؟ وما أقسامهم؟

١٢. ينقسم الذين يرتكبون المحرمات إلى قسمَين؟ اذكرهما؟

١٣. مَن هو المستحل؟ وما حكمه؟ اذكر مثالا عليه.

١٤. ما هو قول الخوارج في مرتكب الكبيرة؟ وما دليلهم؟

١٥. كيف تردّ على الخوارج في تأويلهم الآيات لبدعتهم؟

١٦. اذكر دليلا واضحًا من القرآن والسنة على فساد معتقد الخوارج؟

١٧. بيّن حُكم المنتهك؟

١٨. أيهما أشدّ: توبة المنتهك، أم توبة المستحل؟

١٩. ما هي حقوق المسلمين العامة؟ وهل تشمل بَرَّهم وفاجرهم؟

٢٠. ما حكم البغاة من المسلمين؟

٢١. هل تجوز غنيمة أموال المسلمين أو سبي ذراريهم؟

٢٢. ذهب بعض العلماء إلى المنع من الصلاة على أصحاب الكبائر؟ اذكر هذه الكبائر، وبيِّن رأي الشارح في المسألة، والأدلة التي استدلّ بها؟

٢٣. مَن هم اليهود؟ وما سبب ضلالهم؟

٢٤. عرّف النصارى؟ وهل هناك شيء مشترك بينهم واليهود؟

٢٥. الصابئون قوم لم تتضح للناس عقائدهم، اذكر خلاف العلماء في ذلك؟

٢٦. بسط الشارح الكلام عن الصابئين في كتاب آخر، ما اسم ذلك الكتاب؟

٢٧. إلى مَنْ يُنسب المجوس؟ وماذا يعبدون؟

٢٨. كيف تردّ على مَنْ جزم بأنَّ المجوس أهل كتاب؟

٢٩. ذكر الناظم حكما واحدا لأربع ملل؟ اذكر هذه الملل وحكمها المشترك؟

٣٠. ما هي الآية التي تـــدل على الحكم المذكور في أهل الكتاب؟

٣١. لماذا أجري على الصابئين حكم أهل الكتاب؟

٣٢. من أين عرفنا إلحاق المجوس بأهل الكتاب؟

٣٣. عرّف الجزية، وبيّن المقصود منها؟

٣٤. ما حكم أكل ذبائـــح أهل الذمة ونكاح الحرائر من نسائهم؟

٣٥. هل تحلّ نساء أهل الكتاب في حال الحرب؟ ولماذا؟

٣٦. ما حكم ذبائح أهل الكتاب المحاربين؟ وأين شرح الشارح هذه المسألة؟

٣٧. اختلف العلماء في تحديد مقدار الجزية، بيّن القول الصحيح في ذلك؟

٣٨. مَن هم الذين لا تُؤخذ عليهم جزية من أهل الكتاب؟

٣٩. بيّن خلاف العلماء في أخذ الجزية على المفلس؟

٤٠. إذا أدَّى المجوس الجزية فهل يحلّ للمسلمين نكاح نسائهم وأكل ذبائحهم؟

٤١. لماذا سُمّيت الجزية بهذا الاسم؟

٤٢. ما حكم الملل الأربع المتقدمة إن أبت الإسلام ودفع الجزية معا؟

٤٣. هل يشترك المجوس والصابئون واليهود والنصارى مع المشركين في وصف الشرك؟ ولماذا خُصّ المشركون بهذا الوصف؟

٤٤. ما حكم المشركين؟ وهل تُؤخذ منهم جزية؟ وما حكم ذبائحهم ونكاح نسائهم؟ أوضح إجابتك بالأدلة.

٤٥. هل يجوز تزويج المشرك مسلمة؟ اذكر دليلين من القرآن على ما تقول؟

٤٦. لماذا لم يجُز للمسلمين إنكاح الكتابيين، مع حِلّ نساء أهل الكتاب للمؤمنين؟

٤٧. ما الحكمة من مشروعية الزواج بالكتابيات الذمّيات؟

٤٨. لماذا نهى سيدنا عمر رضي الله عنه عن الزواج بالكتابيات؟

٤٩. بيّن خطر الزواج من الكتابيات في هذا العصر؟

٥٠. للخارجين عن ملة الإسلام حكم واحد إن حاربوا المسلمين، بين هذا الحكم؟

٥١. هل حكم السبي يشمل جميع شعوب المشركين؟ وما هو قول المشارقة والمغاربة في ذلك؟ وما القول الذي أيّده الشارح؟

٥٢. بيّن الحكمة من السبي؟

٥٣. أوضح سماحة الإسلام في معاملة أسرى الحرب؟

٥٤. ما هو قول جمهور أصحابنا في أكل ذبائح أهل الكتاب؟

٥٥. لماذا اختار الشارح القول بحليّة ذبائح أهل الكتاب المحاربين؟

٥٦. حِلّ زواج الكتابيات مقـيّد بقيدَين، اذكرهما إجمالا؟

٥٧. بيِّن خطر الزواج بالكتابية في حال الحرب؟

٥٨. ما هي شروط نكاح الأمة؟ وما الدليل على ذلك؟

٥٩. لماذا شدَّد الإسلام في شروط نكاح الإماء؟

٦٠. هل يجوز نكاح الإماء من الكتابيات؟

الإِمَامَـــةُ

٦٨. إِنَّ الإِمَامَـةَ فَرْضٌ حِينَمَا وَجَـبَتْ
شُـــرُوطُهَا، لا تَكُنْ عَنْ شَـــرْطِهَا غَفِلا

هي القيادةُ الكُبْرَى للأمَّةِ، وهي ضَرُورِيَّةٌ مِنْ أَجْلِ جَمْـعِ شَـمْلِ الأمَّـةِ وتأليـفِ قلوبِهَـا والنُّهُوضِ بِمَسْـؤُوليَّاتِها، ومِنْ بَيْنِها: الدَّعْوَةُ إِلى الْخَيْرِ، والأمرُ بالْمَعْـرُوفِ والنَّهْيُ عَـنِ الْمُنْكَرِ، وإقامــةُ الحُدُودِ الشَّـرْعِيَّةِ، وإِغَاثــةُ الْمَلْهُوفِين ونُصْـرَةُ الْمَظْلُومِينَ، والجهادُ في سـبيلِ اللهِ، وإقامةُ الْجُمُعَاتِ، فإنَّ ذلك مِنْ مَسْؤُولِيَّاتِ الأمَّةِ، ولا يُمْكِنُ أنْ يَقُومَ بذلك أفرادٌ مُشَتَّـــتُونَ، وإنَّمــا يَتِمُّ ذلك فــي حينِ قيــامِ النِّظامِ الشــرعيِّ، ووُجُــودِ قائدٍ للأمَّــةِ تُفَوِّضُ إليــهِ أمْرَهَا وتُسْلِسُ لَهُ قِيادَهَا، وتَحُوطُهُ بِنُصْحِها وتوجيهاتِها.

وهو مَنْصِبٌ لا يُخْتَــارُ لَهُ إلَّا مَــنْ كان **ذَا أهْلِيَّةٍ تامَّةٍ**، وذلك بأنْ يكونَ رَجُلًا، مُسْــلِمًا، وَرِعًا، سَلِيمَ

الحواسِّ والعَقْلِ، لَيْسَــتْ بِهِ عاهَةٌ، وأنْ يكونَ حُرًّا بالِغًا، مُتَمَتِّعًا بِمُؤَهِّلاتِ القِيَادةِ؛ مِنَ الإقدامِ وحُسْــنِ السياســةِ والْحِنْكَةِ وسَعَــةِ الصَّدْرِ ورَبَاطَةِ الجَأْشِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ، والخِبْرَةِ بشؤون الدينِ والدنيا، ومعنى هَــذا أنَّه لا بُدَّ مِنْ أنْ يكونَ عالِمًــا مُجْتَهِدًا، أو أنْ يكونَ مِنْ حَوْلِهِ عُلَماءُ يَسْــتَمِدُّ منهم خِبْرَتَه ويَرْجِعُ إليهم في حَلِّ الْمُشْكِلات.

وعلى كِلا الأمْرَيْــنِ لا مَنَاصَ لَهُ عن **الشُّــورَى**، وذلك بأنْ يَسْتشير في كلِّ شأنٍ أهلَ الخِبْرَةِ بِه، ففي مَجَالِ الشَّرْعِ يَسْتشــيرُ الفُقَهاءَ، وفي الشُّؤونِ الحَرْبيَّةِ يستشيرُ ذَوِي الخِبْرَةِ العَسْكَرِيَّةِ، وفي الشُّؤونِ الْمَالِيَّة يَرْجِعُ إلى ذَوِي الخِبْــرةِ الاقتصاديةِ، وهكذا في كُلِّ مَجَالٍ يَرْجِــعُ إلــى الْمُختَصِّينَ بِه، مَــعَ ضَبْطِ هذه الْمَشورَةِ بالأحكامِ الشَّرْعِيَّةِ، لأنَّ الشَّرِيعَةَ الرَّبَّانيةَ هي أسَاسُ هذا النِّظامِ.

وهذا الْمَنْصِــبُ إنَّما هــو **وِرَاثَةٌ للنُّبُــوَّةِ،** فَلِذَلِكَ لا يَتَبَوَّؤُهُ إلا مَنْ كان على مِنْهَاجِ الأنبياءِ، فَمَا لأهْـلِ

الجَوْرِ والظُّلْمِ فيه مِنْ نصيبٍ، بِدَليلِ قولِهِ تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فكَمَا أنَّ الظالِمَ لا يكونُ نَبِيًّا قَطُّ كذلِكَ لا يَقْعُدُ على عَرْشِ خِلافةِ النُّبُوَّةِ.

ولا يُشْتَرَطُ لِهَذا الْمَنْصِبِ نَسَبٌ بِعَيْنِهِ، فَجَمِيعُ الناسِ مُتَسَاوِيَةٌ فيه أَقْدَامُهُمْ عندما تَتَوَفَّرُ فيهم الشُّرُوطُ الْمَطْلُوبةُ، فَلَيْسَ العَرَبِيُّ أَوْلَى بِهِ من الأعْجَمِيِّ، ولا القُرَشِيُّ أوْلَى بِهِ من غَيْرِهِ.

وإنَّما كانَ اختيارُ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ من قُرَيْشٍ في عَهْدِ الصَّحَابَةِ ـ رِضْوَانُ اللهِ عليهم ـ مُرَاعَاةً لِمَصْلَحَةِ سِيَاسَةِ الأُمَّةِ، فإنَّ الدولَةَ كانتْ قائمةً يومَئِذٍ على أكْتَافِ العَرَبِ، لأنَّ مُعْظَمَ الرَّادَةِ في الإسْلامِ كانُوا مِنْهُمْ، وكانت العربُ جَميعًا تُجِلُّ قُرَيْشًا لِمُجَاوَرَتِهَا بَيْتَ اللهِ تعالَى الذي وَرِثَت العَرَبُ تَعْظِيمَه، ولأنَّها القائمةُ عليه، وذَلِكَ مِمَّا أوْرَثَها مَكَانةً في نُفُوسِ العَرَبِ جميعًا، وعَمَّقَ ذلك أَنِ اخْتَارَ اللهُ تعالى عَبْدَه

ورَسُولَه محمَّدًا ﷺ مِنْ بينِهم واسْتَخْلَصَهُ من ضِئْضِئ نَسَبِهِمْ، فزادَهُمْ ذلك قَدْرًا ومكانةً، فَلِذَلِكَ كانَ جَمْعُ شَتَاتِهِمْ بِأَنْ يَتَبَوَّأَ هَذِهِ الْمَكانَةَ واحِدٌ مِمَّنْ يَنْتَمِي إلى مَحْتِدِهِمْ أقْـرَبَ إلى ما أُلِفَ مِنْ شـأنِهِمْ وعُهِدَ في طِبَاعِهِـمْ، ويُؤَكِّدُ ذلـك أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه قـال: «إنَّ العَرَبَ لا تَدِينُ إلا لِهَذا الحَيِّ من قريش».

وهذا مِمَّا يُؤَكِّدُ أنَّ اخْتِيَارَ الخُلَفَاءِ مِنْهُمْ كانَ إِجْرَاءً سِيَاسِـيًّا مِنْ أَجْـلِ مَصْلَحَةِ الدِّينِ في ذلك العَـهْدِ فَحَسْب، وفيما بَعْدَ ذلك إذا وُجِدَ الأَكْـفَأُ مِنْ غَيْرِهِمْ فهو أَوْلَى بِهَذَا الشَّأْنِ، مَعَ أنَّ الذين اخْتِـيرُوا لِلْخِلافَةِ الرَّاشِـدَةِ لَمْ يُخْـتَارُوا لِقُرَشِـيَّتِهِمْ فَحَسْـب، وإنَّما لِسَابِقَتِهِمْ في الفَضْلِ، ولأَنَّهُمْ مِنَ السَّـابقين الأوَّلِين من المُهَاجِرِينَ، فكانُوا أَحْرِيَاءَ بذلك.

فإذا وُجِدَ القائمُ بِهَذَا الأمْرِ **وَجَبَتْ على المُسْلِمِينَ طاعَتُهُ** ونَصِيحَتُهُ، فإنْ أَخْطَأَ صُوِّب، وإنْ نَسِـيَ ذُكِّرَ، لأنَّ الْمُؤْمِنِيـنَ على الحَـقِّ أعْوَانٌ، وهُمْ كالجَسَـدِ الوَاحِدِ تَتَفَاعَلُ أعْضَاؤُهُ جميعًا مع كلِّ ما يَعْنِيهِ، وقد

عَطَفَ اللهُ تعالى طاعَةَ أُولِي الأَمْرِ على طاعَتِهِ وطاعةِ رَسُولِهِ ﷺ في قولِهِ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩] أيْ: مِنَ الْمُؤْمِنينَ الذين يَتَّقُونَ اللهَ ويُطِيعُونَهُ ويأمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عن الْمُنْكَرِ، فإنَّ تِلْكَ هي أسبابُ مُوَالاةِ الْمُؤمنينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، كَمَا نَصَّ عَلَيْه قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة: ٧١].

ثُمَّ إنَّه سُبْحَانَه أَمَرَ مع الاختلافِ أنْ يَكُونَ الاحْتِكَامُ إِلَيْهِ وإلى رَسُولِهِ ـ عليه أفضلُ الصلاة والسلام ـ، حيثُ عَطَفَ سبحانه على مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ طاعَتِهِ وطاعَةِ رَسُولِهِ وأُولِي الأَمْرِ من الْمُؤْمِنينَ قولَهُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أنَّ وُجُوبَ هذِهِ الطَّاعَةِ مُقَيَّدٌ بِطَاعَتِهِ تعالى وطَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ، أمَّا مَنْ خَرَجَ عن حُدُودِ

طاعَتِهِ ﷻ إلى مَعْصِيَتِهِ فلا طاعَةَ لَـهُ، ولِذَلِكَ قال أبو بَكْـرٍ رضي الله عنه: «إِنِّـي وُلِّيتُكُـمْ وَلَسْـتُ بِخَيْرِكُمْ، فَأَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيكُمْ، وإِذَا عَصَيْتُهُ فَلا طاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ».

وبِمَـا أنَّ مَنْ لَمْ يَـرْقَ إِلَى مَرْتَبَـةِ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْـيَارِ عُرْضَةٌ لِلْخَطَأِ والزَّلَلِ كانَ الحكمُ فيه إنْ وَاقَعَ مَعْصِيَـةً ـ وَلَوْ صغيرةً ـ أنْ يُسْـتَتَابَ، فإنْ تابَ أُقِرَّ، وإنْ أَصَرَّ وَجَبَ على أَهْلِ الحَلِّ والعَقْدِ عَزْلُـهُ وتقديـمُ غَيْـرِهِ مِمَّنْ يَـرَوْنَ فيه الرُّشْـدَ والصَّلاحَ.

أمَّا إِنْ كانت مَعْصِيَـتُهُ تُوجِبُ عليه حَدًّا شَرْعِيًّا ـ كالزِّنا والسَّرِقَـةِ وقَذْفِ الْمُحْصَـنَاتِ وشُـرْبِ الخَمْرِ ـ فـإنَّ إمَامَتَـهُ تَزُولُ بذلـك، ويَجِبُ على جَمَاعَـةِ الْمُسْـلِمينَ في هـذه الحَالَـةِ أنْ يَخْتَارُوا لأَمْرِهِمْ مَـنْ تَتَوَافَرُ فيه شُـرُوطُ الإِمَامَـةِ مِنْ أَهْلِ الصَّلاحِ وَالفَضْـلِ، ويَقُـومُ عِنْدَئِذٍ بِإِنْفَـاذِ الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ في الإِمَامِ الأَوَّلِ.

ومِنْ عَجَائِبِ الأَقْوَالِ قَوْلُ مَنْ ذَهَبَ إلى أَنَّهُ إنْ تَابَ يَبْقَى في إِمَامَتِهِ، وإنَّما يُخْتَارُ مِنْ بَيْنِ المسلمينَ إِمَامٌ مَوْقُوتٌ بِقَدَرِ ما يُقِيمُ عَلَيْهِ الحَدَّ الشَّرْعِيَّ. وَلَعَمْرُ الحَقِّ ما هُوَ إلَّا قِصَرُ نَظَرٍ مِنْ قَائِلِهِ، فَمَاذَا عَسَى أنْ تَكُونَ مَكَانَةُ الْمَحْدُودِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حَيْثُ التَّقْدِيرُ والتَّوْقِيرُ؟ وَلَوْ رَجَعَتْ إليهِ الوَلايَةُ بِتَوْبَتِهِ وَصَلَحَتْ أَحْوَالُهُ فإنَّه يَبْقَى عُرْضَةً للسُّخْرِيَّةِ والاسْتِخْفَافِ واللَّمْزِ والنَّبْزِ. أَفَيَصْلُحُ مَعَ ذلك أَنْ يَكُونَ قائِدًا للأُمَّةِ؛ يَلْتَئِمُ بِهِ أَمْرُهَا وتَأْتَلِفُ عليهِ قُلُوبُهَا؟ وَلَئِنْ كان الْمَحْدُودُ على الزِّنَا لَيْسَ كُفُؤًا لِمُحْصَنَةٍ عَفِيفَةٍ ولَوْ تَابَ مِنْ جَرِيرَتِهِ وإنَّما يُزَوَّجُ مِثْلَهُ مِنَ النِّسَاءِ؛ فَكَيْفَ يَكُونُ أَهْلًا لأَنْ يَتَبَوَّأَ أَعْظَمَ مَنْصِبٍ دِينِيٍّ وسِيَاسِيٍّ واجْتِمَاعِيٍّ في الأُمَّةِ؟!

لذلك كانَ القولُ بِسُقُوطِ إمامَتِهِ بِمُجَرَّدِ ثُبُوتِ مُوجِبِ الحَدِّ عَلَيْهِ هو القَوْلَ الأَوْحَدَ الذي يَجِبُ أنْ يُعَوَّلَ عليه ولا يُلْتَفَتَ إلى ما سِوَاهُ.

٦٩. وَبَاطِلٌ سِيرَةٌ فِيهَا الإِمَامَةُ في اثْـ * ـنَيْنِ لَوْ بَلَغَا في الْمَجْدِ مَا كَمَلا

الإِمَامُ هو وَاسِطَةُ عِقْدِ الْمُسْلِمِينَ، ونِظَامُ الإمامَةِ شُرِعَ في الإسلامِ مِنْ أَجْلِ جَمْعِ الشَّتَاتِ وتأليفِ القُلُوبِ وتَقْرِيبِ القَاصِي، وهو يَتَنَافَى مَعَ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ، ولِذَلِكَ كان غَيْرَ صَالِحٍ أنْ يَجْمَعَ إِمَامَيْنِ مَعًا في وَقْتٍ واحِدٍ، لأنَّ ذلكَ مِدْعَاةٌ لاخْتِلافِ الرَّأْيِ وتَشَتُّتِ الكَلِمَةِ، وقِيَامِ العَصَبِيَّةِ العَمْيَاءِ التي تَدْفَعُ بِجَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى تَعَصُّبِ كُلِّ جَمَاعَةٍ منهم لإِمَامٍ.

فإِنْ **بُويِعَا مَعًا** بَيْعَةً واحِدَةً فَبَيْعَتُهُمَا بَاطِلَةٌ، لأَنَّها جَاءَتْ مُخَالِفَةً لِهَدْيِ الإسْلامِ، وفي الحَدِيثِ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[١].

وإِنْ **سَبَقَتْ بَيْعَةُ أَحَدِهِمَا** ثُمَّ بُويِعَ الآخَرُ فالأَخِيرُ بَاغٍ يَجِبُ قَتْلُهُ إنْ لَمْ يَتَرَاجَعْ عن بَغْيِهِ ويَدْخُلْ في

(١) أخرجه الإمام الربيع؛ باب: في الولاية والبراءة (٤٩).

طاعَةِ إِمَامِ المُسْـلِمين الشَّـرْعِيِّ، اللَّهُمَّ إلَّا أنْ تَكُونَ إِمَامَةُ الأَوَّلِ سَـاقِطَةُ الاعتِبَارِ ـ لأنَّها قائمَةٌ على فَسَادٍ مِنْ أَصْلِهَا، أو لارْتِكَابِ الإمَـامِ ما يُوجِبُ عَزْلَهُ، أو لِطُرُوِّ أمْرٍ قَهْرِيٍّ يُسْـقِطُ إمَامَتَهُ كَجُنُونٍ ـ فإنَّ اجتمَاعَ أَهلِ الحَلِّ والعَقْدِ في مِثْلِ هَذِهِ الحَالَةِ لِتَقْلِيدِ الإمَامَةِ غَيْرَهُ مِمَّن تَجْتَمِعُ فِيهِمْ أَسْـبَابُ الكَفَاءَةِ لِلاضْطِلاعِ بِمَسْؤُولِيَّاتِهَا مَطْلَبٌ شَرْعِيٌّ.

و**الدَّلِيلُ** على عَـدَمِ جَوَازِ الإمَامَةِ لاثْنَيْنِ في وَقْتٍ واحِدٍ: انْعِقَادُ الإجْمَاعِ عليـه، وذلك أنَّ الأنصارَ رضي الله عنهم أرادُوا ذلك أوَّلًا عندما قال قائلُهُمْ: «مِنَّا أَمِيرٌ ومِنْكُمْ أَمِيـرٌ»، فَعَارَضَهُـمُ الْمُهَاجِـرُونَ وفـي مُقَدِّمَتِهِـمُ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه الذي قال: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ. اللهُ واحِدٌ، والرَّسُولُ واحِدٌ، والإمَامُ واحِدٌ». فاسْتَقَرَّ إِجْمَاعُ الكُلِّ على ذلك، مَـعَ ما جاءَ مِـنْ قَوْلِهِ ﷺ: «**إذا بُويِـعَ لِرَجُلَيْنِ فاضْرِبُوا عُنُقَ الثَّانِي منهما**»[1].

---

(١) أخرجه مسـلم في كتاب: الجهاد والسـير/ باب: إذا بويع لخليفتين (١٨٥٣).

هذا كُلُّهُ إنْ كان نُفُوذُ دَوْلَةِ المسلِمينَ مُمْتَدًّا في الأرضِ، بِحَيْثُ لا يَفْصِلُ بَيْنَ جانبٍ مِنْ مَكَانِ نُفُوذِهِمْ وجانِبٍ آخَرَ عَدُوٌّ مُتَرَبِّصٌ، لأنَّ الاجتماعَ في هذه الحَالَةِ مُمْكِنٌ، فلا وَجْهَ لِلْعُدُولِ عنه إلى التَّشَتُّتِ والافْتِرَاقِ.

أمَّا إنْ كانَ **نُفُوذُ المسلمينَ في جِهَتَيْنِ مُتَنَائِيَتَيْن**، بِحَيْثُ يَتَعَذَّرُ أنْ تَتَوَحَّدَ مَرْجِعِيَّتُهُم الدِّينيَّةُ والسِّياسيَّةُ لِوُجُودِ ما يَصُدُّ نُفُوذَ الإمَامِ إنْ كَانَ في جِهَةٍ إلى الجِهَةِ الأُخْرَى؛ فَلا مَانِعَ مِنْ أنْ يَجْتَمِعَ أهْلُ كُلِّ جِهَةٍ على إمَامٍ لَهُمْ وَحْدَهُمْ، كما حَصَلَ ذلك في القَرْنَيْنِ الثَّانِي والثَّالِثِ الهِجْرِيَّيْنِ في أهلِ دَعْوَةِ الحَقِّ والاستِقَامَةِ، حيثُ بُويِعَ لأَئِمَّةٍ منهم بالْمَشْرِقِ وأئِمَّةٍ بالْمَغْرِبِ، لِتَعَذُّرِ أنْ يَقُومَ الإمَامُ الْمَشْرِقِيُّ بِرِعَايَةِ أمْرِ الْمُسْلِمِينَ الذينَ هُمْ بِالْمَغْرِبِ، وكذا العَكْسُ، ولَمْ يَكُنْ نَكِيرٌ لِهَذَا الأَمْرِ.

وعندَما يَزُولُ الحَاجِزُ بَيْنَ الدَّوْلَتَيْنِ حَيْثُ يَتَوَاصَلُ فَتْحُهُمَا إلى أَنْ تَصِلَ حُدُودُ دَوْلَةِ كُلِّ إمَامٍ إلى حُدُودِ

دَوْلَةِ الإِمَامِ الآخَرِ؛ فَهُنَا يَجِبُ أنْ يُرَدَّ الأمْرُ إلى جَمَاعَةِ المسلمينَ مِنَ الجِهَتَيْنِ مَعًا، وهي التي تَخْتارُ مِنَ الإمامَيْنِ مَنْ كانَ أَكْفَأَ لِهَذا الْمَنْصِبِ بِعِلْمِهِ ودينِهِ وسياسَتِهِ وإقْدَامِهِ، وتَفَانِيهِ في هذا الأمْرِ، وتَرَفُّعِهِ عن مَطَامِعِ الدنيا، ورَغْبَتِهِ في أنْ يَقُومَ بِهَذا الأمْرِ غَيْرُهُ وأنْ يُعْذَرَ هُوَ مِنْهُ، فإذَا وَقَعَ عليه الاختيارُ جُدِّدَتْ لَهُ البَيْعَةُ، لأنَّ بَيْعَةَ كُلِّ واحِدٍ منهما تَسْقُطُ بِمَا طَرَأَ مِنْ تَلاقِي حُدُودِ دَوْلَتَيْهِمَا.

٧٠. وَبَعْدَ مَا فُتِحَتْ أُمُّ القُرَى نُسِخَا
مَا كَانَ مِنْ هِجْرَةٍ مَفْرُوضُهَا اتَّصَلا

يَعْني أنَّ فَتْحَ أُمِّ القُرَى في عهد الرَّسول ﷺ كانَ سَبَبًا لِنَسْخِ ما كان يَجِبُ مِنْ هِجْرَةِ المسلمينَ إلى دارِ الهِجْرَةِ التي هاجَرَ إليها رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ وهي طَيْبَةُ الْمُبَارَكَةُ ـ طَيَّبَ اللهُ ثَرَاهَا ـ.

فقد كانت الهجرةُ إليها مَطْلَبًا دِينِيًّا لا يَسَعُ المسْلِمَ تَرْكُهُ في حالَةِ الإمْكَانِ، حتى أنَّ مَنْ لَمْ

يُهَاجِرْ لَمْ يَسْتَحِقَّ وَلايَةَ المؤمنينَ لَهُ، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وما ذلك إلا لِمَا أَرَادَهُ اللهُ تعالى مِن اجتماعِ أمَّةِ الإسلامِ في صَدْرِ تارِيْخِهَا عندما تَمَخَّضَت الأَحْدَاثُ فَتَمَّ مِيلادُهَا، لِيَكُونَ في هذا الاجتماعِ الْتِفَافٌ مِنْ بَعْضِهَا حَوْلَ بَعْضٍ، للتعاوُنِ على البِرِّ والتقوى، ولِيَتَرَبَّى أفرادُها في كَنَفِ دولَةِ الإسْلامِ الناشِئَةِ على التَّضْحِيَةِ والبَذْلِ والزُّهْدِ في الدنيا والرَّغْبَةِ فيما عِنْدَ اللهِ.

ولا رَيْبَ أنَّ في ذلك امتِحَانًا للمُهَاجِرينَ واختِبَارًا لِصِحَّةِ إيمانِهِمْ، فإنَّ هِجْرَتَهُمْ إنَّما كانتْ مِنْ دِيَارٍ أَلْفُوهَا، وأمْوَالٍ اقْتَنَوْهَا، ومَسَاكِنَ ارْتَضَوْهَا، مُتَجَرِّدِينَ مِنْ عَلائِقِ الدنيا، وذلك أمْرٌ لا يُوَطِّنُ عليهِ نَفْسَهُ إلا مَنْ كَانَ رَاسِخَ الإيمانِ مَاضِيَ العَزِيمَةِ، لا يَرَى الدنيا شيئًا بِجَانِبِ دِينِهِ.

فَلِذَلِكَ مَدَحَهُمُ اللهُ تعالى بقولِهِ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ

وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨]، وَوَعَدَهُمُ الحُسْنى بِقَوْلِهِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤١]، وقولِه: ﴿ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠].

وَمَا كانتْ هَذِهِ الهِجْرَةُ إلى الْمُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ النَّظِيفِ النَّاشِئِ إلا رَمْزًا لِهِجْرَةِ الكُفْرِ والفُسُوقِ، وَتَوْلِيَةِ الوَجْهِ نَحْوَ مَرْضَاتِهِ ﷻ، مَعَ أنَّ الْمُجْتَمَعاتِ الأُخْرَى كانتْ عَفِنَةً بِنَتْنِ الكُفْرِ والفُسُوقِ، فَلَمْ تَكُنْ بِيئَتُهَا صَالِحَةً لاسْتِقْرَارِ الْمُؤْمِنِ بِهَا، لِذَلِكَ كُلِّهِ شُرِعَت الهِجْرَةُ وكانتْ لِزَامًا.

وَبَعْدَ مَا فُتِحَتْ أُمُّ القُرَى أي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَة ـ حَرَسَهَا اللهُ ـ نُسِخَ وُجُوبُ الهِجْرَةِ، كما جاءَ في الحديث: «لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»(١).

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير/ باب: فضل الجهاد والسير (٢٦٣١)، ومسلم في كتاب: الجهاد والسير/ باب: الْمبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير (١٨٦٤).

وذلك لأنَّ فَــتحَ مَكَّةَ كان إِيذَانًا بِفَتْحِ الْجَـزِيرَةِ العَـرَبِيَّةِ بِأَسْرِهَا واسْتِقْرَارِ الإسلامِ بِهَا، فَلَمْ يَكُنْ دَاعٍ بعدَ ذلك إلى إلْزَامِ هذه الْجَمَاهِـير الْمُؤْمِنَةِ أنْ تُهَاجِرَ مِنْ دِيَارِهَا وَتَسْتَقِرَّ في مِسَاحَةٍ مَحْدُودَةٍ مِنَ الأرض، كَمَا هُوَ الشَّــأْنُ في الذين هاجَرُوا إلــى الْمَدِينَةِ قَبْلَ نَسْــخِ الْهِجْرَةِ، فإنَّ في تَكْلِيفِ جميعِ الْمُؤمِنينَ بِهَذه الْهِجْــرَةِ مَشَــقَّةً بالِغَــةً، والْحَنِيفِيَّةُ جاءَتْ باليُسْــرِ لا بِالعُسْــرِ، على أنَّ دَوَاعِيَ الْهِجْرَةِ التي كانتْ أوَّلًا انْــتَهَتْ بِهَذَا الفَتْحِ، وإنَّمَــا بَقِيَ الْجِهَــادُ لِتَتَوَاصَلَ الْفُتُوحُ فــي أطْرَافِ جَزِيرَةِ العَــرَبِ وفِيمَا حَوْلَهَا مِنْ مَمَالِكِ الرُّومِ والفُرْسِ.

ولا يَعْنِي نَسْــخُ وُجُوبِ الْهِجْرَةِ بَعْدَ الفَتْحِ أنَّها لا تَجِبُ على الإِطْلاقِ، فإنَّ الْمُسْــلِمَ عندَما تَتَحَوَّلُ بِيئَتُهُ إلى بِيئَةِ كُفْرٍ - بِحَيْثُ يُفْتَنُ في دِينِهِ ويُصَدُّ عن ذِكْرِ اللهِ وعن الصَّلاة، ويكونُ غَيْرَ حُرٍّ في مُمَارَسَــةِ الوَاجِبَاتِ الدِّينِيَّةِ وَتَرْبِيَةِ أوْلادِهِ وأَهْلِهِ عَلَيْهَا - يَجِبُ عليهِ أنْ يَهْجُــرَ تِلْكَ البِيئَــةَ إلى بِيئَةٍ أُخْــرَى يَجِدُ

إسْلامُهُ فيها مُتَنَفَّسًا، ويَكُونُ آمِنًا على نَفْسِهِ وعلى أَهْلِهِ وأولادِهِ مِنَ الفِتْنَةِ في الدِّينِ والصَّدِّ عن ذِكْرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ، لأنَّ الحُرِّيَّةَ الدِّينِيَّةَ مَطْلَبٌ ضَرُورِيٌّ في حياة الْمُسْلِمِ.

ولَكِنَّ هذه الهِجْرَةَ لا تَجِبُ إلى بَلَدٍ مُعَيَّنٍ كما وَجَبَتْ مِنْ قَبْلُ إلى أَرْضِ المَدِينَةِ، وإنَّما تَجِبُ إلى أيِّ بَلَدٍ من بلادِ الإسْلامِ التي يُرْفَعُ فيها عن المُسْلِمِ أيُّ ضَغْطٍ لِصَدِّهِ عن الدِّين، فإنْ رَضِيَ بِأَنْ يَعِيشَ مَفْتُونًا بَيْنَ الْمَلاحِدَةِ والكَفَرَةِ وهو قَادِرٌ على التَّخَلُّصِ منهم بالهِجْرَةِ إلى غَيْرِهِمْ كان هَالِكًا، لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨].

وهذا الْحُكْمُ يَنْطَبِقُ على كُلِّ الْمُسْلِمِينَ الذين يَقِفُونَ تَحْتَ نِيرِ الاسْتِعْبَادِ القَهْرِيِّ مِنْ قِبَلِ

أَعْدَائِهِمْ، كَمَا حَصَلَ لِمُسْلِمِي الأَنْدَلُسِ عندما اجتاحَتْهم الْحُرُوبُ الصَّلِيبِيَّةُ، وما حَلَّ بِكَثِيرٍ مِنْ بِلادِ الْمُسْلِمِينَ في القَرْنِ الْمُنْصَرِمِ عندما اجْتَاحَتْهَا الثَّوْرَاتُ الشُّيُوعِيَّةُ.

وذِكْرُ الْمُصَنِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ نَسْخَ الْهِجْرَةِ بَعْدَ الفَتْحِ في مَعْرِضِ ذِكْرِ الإمَامَةِ وأحْكامِها فيه إِيماءٌ إلى ما ذَهَبَ إِلَيْهِ أَصْحَابُنا أهْلُ الحَقِّ والاستِقَامَةِ ـ رَحِمَهُمُ الله ـ مِنْ عَدَمِ وُجُوبِ هِجْرَةِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهِمْ عندَما تَقُومُ دَوْلَتُهُمْ، لأَنَّ جَمِيعَ بِلادِ الإسْلامِ واحِدَةٌ في الحُكْمِ.

فحَيْثُمَا يُصدَحُ بالأَذَانِ وتُقَامُ الصَّلَوَاتُ وتُمَارَسُ الشَّعَائِرُ الدِّينِيَّةُ مِنْ غَيْرِ فِتْنَةٍ ولا إكْرَاهٍ يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُقِيمَ، خِلافًا لِمَا ذَهَبَ إليهِ الخَوارِجُ مِنَ الأَزَارِقَةِ والصُّفْرِيَّةِ والنَّجْدِيَّةِ مِنَ الحُكْمِ على مَنْ عَدَاهُمْ بأَحْكَامِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلْزَام جميع النَّاسِ أَنْ يَعْتَقِدُوا مُعْتَقَدَهُمْ ـ وهو تَشْرِيكُ أهْلِ القِبْلَةِ إنْ قَارَفُوا كَبِيرَةً، وقيلَ وَلَوْ صَغِيرَةً ـ وإِلْزَامِهِمُ الهِجْرَةَ إلى دَارِهِمُ

الَّتي يَقُومُ فيها حُكْمُهُمْ، وهو نَهْجٌ لَمْ يَرْتَضِهِ أصحابُنا لِشُذُوذِهِ عمَّا جرَى عليه السَّلَفُ والخَلَفُ مِنْ هذِه الأُمَّةِ.

٧١. إِنَّا نَدِينُ بِتَصْوِيبِ الأُلَى مَنَعُوا
حُكُومَةَ الحَكَمَيْنِ حِينَمَا جَهِلا

أيْ: إنَّا نَقْطَعُ بِتَصْوِيبِ الفِئَةِ الْمُؤْمِنَةِ الَّتي أَبَتْ إلا أنْ تَمْضِيَ قُدُمًا في سبيل الحقِّ، بعدَما اسْتَبَانَتْ لَهُمُ الْحَقيقةُ عندَما الْتَبَسَتْ على كثيرٍ من إخْوَانِهِم، وتلك الفِئَةُ هُمُ الذينَ رَفَضُوا تَحْكِيمَ الْحَكَمَيْنِ فيما نَصَّ عليه الوَحْيُ، وأَبَوْا بعدَ ذلك التَّسْلِيمَ لِحُكْمِهِما.

وذلك عندَما وَقَعَ الشِّجَارُ بَيْنَ هذِهِ الأُمَّةِ بعدَما بُويِعَ الخليفةُ الرَّابِعُ الإمامُ عَلِيُّ بنُ أبي طَالِبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وَجْهَه ـ البَيْعَةَ الشَّرْعِيَّةَ الَّتي تُوجِبُ على جميعِ الأمَّةِ طاعَتَهُ ما أَطَاعَ فيهِمْ رَبَّه، إذْ أَبَى مُعَاوِيَةُ بنُ أبي سُفْيَانٍ الذي كان عَامِلًا على بلاد الشَّامِ أنْ يَدْخُلَ فيما دَخَلَ فيهِ المسلمونَ، وَنَزَعَ بذلك الطاعَةَ عن الْخَلِيفَةِ الشَّرْعِيِّ، وأَجْلَبَ على الْمُسْلمين بِخَيْلِهِ

وَرَجِلِــهِ، رافِعًا شِــعَارَ الْمُطَالَبَةِ بِدَمِ عُثْمَــانَ، لِتَغْرِيرِ ضِعَافِ النُّفُوسِ مِنَ المسْــلمين، واستَطَاعَ بِدَهَائِهِ أَنْ يَجْلِبَ إلى صَفِّهِ عَمْرَو بنَ العَاصِ الدَّاهِيَةَ الْمُحَنَّكَ.

فكانت حربُ صِفِّــينَ التــي دارَتْ رَحَاها بين طَرَفَيِ الأمَّة: بيــن عُصْبَةِ الحق التــي كان يقودُها إمامُها الشــرعيُّ عليُّ بن أبي طالب وعُصْبَةِ البَغْيِ التي كان على رأسِــها مُعاويــةُ وعمرُو بنُ العاص، ولَمْ يكنْ في نَفْسِ أحدٍ من الفئةِ الأولى ريبٌ أَنَّهُمْ على حــقٍّ وأنَّ عدوَّهــم على باطلٍ، ذلــك لأنَّهم يُقاتِلون للحفاظِ على دولة الإســلامِ مــن التصدُّعِ والتمــزُّقِ، وعلى رأسِــهم قائدٌ شــرعيٌّ بُويِعَ على أساسٍ مِنْ شــرْعِ الله كما بُويِعَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الخُلَفاءِ الراشــدين، مع مَجِيءِ النصِّ صريحًــا بقتالِ الفئة الباغية، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحُجُرات: ٩].

ومِمَّا زادَهم يقينًا أنَّ قَــتْلَ عَمَّــارٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان على أيْدِي تِلْكَ الفِئَةِ الْمُنْشَقَّةِ عن جَماعةِ الْمُسلمين، فقد

قتله أصحابُ معاوية، مع ثُـبُوتِ قَوْلِ النبي ﷺ فيه: «وَيْحَ عَمَّارٍ! تَقْتُلُهُ الفِئَةُ الباغِيَةُ»[1]، وهو حديثٌ يُفيدُ القَطْعَ، لأنــه رَواه عن النبي ﷺ أكثرُ مَنْ عشــرين صحابيًّا، بل رَواه معاويةُ نفسُــه وعمرٌو نفسُــه، ولَمْ يبقَ رَيْبٌ في صِحَّتِهِ.

ولكنْ لَمَّــا كادَ الحــقُّ يُزْهِقُ الباطلَ بِدَحْــرِ فِئَتِهِ واســتئصالِ شَــأْفَتِه تَمَخَّضَ دَهاءُ عَمْرٍو عن مَكِيدةٍ أَوْقَعَتْ كثيرًا مــن الذين كانوا يُدافِعُون عن الحقِّ في الفَخِّ، فانقلبوا من اليقينِ إلى الارتيابِ، وذلك عندما أَمَرَ بِرَفْعِ المصاحِفِ على أطــرافِ الرِّماحِ والْمُنادَاةِ بتحكيمِ القرآنِ مِنْ أجْلِ صَوْنِ الدِّمَاءِ والحفاظِ على الأرواحِ، وقد وُجِدَ في صُفُوفِ أهــلِ الحقِّ مَنْ غَرَّهُ بَرِيقُ الدنيــا فاصْطَنَعَهُ معاويــةُ بِمَالِهِ لِنَفْسِــهِ؛ وهو أَشْعَثُ بنُ قيسٍ، الذي أَخَذَ يُرَوِّجُ بينَ الناس لِمَا دَعَا إليه عمرٌو ومعاويةُ ومَنْ معهما مِنْ فِئَة أهلِ البَغْي.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الصلاة / باب: التعاون في بناء المساجد (٤٤٧).

فانْطَلَتْ هذه الحيلـــةُ على الضعفـــاءِ، وأوْجَدَت خَلْخَلَةً بالغةً في صُفُوفِ المؤمنين، مع أنَّ أصحابَ البصائرِ وعلى رأسِــهم أبو السِّــبْطَيْنِ نَادَوْا مِنْ أوَّلِ الأمرِ بِرَفْضِهــا، وأَدْرَكُوا أنَّها خديعـــةٌ مُبَطَّنَةٌ لِتَكونَ الكَــرَّةُ للباطِلِ بعــدَ أنْ كاد يَزْهَقُ، غيــرَ أنَّ ضُغُوطَ الأشْعَثِ بنِ قيسٍ ومَنْ مَالأَه أدَّتْ إلى أنْ يَتَنَازَلَ أميرُ المؤمنين عن موقِفِه الصَّامِدِ.

وقــد وَقَفَ أصحــابُ البصائر والهُــدَى مُعَارِضِينَ لذلك، لا يبغون بديلًا عن الجهاد الحاســمِ على رَغْمِ أنَّ قيــاداتِ الجيشِ أخــذَتْ تَتَهَــاوَى في فَــخِّ هذه الخديعة، وتَمَخَّضَتْ عن تَحْكيــمِ حَكَمَيْنِ في القضيَّةِ يُقَدِّمانِ ويُؤَخِّــرَانِ، مع أنَّ أصــواتَ الْمُعَارَضَةِ كانت تُجَلْجِلُ بالدعوةِ إلــى الْمُضِيِّ قُدُمًا حتــى يَقْضِيَ اللهُ شــأنَه، مُنَادِيةً بِرَفْضِ كلِّ حُكْمٍ إلا ما حَكَمَ اللهُ به في قولِـه: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحُجُـرات: ٩]، ولِسَانُ حالِهَا يُعَبِّرُ عن مَكْنُونِ مَشَاعِرِها الْمُفْعَمَةِ بالحُبِّ لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ ويَعْسُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، والحَسْرَةِ على ما آلَ إليه الأمرُ وهو يقول:

أَبَا حَسَـــنٍ ذَرْهَا حُكُومَةَ فَاسِــقٍ
جِرَاحَاتُ بَــدْرٍ فِي حَشَـــاهُ تَفُورُ
أَبَا حَسَـــنٍ أَقْدِمْ فَأَنْتَ عَلَى هُدًى
وَأَنْـــتَ بِغَايَـــاتِ الغَــوِيِّ بَصِيرُ
أَبَا حَسَـــنٍ لا تُعْـطِـيَـــنَّ دَنِـــيَّةً
وَأَنْـــتَ بِسُـــلْطَانِ القَدِيـــرِ قَدِيـــرُ
أَبَا حَسَنٍ إِنْ تُعْطِهَا اليَوْمَ لَمْ تَزَلْ
يَـــحُلُّ عُـــرَاهَا فَاجِــرٌ وَمُبِيـــرُ
أَبَا حَسَنٍ أَطْلَقْتَهَـــا لِطَلِيقِهَـــا
وَأَنْـــتَ بِقِــدِّ الأَشْــعَرِيِّ أَسِـــيرُ
أَتَحْبِسُ خَيْلَ اللهِ عَنْ خَيْلِ خَصْمِهِ
وَسَـــبْعُونَ أَلْفًـــا فَوْقَهُـــنَّ هَصُورُ
أَثِرْهَا رِعَالًا تَنْسِــفُ الشَّـــامَ نَسْفَةً
بِـــثَارَاتِ عَمَّـــارٍ لَهُـــنَّ زَفِيـــرُ
وَصُكَّ ثُغُـــورَ القَاسِـــطِينَ بِفَيْلَقٍ
لَـــهُ مَـــدَدٌ مِـــنْ رَبِّـــهِ وَنَصِيـــرُ

فَلَـــمْ يَبْـــقَ إِلا غَلْوَةٌ أَوْ تَحُسَّـــهُمْ
وَيَبْكِي ابـــنَ صَخْرٍ قُبَّةٌ وَسَـــرِيرُ
فَمَالَكَ وَالتَّحْكِيم وَالحُكْمُ ظَاهِرٌ
وَأَنْـــتَ عَلِـــيٌّ وَالشَّـــآمُ تَمُـــورُ

ولَمْ يكنْ مـــن الحَكَمَيْـــنِ إلا أن اتفَقَا على خَلْعِ الإمامِ الشرعيِّ عليِّ بن أبي طالبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وَجْهَه ـ مع اختلافِهما في أمرِ خَصِيمِهِ معاويةَ بن أبي سفيان، إذْ لَمْ يَرْضَ مُمَثِّلُ فِئَتِهِ في التحكيمِ ـ وهو عَمْرُو بنُ العـــاص ـ أنْ يَعْزِلَه، وإنَّما نادَى بِهِ أميـــرًا للمُؤْمِنِينَ علـــى رأسِ كُلِّ الحاضِرِيـــنَ، فانكَشَـــفَت الْمُؤامَرَةُ وانْجَلَى الصُّبحُ لِذِي عَيْنَيْنِ.

وهنا وَجَدَ الذين رَفَضُوا التَّحْكِيـــمَ أَنَّهم أصْبَحُوا بلا قائدٍ، وقد انْفَلَتَ الزِّمامُ وأصْبَحَ الناسُ قُطْعـــانًا بلا راعٍ، وقد أطَلَّتِ الفِتْـــنَةُ برأسِـــها وفَغَـــرَتْ فَاهَا مُكَشِّـــرَةً عن أنيابِهَا العُصْلِ لِتَلْتَهِمَ ما تَبَقَّى مِنْ أمْرِ أُمَّةِ محمَّـــدٍ ﷺ، فلم يَـــرَوْا بُدًّا أنْ يُـــبَايِعوا أحدَهم للدِّفاعِ عن حِمَاهُم والذَّبِّ عن حُرُماتِ الدِّينِ، فوَقَعَ

اختيارُهم على عبدِاللهِ بن وَهْبٍ الرَّاسِبِيِّ ﵁ وخَرَجوا عن محيطِ الفتنةِ الـــذي لَفَحَتْهُ أعاصيرُهـــا الهَوْجَاءُ واعتزلوا الناسَّ، فَنَزَلُوا بالنَّهْرَوَانِ.

ولكنَّ الذين نَسَجُوا خيوطَ الفتنةِ ونَصَبُوا شَرَاكَها لإيقاعِ الأمَّةِ فيـــه لَمْ يَرُقْ لَهُمْ ذلـــك، لأنَّهم رَأَوْا أنَّ بَقَاءَ هذه الفِئَةِ يُشَـــكِّلُ عَقَبَةً كَأْدَاءَ في ســـبيلِ تَحْقِيقِ مآرِبِهِمْ، إذْ هُمْ صَخْرَةُ الصُّمُودِ الصَّلْبَةِ التي لَمْ يُفَتِّتْها ما فَتَّتَ الآخَرِين، فلم تَزِدْها الْمِحَنُ إلا صَلابةً.

لذلـــك وَجَّهُـــوا كُلَّ العِنَايَةِ إليهم فأَغْـــرَوْا بِهِمُ الناسَ وأثارُوا عليهم حَفَائِظَهُمْ بِمَـــا أَلْصَقُوهُ بِهِمْ مِنَ التُّهَمِ الكاذِبَةِ وأشـــاعُوهُ عنهم مـــن الدِّعَايَاتِ الفاجِرَةِ، حتى كانت معركةُ النَّهْرَوَانِ التي أسْفَرَتْ عن سُقُوطِ آخِرِ سُـــورٍ لِلْحَقِّ، واندْكَاكِ آخِرِ مَعْقِلٍ لِحِمَايَتِـــهِ، فَصَفَا الأمـــرُ لِمُعاوية وطُوِيَـــتْ صَفْحَةُ الخِلافَةِ الرَّاشِـــدَةِ، لِيَحُلَّ مَحلَّهَـــا مُلْكٌ عَضُوضٌ يُحْيِي في هذه الأمَّةِ نظامَ الاســـتبدادِ الكِسْـــرَوِيِّ القَيْصَرِيِّ الذي أبادَهُ الإسلامُ.

فَيَا فِتْنَةً فِـي الدِّينِ ثَـارَ دُخَانُهَا
وَذَاكَ إِلَـى يَـوْمِ النُّشُـورِ يَثُـورُ
نَجَوْنَا بِحَمْـدِ اللهِ مِنْهَا عَلَى هُدًى
فَنَحْـنُ عَلَى سَـيْرِ النَّبِيِّ نَسِـيرُ
بَصَائِرُنَـا مِـنْ رَبِّنَـا مُسْـتَمِدَّةٌ
إِذَا اشْـتَبَهَتْ لِلْمَارِقِيـنَ أُمُـورُ
وَثِقْنَا بِـأَنَّ الدِّيـنَ عُـرْوَةُ أَمْرِنَا
وَمَـا شَـذَّ عَنْـهُ فِتْنَـةٌ وَغُـرُورُ
وَأَنَّ رِجَـالًا حَكَّمُـوا اللهَ حُجَّـةٌ
عَلَى مَنْ بِتَحْكِيـمِ الرِّجَالِ يَصُورُ
بِبَيِّنَـةٍ مِـنْ رَبِّهِـمْ وَبَصِيـرَةٍ
تَجَاهَـلَ فِيهَـا عَسْـكَرٌ وَأَمِيـرُ

وَقَوْلُ الْمُصَـنِّفِ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّا نَدِينُ... إلخ» يَعْنِي: أَنَّنَا نَقْطَعُ بِتَصْوِيبِ هَـذِهِ الفِئَةِ وَتَأْيِيـدِ مَوَاقِفِهَا، لأَنَّهَا بَنَـتْهَا على أَحْكَامٍ شَـرْعِيَّةٍ جَاءَ بِهَا القُرْآنُ الكَرِيمُ.

وَقَدْ كَشَفَتِ الأَيَّامُ عَنْ سَدَادِ نَظَرِهِمْ وَجَلاءِ بَصِيرَتِهِمْ وَصَوَابِ مَوْقِفِهِمْ، إِذْ جَرَّتِ الفِتْنَةُ الَّتي كانوا يَحْذَرُونَهَا على الأُمَّةِ شَرًّا مُسْتَطِيرًا، وَنُكِبَتْ بِسَبَبِهَا بِخَسَارَةٍ لا تُقَدَّرُ بِثَمَنٍ، إِذْ فَقَدَتْ ذَلِكَ النِّظَامَ في الحُكْمِ الَّذِي كان مِثَالًا لِلنَّزَاهَةِ والعَدْلِ، وَكَانَ مَعْقِدًا لاجْتِمَاعِهِمْ وَمَنَاطًا لِتَرَابُطِهِمْ، فَإِذَا بِتِلْكُمُ الوَحْدَةِ الَّتي كانت تُنَظِّمُ شَمْلَهُمْ تَتَحَوَّلُ إِلَى قَطِيعَةٍ نَكْرَاءَ، حَتَّى كان بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدًا.

وَرَزَحَتِ الأُمَّةُ تَحْتَ نِيرِ الْجَبَّارِينَ وَقَهْرِ الظَّالِمِينَ، مُسْتَمْرِئَةً الذُّلَّ وَالهَوَانَ، مُبَرِّرَةً كُلَّ ما أَصَابَهَا مِنَ الْمُتَسَلِّطِينَ بِمُبَرِّرَاتٍ ما أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، فَأَضْفَتْ على ظُلْمِ الظَّالِمِينَ صِفَةَ الشَّرْعِيَّةِ، وَجَعَلَتْ طَاعَتَهُمْ أَمْرًا مَحْتُومًا عَلَى العِبَادِ بِانْدِرَاجِهِ ضِمْنَ طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، وَبِهَذَا انْقَلَبَتِ الْمَقَايِيسُ، وَتَبَدَّلَتِ الْمَوَازِينُ، وَاشْتَبَهَتِ الأُمُورُ، حَتَّى أَصْبَحَ الحَقُّ بَاطِلًا وَالبَاطِلُ حَقًّا.

٧٢. وَالرَّاسِبِيَّ أُوَالِي بَعْدَ جُمْلَتِهِمْ
وَمَنْ بِهِ نَسَبُ الإِسْلامِ قَدْ وُصِلا

٧٣. عَنَيْتُ نَجلَ إِبَاضٍ فَهْوَ حُجَّتُنَا
أَمَا تَرَى فَخْرَهُ لِلْمُسْلِمِينَ حُلا

أَيْ: كَمَا نَدِينُ إِجْمَالًا بِتَصْوِيبِ الَّذِينَ حَكَّمُوا اللهَ تَعَالَى وَأَبَوْا تَحْكِيمَ الرِّجَالِ فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ حُكْمٍ؛ نَخُصُّ مِنْ بَيْنِهِمْ إِمَامَهُمْ عَبْدَاللهِ بنَ وَهْبٍ الرَّاسِبِيَّ رضي الله عنه بِتَمْيِيزِهِ بِالوَلايَةِ بَعْدَ الوَلايَةِ العَامَّةِ الَّتِي تَشْمَلُهُمْ جَمِيعًا.

وَكَذَلِكَ مَنْ وُصِلَ بِهِ نَسَبُ الإِسْلامِ، وَذَلِكَ بِنِسْبَةِ أَهْلِ الحَقِّ وَالاسْتِقَامَةِ إِلَيْهِ، لِمَا اشْتَهَرَ بِهِ مِنَ الدِّفَاعِ عَنْهُمْ، وَالْمُجَاهَرَةِ بِكَلِمَةِ الحَقِّ أَمَامَ أَهْلِ الظُّلْمِ، والصَّدْعِ بِحُجَّتِهِمْ، وَهُوَ عَبْدُاللهِ بنُ إِبَاضٍ التَّمِيمِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ -.

عَلَى أنَّ هذا الانْتِسَابَ إِلَيْهِ لا يَعْدُو أنْ يَكُونَ تَمْيِيزًا وَلَيْسَ تَشْرِيعًا، إِذْ لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَيْهِ الإِتْيَانُ

بِجَدِيدٍ؛ لا مِــنْ حَيْثُ العَقِيدَةُ ولا مِــنْ حَيْثُ الفِقْهُ، وَإِنَّمَا كُلُّ ما قَامَ بِهِ هُوَ وَمَنْ نُســبَ إِلَيْــهِ: الْمُحَافَظَةُ على ما جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَدَرَجَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ رضي الله عنهم، وَفِي هَذَا يَقُولُ الْمُصَـنِّفُ رحمه الله تعالى:

وَنَحْـــنُ الأَوَّلُــونَ لَمْ يَشْــرَعْ لَنَا
نَجْــلُ إِبَــاضٍ مَذْهَبًــا يَحْمِلُنَــا

مِنْ ثَمَّ لا تَلْقَى لَهُ فِــي الْمَذْهَبِ
مَسْــأَلَةً نَرْسُــمُهَا فِــي الكُتُــبِ

فَنَحْنُ فِــي الأَصْلِ وَفِــي الفُرُوعِ
عَلَــى طَرِيــقِ السَّــلَفِ الرَّفِيــعِ

نَرْضَــى بِمَــا يَرْضَــى بِــهِ الإِلَهُ
لِــدِينِــهِ وَنَــأْبَــى مَــا يَــأْبَــاهُ

سِــيرَتُنَا سِــيرَةُ صَحْــبِ أَحْمَدَا
لا نَرْضَى أَهْلَ الظُّلْمِ فِينَا مُقْتَدَى

وَلَيْــسَ تَخْصِيصُنَا لابْنِ وَهْبٍ وابْــنِ إِبَاضٍ بِمَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ مِنْ وَلايَتِهِمَا نُكْرانًــا لِحَقِّ غَيْرِهِمَا،

فَإِنَّ كُلَّ الَّذِينَ كانوا مَعَ ابْنِ وَهْبٍ حُكْمُهُمْ كَحُكْمِهِ في ذَلِكَ، إِذْ مَـا أرادُوا إِلَّا الحَقَّ، ولا قَامُوا إِلَّا مِنْ أَجْلِهِ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ كَانُوا على رَأْيِ ابْنِ إِبَاضٍ في عَصْرِهِ أَوْ بَعْدَ عَصْرِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ أَجْلِ اشْتِهَارِهِمَا، فَابْنُ وَهْبٍ اشْـتَهَرَ مِنْ بَيْنِ الْمُحَكِّمَةُ الأُولَى لأَنَّهُ قُلِّدَ الإِمَامَةَ لِجَمْعِ الشَّـتَاتِ والْمُحَافَظَـةِ على أَدَاءِ الوَاجِـبِ، وابْنُ إِبَاضٍ كَانَ هُـوَ الْمُنَافِحَ ظَاهِرًا عَنْ هَذِهِ الفِئَةِ، إِذْ كَانَ يُجَاهِرُ بِمَا لَمْ يُجَاهِرْ بِهِ غَيْرُهُ في وُجُوهِ أَهْلِ الظُّلْمِ.

فَلِذَلِكَ عُرِفَتْ هَذِهِ الفِئَةُ بِنِسْـبَتِهَا إِلَيْهِ، وَإِلَّا فَفِي حَلَقَاتِ سِلْسِـلَةِ هَـذِهِ الفِئَةِ - مِنَ العُلَمَـاءِ الفَطَاحِلِ والأَئِمَّةِ العُدُولِ الَّذِينَ بَذَلُوا نُفُوسَهُمْ للهِ يَبْغُونَ فَضْلًا مِـنَ اللهِ وَرِضْوَانًا - مَنْ هُـمْ غُرَّةٌ لامِعَةٌ فِـي جَبِينِ التَّارِيخِ، وَدُرَرٌ مُضِيئَةٌ في تِيجَانِ الأَمْجَادِ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِمُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ:

٧٤. وَمَنْ قَفَا إِثْرَهُمْ مِـــنْ كُلِّ مُجْتَهِدٍ
شَاكِي السِّلاحِ لِقَمْعِ الخَصْمِ حِينَ غَلا

فَكُلُّ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ واضْطَلَعَ بِمَا اضْطَلَعُوا بِهِ مِنْ أَمَانَةِ الدِّينِ، فَاجْتَهَــدَ في حَمْلِ رَايَةِ الحَقِّ حَامِلًا سِلاحَهُ مِنْ أَجْلِ قَمْعِ خُصُوم أُمَّةِ الإِسْلامِ حِينَ غَلَوْا في البِدْعَةِ والفَسَــادِ؛ فَلَهُ حُكْمُهُمْ في وُجُوبِ الوَلايَةِ لَهُ، وَذَلِــكَ يَشْــمَلُ جَمِيعَ أَهْــلِ الفَضْــلِ والتَّقْوى والصَّلاحِ والاسْتِقَامَةِ.

أسئلـة:

١. عرِّف الإمامة تعريفًا موجزًا؟

٢. لماذا كانت الإمامة واجبة وضرورية؟

٣. ما هي المسؤوليات المناطة بالإمامة؟

٤. اذكر أهم الشـــروط الواجب توافرهـــا فيمن يُختار للإمامة؟

٥. على الإمام أن يستشـــير أهل الخبرة، اشـــرح ذلك بالأمثلة؟

٦. بيِّن الدليل على عدم جواز تولية الظالم إماما؟

٧. هل يُشترط نسب معين لمنصب الإمامة؟

٨. لماذا تمّ اختيار الخلفاء الراشدين من قريش في عهد الصحابة؟

٩. ماذا يجب على المســـلمين تجاه إمامهم الشـــرعي؟ اشرح إجابتك بالدليل؟

١٠. كيف يتعامل المسلمون مع الإمام إن واقع معصية من الصغائر؟ وما حكمه إن أصرّ عليها؟

١١. إذا وقع الإمام فـــي معصية تُوجب حـــدًّا؛ فمن يقوم بإنفاذ الحكم الشرعي عليه؟

١٢. ذهب بعض العلماء إلى بقاء الإمـــام في منصبه بعد توبته وإقامة الحدّ عليه، ما رأي الشارح في ذلك؟

١٣. هل يجوز أن يكون للمسلمين إمامان في مكان واحد؟ أوضح إجابتك بالدليل النصي والعقلي.

١٤. بيّن حكم البيعة بالإمامة في الأحوال الآتية: ـ

١ ـ بُويع إمامان معا بيعة واحدة.

٢ ـ بُويع إمام بيعة صحيحة ثم بويع بعده شخص آخر.

٣ ـ بُويع إمام بيعة غير صحيحة ثم بويع شخص آخر.

١٥. متى تجوز الإمامة لاثنين في وقت واحد؟ وهل وقع ذلك؟

١٦. إذا كان هناك إمامان شـــرعيّان في دولتَين منفصلتَين، فتوســـعتا حتى زال الفاصل بينهما، فما الواجب في هذا الحال؟

١٧. متى نُسخت فريضة الهجرة؟

١٨. لماذا فرض الله الهجرة أولا من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة؟

١٩. كيف كانت الهجرة امتحانا للمؤمنين؟

٢٠. وردت آيات كثيرة في مدح المهاجرين، اذكر بعضها؟

٢١. ما الدليل على نسخ وجوب الهجرة؟

٢٢. بيّن الحكمة من نسخ الهجرة إلى المدينة المنورة؟

٢٣. هل بقي من فرض الهجرة شيء في واقعنا المعاصر؟

٢٤. ما الفرق بين فريضة الهجرة قديما وحديثا؟

٢٥. ما حكم من رضي بالعيش مفتونا بين الكفرة مع قدرته على الهجرة؟ أوضح إجابتك بالدليل.

٢٦. اذكر مثالَين من التاريخ على الحكم السابق؟

٢٧. لماذا ذكر الناظم نسخ الهجرة بعد الفتح في معرض ذكر الإمامة وأحكامها؟

٢٨. ما الفرق بين الإباضية والخوارج في حكم الهجرة؟

٢٩. هل الذين رفضوا تحكيم الحكمين في موقعة صفّين كانوا على حق؟

٣٠. أين كان معاوية بن أبي سفيان قبل بيعة الإمام علي بن أبي طالب؟

٣١. كيف غرّر معاوية ضعاف النفوس من المسلمين حتى لا يبايعوا الإمام علي بن أبي طالب؟

٣٢. من أين علمنا أنَّ الإمام علي بن أبي طالب كان على حق في حربه ضدّ معاوية؟

٣٣. ما هي مكيدة عمرو بن العاص التي حوّلت مجرى حرب صفّين؟

٣٤. عرِّف بالأشعث بن قيس ذاكرًا موقفه وأثره في حرب صفّين؟

٣٥. عبِّر عن حال الفئة المؤمنة الرافضة للتحكيم بأبيات من الشعر، وكيف كانت مشاعرها تجاه هذا الحدث؟

٣٦. على ماذا اتفق الحكمان؟ وفيم اختلفا؟

٣٧. كيف انكشفت مؤامرة معاوية وعمرو بن العاص؟

٣٨. ماذا فعل الذين رفضوا التحكيم بعد انكشاف المؤامرة؟ ومن بايعوا للدفاع عنهم؟ وأين ذهبوا؟

٣٩. ما موقف أصحــاب الفتنة من الرافضيــن للتحكيم؟ وبماذا انتهى الأمر؟

٤٠. لماذا قطع المصنف بصحّة رأي الفئة الرافضة للتحكيم؟

٤١. بيّن الآثار الســيئة الكثيرة التي جرّتها تلك الفتنة في أُمّة الإسلام؟

٤٢. ما موقف المســلم العقدي تجاه من حكّم الله تعالى ورفض تحكيم الرجال فيما أنزله الله؟

٤٣. للإمام الراسبي خصوصية في الموقف السابق، بيّـنه؟

٤٤. إلى مَن يُنسب أهل الحق والاستقامة؟ وما معنى هذه النسبة؟

٤٥. لماذا خصّص الإباضية ابن وهب وابن إباض بالولاية؟

٤٦. مَــنْ يقصد الناظم بقولــه: (ومن قفا إثرهــم مِن كلّ مجتهد..إلى آخر البيت)؟

خَاتِمَةٌ

ثُمَّ اخْتَتَمَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى هَذَا النَّظْمَ بِمَا ابْتَدَأَهُ بِهِ مِنْ حَمْدِ اللهِ والصَّلاةِ والسَّلامِ على نَبِيِّهِ ﷺ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ حَيْثُ قَالَ:

٧٥. وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ عَلَى
إِتْمَامِ مَا رُمْتُ إِذْ مِنْ فَضْلِهِ كَمَلا

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى **الْحَمْدِ**، وَهُوَ هُنَا مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مُتَعَلَّقُ الْجَارِ والْمَجْرُورِ الْمُقَدَّرِ، وَتَقْدِيرُهُ: كَائِنٌ. و«**الرَّبُّ**» صِفَةٌ للهِ، وَهُوَ بِمَعْنَى: السَّيِّدِ الْمُصْلِحِ الْمَالِكِ لِلأَمْرِ.

و**العَالَمُونَ**: جَمْعُ عَالَمٍ، والعَالَمُ يَصْدُقُ عَلى أيِّ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ الكائِنَاتِ كالإِنْسِ والْجِنِّ والوَحْشِ والطَّيْرِ، واشْتِقَاقُهُ مِنَ العَلامَةِ، لأَنَّ جَمِيعَ أَفْرَادِ هَذِهِ الأَجْنَاسِ هِيَ عَلامَاتٌ عَلَى وُجُودِ اللهِ سُبْحَانَهُ.

وَقَدْ حَمَدَ الْمُصَنِّفُ ﵀ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ هُنَا حَمْدًا مَقْرُونًا بِذِكْرِ النِّعْمَةِ الَّتِي هِيَ مَنْشَأٌ لِلْقِيَامِ بِهَذَا الحَمْدِ، وَهِيَ التَّوْفِيقُ لإِنْجَازِ ما رَامَه - أيْ قَصَدَهُ - مِنْ نَظْمِ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ الْمُخْتَصَرَةِ مِنْ عَقَائِدِ أَهْلِ الحَقِّ، وفي هَذَا الاخْتِتَامِ بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى شُكْرٌ لَهُ ﷻ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَتَبَرُّكٌ بِذِكْرِهِ وَحَمْدِهِ، وَتَفَاؤُلٌ بِخَتْمِ الأَجَلِ بِالعَمَلِ الصَّالِحِ.

٧٦. ثُمَّ الصَّلاةُ وَتَسْلِيمٌ يُقَارِنُهَا
عَلَى الَّذِي خَتَمَ الْمَوْلَى بِهِ الرُّسُلا

٧٧. وَالآلِ وَالصَّحْبِ مَا لاحَتْ فَضَائِلُهُمْ
وَمَنْ لَهُمْ فِي سَبِيلِ الْمَكْرُمَاتِ تَلا

سَبَقَ القَوْلُ في مَعْنَى **الصَّلاةِ والتَّسْلِيم والآلِ والصَّحْبِ**، فَلا دَاعِيَ لِتَكْرَارِهِ، وعَطَفَ عَلَيْهِمْ هُنَا كُلَّ مَنْ سَارَ على نَهْجِهِمْ في **سَبِيلِ الْمَكْرُمَاتِ**، وَهِيَ سَبِيلُ الْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى، فالْمَكْرُمَاتُ تَتَمَيَّزُ عَنْ غَيْرِهَا بِمُوَافَقَةِ نَهْجِ الحَقِّ، إِذْ مَنْ حَادَ عَنْ هَذَا النَّهْجِ الصَّحِيحِ فَلا كَرَامَةَ لَهُ.

وَهَذَا آخِرُ مَا يَسَّــرَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ تَهْذِيبِ ما كُنْتُ أَمْلَيْتُهُ سابِقًا مِنَ التَّعْلِيقِ عَلى هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَلَمْ تَكُنِ الفُرْصَةُ سَانِحَةً لِكِتَابَةِ شَرْحٍ يَلِيقُ بِقَدرِ هَذِهِ الْمُنْظُومَةِ، وَإِنَّما أَمْلَيْتُ هَــذَا الْمُدَوَّنَ عَلَى كَاتِبِهِ مِنْ غَيْرِ رُجُوعٍ إِلَى مَرْجِعٍ عِلْمِــيّ إِلَّا في حَالاتٍ نَادِرَةٍ، وَإِنَّما أَرَدْتُّ بِهِ أَنْ يَجِدَ فيهِ الطَّلَبَةُ النَّاشِئُونَ ما يُعِينُهُمْ على فَهْمِ الْمُــرَادِ مِنْ **غَايَــةِ الْمُرَادِ**، لِيَسْــهُلَ عَلَيْهِمْ دَرْسُهَا، وَلِيُتْقِنُوا دَرْكَ مَقَاصِدِهَا.

واللهُ هُوَ الْمَسْؤُولُ بِأَنْ يُنْعِمَ عَلَيَّ بِالرِّضَا والقَبُولِ، وأنْ يَمْنَحَنــي التَّوْفِيقَ لِمَا يُرْضِيهِ عَنِّــي مِنَ الأَقْوالِ والأَعْمَالِ، وأنْ يُزَكِّيَ ذَلِكَ كُلَّهُ بِالإِخْلاصِ لَهُ وَحْدَهُ، وأنْ يَمُنَّ عَلَيَّ بِحُسْــنِ الْخَاتِمَةِ، إِنَّهُ على كُلِّ شَــيْءٍ قَدِيرٌ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وكَانَ الفَرَاغُ مِنْ إِمْلائِهِ فــي صَبِيحَةِ الثَّلاثِينَ مِنْ شَــهْرِ رَجَب الحَرَام مِنْ عام أَلْــفٍ وأَرْبَعِمِائَةٍ وثَلاثَةٍ وَعِشْــرِينَ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ وَعَلَــى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلام.

أسئلـة:

١. ما معنى كلمة (الرب)؟

٢. بيّن معنى (العالم) بفتح اللام؟ ومن أين جاء اشتقاق هذه الكلمة؟

٣. على ماذا حمد الناظم ربه في آخر قصيدته؟

٤. من يقصد الناظم بقوله: (ومن لهم في سبيل المكرمات تلا)؟

٥. هل كان الشـــارح يعود إلى المراجع دائما في أثناء الشرح؟

٦. متى فرغ الشارح من تأليفه هذا؟

٧. ماذا قصد الشارح بشرحه للقصيدة؟

٨. سجِّـل دعاءك الخاتم لحفظ النظم وقراءة الشرح؟